الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الحادي عشر

تتمة سورة يس

على أنه حال والظرف مستقر هُمْ يحتمل أن يكون مبتدأ وأن يكون تأكيدا للضمير في فِي شُغُلٍ وفي فاكِهُونَ على أنّ أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال. وقرئ : في ظلل ، والأريكة: السرير في الحجلة «1». وقيل : الفراش فيها. وقرأ ابن مسعود : متكين يَدَّعُونَ يفتعلون من الدعاء ، أى : يدعون به لأنفسهم ، كقولك : اشتوى واجتمل ، إذا شوى «2» وجمل لنفسه. قال لبيد :

فاشتوى ليلة ريح واجتمل «3»

ويجوز أن يكون بمعنى يتداعونه ، كقولك : ارتموه ، وترامومه. وقيل : يتمنون ، من قولهم : ادّع عليّ ما شئت ، بمعنى تمنه عليّ ، وفلان في خير ما ادّعى ، أى في خير ما تمنى. قال الزجاج : وهو من الدعاء ، أى : ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وسَلامٌ بدل مما يدعون ، كأنه قال لهم : سلام يقال لهم قَوْلًا مِنْ جهة رَبٍّ رَحِيمٍ والمعنى : أنّ اللّه يسلم عليهم بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة في تعظيمهم وذلك متمناهم ، ولهم ذلك لا يمنعونه.

قال ابن عباس : فالملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين. وقيل : ما يَدَّعُونَ ، مبتدأ وخبره سلام ، بمعنى : ولهم ما يدعون سالم خالص لا شوب فيه. وقَوْلًا مصدر مؤكد لقوله تعالى وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ سَلامٌ أى : عدة من رب رحيم. والأوجه : أن ينتصب على الاختصاص ، وهو من مجازه. وقرئ : سلم ، وهو بمعنى السلام في المعنيين. وعن ابن مسعود : سلاما نصب على الحال ، أى لهم مرادهم خالصا.

[سورة يس (36) : آية 59]

وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59)

وَامْتازُوا وانفردوا عن المؤمنين ، وكونوا على حدة ، وذلك حين يحشر المؤمنون ويسار بهم إلى الجنة. ونحوه قوله تعالى

(1). قوله «السرير في الحجلة» هي بيت العروس يزين بالثياب والستور ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله و«اجتمل إذا شوى» في الصحاح : جملت الشحم أجمله جملا ، واجتملته : إذا أذبته. (ع)
(3) وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل
أرسلته فأتاه رزقه فاشتوى ليلة ريح واحتمل
للبيد بن ربيعة. والألوك : الرسالة ، أى : ورب غلام أرسلته أمه إلينا برسالة وهي هنا السؤال ، فبذلنا ما سأله من الطعام عقب سؤاله، وبين ذلك بقوله : أرسلته فأتاه رزقه ، وفيه دلالة على أنه لم يكن عندهم طعام حين أتاهم العلام ، أى : فأتاه رزقه من الصيد ، فاشتوى لنفسه من اللحم في ليلة ريح مظلمة يقل فيها الجود ، واحتمل : أى حمل كثيرا منه بنفسه لنفسه ، ولأمه التي أرسلته. ويروى : اجتمل، بالجيم : وفي الصحاح : جملت الشحم واجتملته إذا أذبته ، وهذه الروآية أنسب وأفيد.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية يقال : مازه فانماز وامتاز.

وعن قتادة : اعتزلوا عن كل خير. وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار يكون فيه ، لا يرى ولا يرى. ومعناه : أنّ بعضهم يمتاز من بعض.

[سورة يس (36) : الآيات 60 إلى 61]

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

العهد : الوصية ، وعهد إليه : إذا وصاه. وعهد الله إليهم : ما ركزه فيهم من أدلة العقل وأنزل عليهم من دلائل السمع. وعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم. وقرئ : اعهد ، بكسر الهمزة. وباب «فعل» كله يجوز في حروف مضارعته الكسر «1» ، إلا في الياء.

وأعهد ، بكسر الهاء. وقد جوز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضرب. وأحهد : بالحاء. وأحد : وهي لغة تميم. ومنه قولهم : دحا محا «2» هذا إشارة إلى ما عهد إليهم من معصية الشيطان وطاعة الرحمن ، إذا لا صراط أقوم منه ، ونحو التنكير فيه ما في قول كثير : لئن كان يهدى برد أنيابها العلا لأفقر منى إنّنى لفقير «3»

أراد : إننى لفقير بليغ الفقر ، حقيق بأن أوصف به لكمال شرائطه فىّ ، وإلا لم يستقم معنى البيت ، وكذلك قوله هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ يريد : صراط بليغ في بابه ، بليغ في استقامته ، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه. ويجوز أن يراد : هذا بعض الصراط المستقيمة ،

(1). قوله «في حروف مضارعته الكسر» لعله مضارعه. (ع)
(2). قوله «و منه قولهم دحا محا» أى : دعها معها. (ع)
(3) دعوت إلهى دعوة ما جهلتها وربى بما تخفى الصدور بصير
لئن كان يهدى برد أنيابها العلا لأفقر منى إننى لفقير
فما أكثر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتينى بالطلاق بشير
لكثير عزة. وقيل : لمجنون ليلى. وقوله «ما جهلتها» معناه : أنها عن قصد وحضور قلب. وقوله : لئن كان يهدى ، بيان للدعوة ، وما بينهما اعتراض للتأكيد وإفادة أن الدعوة كانت في السر ، أى : لئن كان يعطى برد أسنانها العليا ، خصها لأنها التي تبدو كثيرا. وقيل : العلا الشريفة ، لأحوج منى إننى لبليغ في الفقر فأنا أحق بها من كل محتاج ، لأنى أحوج الناس إليها. ويجوز أن يرد أنيابها : كناية عن ذاتها كلها ، وإننى لفقير : خبر بمعنى الإنشاء مجازا مرسلا ، لأن إظهار شدة الاحتياج يلزمه الطلب. ويجوز أنه كناية عنه وهو جواب القسم المدلول عليه باللام ، وجواب الشرط محذوف وجوبا لدلالة المذكور عليه ، وما تعجبية ، وأكثر فعل تعجب ، والأخبار مفعوله ، وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وهي على تقدير حرف الجر ، أى : أتعجب من كثرة الأخبار المخبرة بزواجها ، وهل استفهام بمعنى التمني أو التعجب مجازا مرسلا لعلاقة مطلق الطلب ، أى : أتمني ذلك أو أتعجب من عدمه.

توبيخا لهم على العدول عنه ، والتفادى عن سلوكه ، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدى إلى الضلالة والتهلكة ، كأنه قيل : أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق : أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك ، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده : هذا فيما أظنّ قول نافع غير ضار ، توبيخا له على الإعراض عن نصائحه.

[سورة يس (36) : الآيات 62 إلى 64]

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64)

قرئ : جبلا ، بضمتين ، وضمة وسكون ، وضمتين وتشديدة ، وكسرتين ، وكسرة وسكون ، وكسرتين وتشديدة. وهذه اللغات في معنى الخلق. وقرئ : جبلا ، جمع جبلة ، كفطر وخلق.

وفي قراءة على رضى الله عنه : جيلا واحدا ، لا أجيال.

[سورة يس (36) : الآيات 65 إلى 66]

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66)

يروى أنهم يجحدون ويخاصمون ، فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم ، فيحلفون ما كانوا مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث : «1» «يقول العبد يوم القيامة : إنى لا أجيز علىّ شاهدا إلا من نفسي ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول : بعدا لكنّ وسحقا. فعنكن كنت أناضل» «2» وقرئ : يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم. وقرئ : ولتكلمنا أيديهم وتشهد ، بلام كى والنصب على معنى : ولذلك تختم على أفواههم : وقرئ : ولتكلمنا أيديهم ولتشهد ، بلام الأمر والجزم على أنّ الله يأمر الأعضاء بالكلام والشهادة.

[سورة يس (36) : آية 67]

وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (67)

الطمس : تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ لا يخلو من أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل. والأصل : فاستبقوا إلى الصراط. أو يضمن معنى ابتدروا.

(1). أخرجه مسلم والنسائي من طريق الشعبي عن أنس ، ووهم الحاكم فاستدركه ،
(2). قوله «كنت أناضل» أى أجادل. (ع)

أو يجعل الصراط مسبوقا لا مسبوقا إليه. أو ينتصب على الظرف. والمعنى : أنه لو شاء لمسح أعينهم ، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع «1» الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي تردّدوا إليها كثيرا - كما كانوا يستبقون إليه ساعين في متصرفاتهم موضعين «2» في أمور دنياهم - لم يقدروا، وتعايى عليهم أن يبصروا ويعلموا جهة السلوك فضلا عن غيره.

أو لو شاء لأعماهم ، فلو أرادوا أن يمشوا مستبقين في الطريق المألوف - كما كان ذلك هجيراهم - لم يستطيعوا. أو لو شاء لأعماهم ، فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذي اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقا ، يعنى أنهم لا يقدرون إلا على سلوك الطريق المعتاد دون ما وراءه من سائر الطرق والمسالك ، كما ترى العميان يهتدون فيما ألفوا وضروا «3» به من المقاصد دون غيرها عَلى مَكانَتِهِمْ وقرئ ، على مكاناتهم. والمكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام. أى : لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضىّ ولا رجوع واختلف في المسخ ، فعن ابن عباس : لمسخناهم قردة وخنازير. وقيل : حجارة. وعن قتادة : لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم. وقرئ : مضيا بالحركات الثلاث ، فالمضىّ والمضي كالعتىّ والعتي. والمضىّ كالصبىّ.

[سورة يس (36) : آية 68]

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (68)

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ويرتقى من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص ، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبىّ في ضعف جسده وقلة عقله وخلوّه من العلم ، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله. قال عزّ وجلّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ وهذه دلالة على أنّ من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوّة إلى الضعف ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ومن العلم إلى الجهل بعد ما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه - قادر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم على مكانتهم ويفعل بهم ما شاء وأراد : وقرئ بكسر الكاف «1». وننكسه وننكسه ، من التنكيس والإنكاس أَفَلا يَعْقِلُونَ بالياء والتاء.

(1). قوله «إلى الطريق المهيع» الهيوع : الجبن ، والهيعة : الذوبان والسيلان وكل ما أفزعك من صوت ، كذا في الصحاح. ولعل المراد الذي سهله كثرة سلوكه. (ع)
(2). قوله «موضعين» في الصحاح : وضع البعير وغيره : أسرع من سيره وأوضعه راكبه. (ع)
(3). قوله «و ضروا به» أى : مرنوا. (ع)

[سورة يس (36) : الآيات 69 إلى 70]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (70)

كانوا يقولون لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : شاعر ، وروى أنّ القائل : عقبة بن أبى معيط ، فقيل وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ أى : وما علمناه بتعليم القرآن الشعر ، على معنى : أن القرآن ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء. وأين هو عن الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى ، يدل على معنى ، فأين الوزن؟ وأين التقفية؟ وأين

وقوله : «3»

هل أنت إلّا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت «4»

(1). قوله «و قرئ بكسر الكاف» يفيد أن القراءة المشهورة بضم الكاف ، وهما من النكس. (ع)
(2). متفق عليه من حديث البراء بن عازب في حديث.
(3). متفق عليه من حديث جندب بن سفيان في حديث. [.....]
(4) هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
يا نفس لا تقنطى بموتى هذى حياض الموت قد صليت
وما تمنيت فقد لقيت إن تفعلي فعلهما هديت
لعبد الله بن رواحة حين حمل اللواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فأصيبت أصبعه في الحرب فدميت وروى البخاري عن جندب أنه قال : بينما النبي صلى الله عليه وسلم يمشى إذ أصابه حجر ، فعثر ، فدميت أصبعه فقال «هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت» فأفاد أنه صلى الله عليه وسلم يتمثل بشعر غيره ، وهو بكسر التاء على وفق القافية ، وقال الكرماني : التاء في الرجز مكسورة ، وفي الحديث ساكنة. وقال عياض غفل بعض الناس فروى : دميت : ولقيت ، بغير مد وخالف الرواية. وروى أحمد والطيالسي أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين كان خارجا إلى الصلاة ، ودميت : صفة أصبع ، والمعنى : لم يحصل لك شيء من الأذى إلا أنك دميت ولم يكن ذلك هدرا بل كان في سبيل الله ومرضاته لا غير ، أى : الذي لقيته من الأذى في سبيل الله ، فلا تحزني ، ونزلها منزلة العاقل فخاطبها بذلك تسلية وتثبيتا لها ، وهو في الحقيقة لنفسه «ثم صرح بخطاب النفس مثبتا لها. بقوله إن لم تقتلي في الحرب فلا بد لك من الموت وهذه حياضه فلا تفرى منها لأن الوقوع في البلاء أهون من انتظاره وشبه الموت بسيل على سبيل المكنية ، فأثبت له الحياض تخييلا ، وشبهه بالنار كذلك ، فأثبت له الصلى وهو اقتحام النار ، ولا مانع من تشبيه الشيء بأمرين مختفين مع الرمز لكل منهما بما يلائمه ، ويجوز استعارة الحياض للمعرفة تصريحا ، والذي تمنيته من الحرب المؤدى إلى الشهادة فقد لقيته ، إن تفعلي كفعل زيد وجعفر ، هديت إلى طريق الخير.

قلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه الذي كان يرمى به على السليقة ، من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ولا التفات منه إليه إن جاء موزونا ، كما يتفق في كثير من إنشاءات الناس في خطبهم ورسائلهم ومحاوراتهم أشياء موزونة لا يسميها أحد شعرا ولا يخطر ببال المتكلم ولا السامع أنها شعر ، وإذا فتشت في كل كلام عن نحو ذلك وجدت الواقع في أوزان البحور غير عزيز ، على أن الخليل ما كان يعدّ المشطور من الرجز شعرا ، ولما نفى أن يكون القرآن من جنس الشعر قال إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ يعنى : ما هو إلا ذكر من الله تعالى يوعظ به الإنس والجنّ ، كما قال إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ وما هو إلا قرآن كتاب سماوي ، يقرأ في المحاريب ، ويتلى في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين؟ لِيُنْذِرَ القرآن أو الرسول وقرئ : لتنذر ، بالتاء. ولينذر : من نذر به إذا علمه مَنْ كانَ حَيًّا أى عاقلا متأملا ، لأن الغافل كالميت. أو معلوما منه أنه يؤمن فيحيا بالإيمان وَيَحِقَّ الْقَوْلُ وتجب كلمة العذاب عَلَى الْكافِرِينَ الذين لا يتأمّلون ولا يتوقع منهم الإيمان.

[سورة يس (36) : الآيات 71 إلى 73]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (71) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (73)

مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا مما تولينا نحن إحداثه ولم يقدر على توليه غيرنا ، وإنما قال ذلك لبائع الفطرة والحكمة فيها ، التي لا يصح أن يقدر عليها إلا هو. وعمل الأيدى : استعارة من عمل من يعملون بالأيدى فَهُمْ لَها مالِكُونَ أى خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم ، فهم متصرفون فيها تصرف الملاك ، مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون. أو فهم لها ضابطون قاهرون ، من قوله : أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا «1»

أى لا أضبطه ، وهو من جملة النعم الظاهرة ، وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليله وتسخيره لها ، كما قال القائل : يصرفه الصّبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير «2»

ولهذا ألزم اللّه سبحانه الراكب أن يشكر هذه النعمة ويسبح بقوله : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وقرئ : ركوبهم. وركوبتهم. وهما ما يركب ، كالحلوب والحلوبة. وقيل : الركوبة جمع. وقرئ : ركوبهم ، أى ذو ركوبهم. أو فمن منافعها ركوبهم مَنافِعُ من الجلود والأوبار والأصواف وغير ذلك وَمَشارِبُ من اللبن ، ذكرها مجملة ، وقد فصلها في قوله تعالى وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً ... الآية والمشارب : جمع مشرب وهو موضع الشرب ، أو الشرب.

[سورة يس (36) : الآيات 74 إلى 76]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (74) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (75) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (76)

(1) أصبح متى الشباب مبتكرا إن ينأ عنى فقد ثوى عصرا
فارقنا قبل أن نفارقه لما قضى من جماعنا وطرا
أصبحت لا أملك السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا
للربيع بن منيع ، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما ، عاش بعده مائة وستين. والمبتكر : المسافر أول النهار ، فهو تشبيه بليغ ، ثم تسلى بقوله : إن ينأ ، أى بعد عنى فقد أقام عندي أزمنة طويلة فارقنا ، أى : ذهب عنا قبل أن نموت ، فقوله «نفارقه» مجاز عن ذلك ، أو كناية عنه ، أو مجاز عن البغض ، والجماع : معناه الاجتماع والمصاحبة ، والوطر : الحاجة ، وهذا كله ترشيح للتشبيه أول الكلام ، ولا يخفى ما في البيت من إبهام ما كان ينبغي الاحتراس منه ، فان قضاء الوطر من الجماع اشتهر استعماله في مقام الوطء ، ثم قال : صرت لا أضبط السلاح بيدي ولا رأس البعير إن ندمنى ولا أقدر عليهما. ويروى : لا أحمل السلاح ، أى : لا أقدر على حمله ، وأخشاه : أى أخافه ، إن مررت به وحدي وأخاف الرياح والمطر ولو مع غيرى ، وكل هذا كناية عن بلوغه غاية الضعف والهرم.
(2) لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرفه الصبى بكل وجه ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير
لكثير عزة حين رآه عبد الملك بن مروان قصيرا حقيرا ، فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وقيل : للعباس ابن مرداس. وقيل : لمعاوية بن مالك الكلابي ، وعظم : ضخم وطال. واللب : العقل ، وأتى بالظاهر موضع المضمر للتهويل في الطول والجسامة ، بكل وجه : في كل جهة. والخسف : الذل. والجرير : حبل غير الزمام يربط به. والهراوى : جمع هراوة وهي العصا ، وجمعها دلالة على كثرة الضرب. والغير - بالتحريك - الغيرة.
والنكير : الإنكار ، يعنى أن العبرة بالألباب والعقول ، لا بالغلظ والطول.

اتخذوا الآلهة طمعا في أن يتقوّوا بهم ويعتضدوا بمكانهم ، والأمر على عكس ما قدّروا ، حيث هم جند لآلهتهم معدّون مُحْضَرُونَ يخدمونهم ويذبون عنهم ، ويغضبون لهم ، والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر ، أو اتخذوهم لينصروهم عند اللّه ويشفعوا لهم ، والأمر على خلاف ما توهموا ، حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلون وقودا للنار. وقرئ : فلا يحزنك ، بفتح الياء وضمها ، من حزنه وأحزنه. والمعنى : فلا يهمنك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ، فإنا عالمون بما يسرون لك من عداوتهم وَما يُعْلِنُونَ وإنا مجازوهم عليه ، فحق مثلك أن يتسلى بهذا الوعيد ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن. فإن قلت : ما تقول فيمن يقول : إن قرأ قارئ : أنا نعلم ، بالفتح : انتقضت صلاته ، وإن اعتقد ما يعطيه من المعنى : كفر؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون على حذف لام التعليل ، وهو كثير في القرآن وفي الشعر ، وفي كل كلام وقياس مطرد ، وهذا معناه ومعنى الكسر سواء ، وعليه تلبية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنّ الحمد والنعمة «1» لك ، كسر أبو حنيفة وفتح الشافعي ، وكلاهما تعليل. والثاني : أن يكون بدلا من قَوْلُهُمْ كأنه قيل : فلا يحزنك ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون. وهذا المعنى قائم مع المكسورة إذا جعلتها مفعولة للقول ، فقد تبين أن تعلق الحزن بكون اللّه عالما وعدم تعلقه لا يدوران على كسر إن وفتحها ، وإنما يدوران على تقديرك ، فتفصل إن فتحت بأن تقدّر معنى التعليل ولا تقدّر البدل ، كما أنك تفصل بتقدير معنى التعليل إذا كسرت ولا تقدّر معنى المفعولية ، ثم إن قدّرته كاسرا أو فاتحا على ما عظم فيه الخطب ذلك القائل ، فما فيه إلا نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الحزن على كون اللّه عالما بسرهم وعلانيتهم ، وليس النهى عن ذلك مما يوجب شيئا. ألا ترى إلى قوله تعالى فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ

[سورة يس (36) : الآيات 77 إلى 83]

أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى

(1). متفق عليه من حديث ابن عمر في أثناء حديث.

قبح الله عزّ وجل إنكارهم البعث تقبيحا لا ترى أعجب منه وأبلغ ، وأدل على تمادى كفر الإنسان وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادى ، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة «1» ، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخسّ شيء وأمهنه ، وهو النطفة المذرة الخارجة من الإحليل الذي هو قناة النجاسة ، ثم عجب من حاله بأن يتصدّى مثله على مهانة أصله ودناءة أوّله لمخاصمة الجبار ، وشرز صفحته «2» لمجادلته ، ويركب متن الباطل ويلج ، ويمحك ويقول : من يقدر على إحياء الميت بعد ما رمت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف له وألصقه به ، وهو كونه منشأ من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهي المكابرة التي لا مطمح وراءها ، وروى أن جماعة من كفار قريش منهم أبىّ بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاصي بزوائل والوليد ابن المغيرة تكلموا في ذلك ، فقال لهم أبىّ : ألا ترون إلى ما يقول محمد ، إنّ الله يبعث الأموات ، ثم قال : واللات والعزى لأصيرنّ إليه ولأخصمنه ، وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده وهو يقول : يا محمد ، أترى الله يحيى هذا بعد ما قد رمّ ، قال صلى الله عليه وسلم : نعم ويبعثك ويدخلك جهنم «3» وقيل : معنى قوله فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطبق قادر على الخصام ، مبين : معرب عما في نفسه فصيح ، كما قال تعالى أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ. فإن قلت : لم سمى قوله مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ مثلا؟ قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى. أو لما فيه من التشبيه ، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى ، فإذا قيل :

(1). قوله «و تغلغله في القحة» في الصحاح : وقح الرجل قحة ووقاحة ، إذا صار قليل الحياء. (ع)
(2). قوله «و شرز صفحته ... الخ» في الصحاح «الشرز» الشرس ، وهو الغلظ. والمحك : اللجاج. (ع)
(3). هكذا ذكره الحلبي عن قتادة بغير سند ، وأخرجه الحاكم من رواية أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «أن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ، ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيحيي الله هذا بعد ما رم؟ فقال : نعم ، يميتك الله - الحديث» وروى البيهقي في الشعب من طريق حصين عن أبى مالك.
قال : جاء أبى بن خلف بعظم نخر - الحديث» وروى ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : «جاء أبو جهل بعظم حائل».

من يحيى العظام على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادرا عليه ، كان تعجيزا لله وتشبيها له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه. والرميم : اسم لما بلى من العظام غير صفة ، كالرمة والرفات ، فلا يقال : لم لم يؤنث وقد وقع خبر المؤنث؟ ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول ، ولقد استشهد بهذه الآية من يثبت الحياة في العظام ويقول : إن عظام الميتة نجسة لأنّ الموت يؤثر فيها من قبل أن الحياة تحلها. وأما أصحاب أبى حنيفة فهي عندهم طاهرة ، وكذلك الشعب والعصب ، ويزعمون أنّ الحياة لا تحلها فلا يؤثر فيها الموت ، ويقولون : المراد بإحياء العظام في الآية ردّها إلى ما كانت عليه غضة رطبة في بدن حىّ حساس وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ يعلم كيف يخلق ، لا يتعاظمه شيء من خلق المنشآت والمعادات ومن أجناسها وأنواعها وجلائلها ودقائقها. ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر ، مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي تورى بها الأعراض وأكثرها من المرخ والعفار ، وفي أمثالهم : في كل شجر نار. واستمجد المرخ والعفار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر ، على العفار وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله. وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب «1». قالوا : ولذلك تتخذ منه كذينقات القصارين. قرئ : الأخضر ، على اللفظ. وقرئ : الخضراء ، على المعنى. ونحوه قوله تعالى مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على خلق الأناسى أقدر ، وفي معناه قوله تعالى لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وقرئ : يقدر ، وقوله أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ يحتمل معنيين : أن يخلق مثلهم في الصغر والقماءة «2» بالإضافة إلى السماوات والأرض أو أن يعيدهم ، لأن المعاد مثل للمبتدإ وليس به وَهُوَ الْخَلَّاقُ الكثير المخلوقات الْعَلِيمُ الكثير المعلومات. وقرئ : الخالق إِنَّما أَمْرُهُ إنما شأنه إِذا أَرادَ شَيْئاً إذا دعاه داعى حكمة إلى تكوينه ولا صارف أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ أن يكونه من غير توقف فَيَكُونُ فيحدث ، أى : فهو كائن موجود لا محالة. فإن قلت : ما حقيقة قوله أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ؟ قلت : هو مجاز من الكلام وتمثيل ، لأنه لا يمتنع عليه شيء من المكونات ، وأنه بمنزلة المأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع. فإن قلت : فما وجه القراءتين في فيكون؟ قلت : أما الرفع فلأنها جملة من مبتدإ وخبر ، لأن تقديرها : فهو يكون ، معطوفة

(1). لم أجده.
(2). قوله «و القماءة» الصغر والذلة. أفاده الصحاح. (ع)

من المباشرة بمحال القدرة ، واستعمال الآلات ، وما يتبع ذلك من المشقة والتعب واللغوب إنما أمره وهو القادر العالم لذاته أن يخلص داعيه إلى الفعل ، فيتكون فمثله كيف يعجز عن مقدور حتى يعجز عن الإعادة؟ فَسُبْحانَ تنزيه له مما وصفه به المشركون ، وتعجيب من أن يقولوا فيه ما قالوا بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بمواجب مشيئته وقضايا حكمته. وقرئ : ملكة كل شيء. وملك كل شيء.

والمعنى واحد تُرْجَعُونَ بضم التاء وفتحها. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : كنت لا أعلم ما روى في فضائل يس وقراءتها كيف خصت ، بذلك ، فإذا أنه لهذه الآية.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إن لكل شيء قلبا ، وإن قلب القرآن يس ، من قرأ يس يريد بها وجه اللّه، غفر اللّه تعالى له ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة ، وأيما مسلم قرئ عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه ، وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يحييه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة يشربها وهو على فراشه ، فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ، ويمكث في قبره وهو ريان ، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان «1». وقال عليه الصلاة والسلام «إن في القرآن سورة يشفع قارئها ويغفر لمستمعها. ألا وهي سورة يس» «2».

(1). أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبى بن كعب ، وأوله في الترمذي من رواية هرون أبى محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس. وقال : غريب. وهرون مجهول «و في الباب عن أبى بكر وأبى هريرة. فأما حديث أبى هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة. وهو ضعيف. وحديث أبى بكر : أخرجه الحكيم الترمذي.
(2). أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عمير عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى اللّه عنها.

سورة الصافات

مكية ، وهي مائة وإحدى وثمانون آية ، وقيل : واثنتان وثمانون [نزلت بعد الأنعام]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الصافات (37) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (2) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (3) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (4)رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (5)

أقسم اللّه سبحانه بطوائف الملائكة أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة ، من قوله تعالى وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ أو أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر اللّه فَالزَّاجِراتِ السحاب سوقا فَالتَّالِياتِ لكلام اللّه من الكتب المنزلة وغيرها. وقيل الصَّافَّاتِ : الطير ، من قوله تعالى وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ والزاجرات : كل ما زجر عن معاصى اللّه. والتاليات : كل من تلا كتاب اللّه. ويجوز أن يقسم بنفوس العلماء العمال الصافات أقدامها في التهجد وسائر الصلوات وصفوف الجماعات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات اللّه والدارسات شرائعه. أو بنفوس قواد الغزاة في سبيل اللّه التي تصف الصفوف وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر «1» مع ذلك لا تشغلها عنه تلك الشواغل ،

(1). قال محمود : «المقسم به طوائف الملائكة أو نفوسهم ، والمراد صفهم في الصلاة وزجرهم السحاب أى سوقهم وتلاوتهم ذكر اللّه أو العلماء والمراد تصافف أقدامهم في الصلاة وزجرهم بالمواعظ عن المعاصي وتلاوتهم الذكر ..... إلى أن قال : ... «و يكون التفاصل بين الطوائف إما على أن الأول هو الأفضل أو على العكس» قال أحمد : قد جوز أن يكون ترتيبها في التفاضل على أن الأول وهو الأفضل وعلى العكس ، ولم يبين وجه كل واحد منهما من حيث صنعة البديع ، ونحن نبينه فنقول : وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم. فقدم ، ووجه عكس هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ومنه قوله :

بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المنخير

ولا يقال : إن هذا إنما ساغ لأن الواو لا تقتضي رتبة ، فان هذا غايته أنه عذر ، وما ذكرناه بيان لما فيه من مقتضى البديع والبلاغة ، وفي هذه الآية دلالة على مذهب سيبويه والخليل في مثل وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى فإنهما يقولان : الواو الثانية وما بعدها عواطف ، وغيرهما يذهب إلى أنها حروف قسم ، فوقوع الفاء في هذه الآية موقع الواو والمعنى واحد ، إلا أن ما تزيده الفاء من ترتيبها دليل واضح على أن الواو الواقعة في مثل هذا السياق للعطف لا للقسم.

كما يحكى عن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. فإن قلت : ما حكم الفاء إذا جاءت عاطفة في الصفات؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود ، كقوله : يا لهف زيّابة للحرث الصّابح فالغانم فالآيب «1»

كأنه قيل : الذي صبح فغنم فآب. وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ، كقولك : خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل. وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك ، كقوله : رحم اللّه المحلقين فالمقصرين ، فعلى هذه القوانين الثلاثة ينساق أمر الفاء العاطفة في الصفات.

فإن قلت : فعلى أى هذه القوانين هي فيما أنت بصدده؟ قلت : إن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات في التفاضل ، وإن ثلثته ، فهي للدلالة على ترتب الموصوفات فيه ، بيان ذلك : أنك إذا أجريت هذه الأوصاف على الملائكة وجعلتهم جامعين لها ، فعطفها بالفاء يفيد ترتبا لها في الفضل : إما إن يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة ، وإما على العكس ، وكذلك إن أردت العلماء وقواد الغزاة. وإن أجريت الصفة الأولى على طوائف والثانية والثالثة على أخر ، فقد أفادت ترتب الموصوفات في الفضل ، أعنى أن الطوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل ، والتاليات أبهر فضلا ، أو على العكس ، وكذلك إذا أردت بالصافات: الطير ، وبالزاجرات : كل ما يزجر عن معصية. وبالتاليات : كل نفس تتلو الذكر ، فإن الموصوفات مختلفة. وقرئ بإدغام التاء في الصاد والزاى والذال رَبُّ السَّماواتِ خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف. وَالْمَشارِقِ ثلاثمائة وستون مشرقا ، وكذلك المغارب : تشرق الشمس كل يوم في مشرق منها وتغرب في مغرب ، ولا تطلع ولا تغرب في واحد يومين. فإن قلت : فما ذا أراد بقوله رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ؟ قلت : أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

[سورة الصافات (37) : الآيات 6 إلى 7]

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (6) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (7)

الدُّنْيا القربى منكم. والزينة : مصدر كالنسبة ، واسم لما يزان به الشيء ، كالليقة اسم لما تلاق به الدواة ، ويحتملهما قوله بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ فإن أردت المصدر ، فعلى إضافته إلى الفاعل ، أى : بأن زانتها الكواكب ، وأصله : بزينة الكواكب : أو على إضافته إلى المفعول ، أى : بأن زان اللّه الكواكب وحسنها ، لأنها إنما زينت السماء لحسنها في أنفسها ، وأصله بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ وهي قراءة أبى بكر والأعمش وابن وثاب ، وإن أردت الاسم فللإضافة وجهان : أن تقع الكواكب بيانا للزينة ، لأن الزينة مبهمة في الكواكب وغيرها مما يزان به ، وأن يراد ما زينت به الكواكب.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 41 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وجاء عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : بزينة الكواكب : بضوء الكواكب : ويجوز أن يراد أشكالها المختلفة ، كشكل الثريا وبنات نعش والجوزاء ، وغير ذلك ، ومطالعها ومسايرها. وقرئ على هذا المعنى : بزينة الكواكب ، بتنوين زينة وجر الكواكب على الإبدال. ويجوز في نصب الكواكب : أن يكون بدلا من محل بزينة وَحِفْظاً مما حمل على المعنى لأنّ المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا من الشياطين ، كما قال تعالى وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ويجوز أن يقدر الفعل المعلل ، كأنه قيل : وحفظا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ زيناها بالكواكب ، وقيل : وحفظناها حفظا. والمارد : الخارج من الطاعة المتملس «1» منها.

[سورة الصافات (37) : الآيات 8 إلى 10]

لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (8) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (9) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (10)

الضمير في لا يَسَّمَّعُونَ لكل شيطان ، لأنه في معنى الشياطين. وقرئ بالتخفيف والتشديد ، وأصله : يتسمعون. والتسمع : تطلب السماع. يقال : تسمع فسمع ، أو فلم يسمع.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هم يتسمعون ولا يسمعون ، وبهذا ينصر التخفيف على التشديد ، فإن قلت : لا يسمعون كيف اتصل بما قبله؟ قلت : لا يخلو من أن يتصل بما قبله على أن يكون صفة لكل شيطان ، أو استئنافا فلا تصحّ الصفة لأنّ الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يستمعون لا معنى له ، وكذلك الاستئناف لأنّ سائلا لو سأل : لم تحفظ من الشياطين؟

فأجيب بأنهم لا يسمعون : لم يستقم ، فبقى أن يكون كلاما منقطعا مبتدأ اقتصاصا ، لما عليه حال المسترقة للسمع «2» ، وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة. أو يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك ،

(1). قوله «من الطاعة المتملس منها» في الصحاح : يقال : انملس من الأمر ، إذا أفلت منه. (ع) [.....]
(2). أبطل الزمخشري أن يكون لا يَسَّمَّعُونَ صفة لأن الحفظ من شيطان لا يسمع لا معنى له وأبطل أن يكون أصله لئلا يسمعوا ، فحذف اللام وحذفها كثير ، ثم حذف أن وأهدر عملها مثل :
ألا أيها ذا الزاجري أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
واستبعد اجتماع هذين الحذفين ، وإن كان كل واحد منهما بانفراده سائغا ، ولما أبطل هذين الوجهين تعين عنده أن يكون ابتداء كلام اقتصاصا لما عليه أحوال المسترقة للسمع» قال أحمد : كلا الوجهين مستقيم ، والجواب عن إشكاله الوارد على الوجه الأول : أن عدم سماع الشيطان سببه الحفظ منه ، فحال الشيطان حال كونه محفوظا منه هي حاله حال كونه لا يسمع ، وإحدى الحالين لازمة للأخرى، فلا مانع أن يجتمع الحفظ منه ، وكونه موصوفا بعدم السماع في حالة واحدة لا على أن عدم السماع ثابت قبل الحفظ بل معه وقسيمه ، ونظير هذه الآية على هذا التقدير قوله تعالى وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ فقوله تعالى مُسَخَّراتٌ حال مما تقدمه العامل فيه الفعل الذي هو سخر. ومعناه مستقيم ، لأن تسخيرها يستلزم كونها مسخرة ، فالحال التي سخرت فيها هي الحال التي كانت فيها مسخرة ، لا على معنى تسخيرها مع كونها مسخرة قبل ذلك ، وما أشار له الزمخشري في هذه الآية قريب من هذا التفسير ، إلا أنه ذكر معه تأويلا آخر كالمستشكل لهذا الوجه ، فجعل مسخرات جمع مسخر مصدر كممزق ، وجعل المعنى : وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر أنواعا من التسخير ، وفيما ذكرناه كفاية ، ومن هذا النمط ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا وهم ما كانوا رسلا إلا بالإرسال ، وهؤلاء ما كانوا لا يسمعون إلا بالحفظ. وأما الجواب عن إشكاله الثاني فورود حذفين في مثل قوله تعالى يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وأصله لئلا تضلوا ، فحذف اللام و«لا» جميعا من محليهما.

إلا من أمهل حتى خطف خطفة واسترق استراقة ، فعندها تعاجله الهلكة بإتباع الشهاب الثاقب. فإن قلت : هل يصح قول من زعم أن أصله : لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت في قولك : جئتك أن تكرمني ، فبقى أن لا يسمعوا فحذفت أن وأهدر عملها ، كما في قول القائل : ألا أيها ذا الزّاجرى أحضر الوغى «1»

قلت : كل واحد من هذين الحذفين غير مردود على انفراده ، فأما اجتماعهما فمنكر من المنكرات ، على أن صون القرآن عن مثل هذا التعسف واجب. فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدّث ، وسمعت إليه يتحدّث ، وسمعت حديثه ، وإلى حديثه؟ قلت : المعدّى بنفسه يفيد الإدراك ، والمعدى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك ، والملأ الأعلى : الملائكة ، لأنهم يسكنون السماوات. والإنس والجن : هم الملأ الأسفل ، لأنهم سكان الأرض. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هم الكتبة من الملائكة. وعنه : أشراف الملائكة مِنْ كُلِّ جانِبٍ من جميع جوانب السماء من أى جهة صعدوا للاسترق دُحُوراً مفعول له ، أى : ويقذفون للدحور وهو الطرد ، أو مدحورين على الحال. أو لأنّ القذف والطرد متقاربان في المعنى ، فكأنه قيل : يدحرون أو قذفا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى بفتح الدال على : قذفا دحورا طرودا. أو على أنه قد جاء مجيء القبول والولوع. والواصب : الدائم ، وصب الأمر وصوبا ، يعنى أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أعدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع مَنْ في محل الرفع بدل من الواو في لا يسمعون ، أى : لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خَطِفَ الْخَطْفَةَ وقرئ : خطف بكسر الخاء والطاء وتشديدها ، وخطف بفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها ، وأصلهما : اختطف. وقرئ : فأتبعه ، وفاتبعه.

[سورة الصافات (37) : آية 11]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (11)

الهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي بمعنى الاستفهام في أصلها ، فلذلك قيل فَاسْتَفْتِهِمْ أى استخبرهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ولم يقل : فقرّرهم ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه.

والضمير لمشركي مكة. قيل : نزلت في أبى الأشد بن كلدة ، وكنى بذلك لشدّة بطشه وقوته أَمْ مَنْ خَلَقْنا يريد : ما ذكر من خلائقه : من الملائكة ، والسماوات والأرض ، والمشارق ، والكواكب ، والشهب الثواقب ، والشياطين المردة ، وغلب أولى العقل على غيرهم ، فقال : من خلقنا ، والدليل عليه قوله بعد عدّ هذه الأشياء : فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم من خلقنا ، بالفاء المعقبة. وقوله : أم من خلقنا ، مطلقا من غير تقييد بالبيان ، اكتفاء ببيان ما تقدّمه ، كأنه قال : خلقنا كذا وكذا من عجائب الخلق وبدائعه ، فاستفتهم أهم أشدّ خلقا أم الذي خلقناه من ذلك ، ويقطع به قراءة من قرأ : أم من عددنا ، بالتخفيف والتشديد. وأشدّ خلقا : يحتمل أقوى خلقا من قولهم : شديد الخلق. وفي خلقه شدّة ، وأصعب خلقا وأشقه ، على معنى الرد لإنكارهم البعث والنشأة الأخرى ، وأنّ من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ولم يصعب عليه اختراعها كان خلق البشر عليه أهون. وخلقهم مِنْ طِينٍ لازِبٍ إما شهادة عليهم بالضعف والرخاوة لأنّ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوّة ، أو احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب ، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا : أئذا كنا ترابا. وهذا المعنى يعضده ما يتلوه من ذكر إنكارهم البعث. وقيل : من خلقنا من الأمم الماضية ، وليس هذا القول بملائم. وقرئ : لازب ولاتب ، والمعنى واحد ، والثاقب : الشديد الإضاءة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 12 إلى 14]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14)

بَلْ عَجِبْتَ من قدرة اللّه على هذه الخلائق العظيمة وَهم يَسْخَرُونَ منك ومن تعجبك ومما تريهم من آثار قدرة اللّه، أو من إنكارهم البعث وهم يسخرون من أمر البعث.

وقرئ بضم التاء ، أى : بلغ من عظم آياتي وكثرة خلائقى أنى عجبت منها ، فكيف بعبادي وهؤلاء يجهلهم وعنادهم يسخرون من آياتي أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفعاله ، وهم يسخرون ممن يصف اللّه بالقدرة عليه. فإن قلت : كيف يجوز العجب على اللّه تعالى ، وإنما هو روعة تعترى الإنسان عند استعظامه

وقد جاء في الحديث : عجب ربكم من ألكم «1» وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم «2».

(1). قوله «من ألكم وقنوطكم» الألّ : يأتى بمعنى السرعة والأنين والفساد. أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه أبو عبيد في الغريب عن محمد بن عمرو يرفعه ، ثم قال : فقال : الألّ رفع الصوت بالدعاء. وقال بعضهم : يرويه الأول، وهو الشدة.

وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول : إنّ اللّه لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي : إنّ شريحا كان يعجبه علمه وعبد اللّه أعلم ، يريد عبد اللّه بن مسعود ، وكان يقرأ بالضم. وقيل معناه : قل يا محمد بل عجبت. وَإِذا ذُكِّرُوا ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به وَإِذا رَأَوْا آيَةً من آيات اللّه البينة كانشقاق القمر ونحوه يَسْتَسْخِرُونَ يبالغون في السخرية. أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها.

[سورة الصافات (37) : الآيات 15 إلى 19]

وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (15) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (18) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (19)

وَآباؤُنَا معطوف على محل إِنْ واسمها. أو على الضمير في مبعوثون ، والذي جوّز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام. والمعنى : أيبعث أيضا آباؤنا على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل. وقرئ أو آباؤنا قُلْ نَعَمْ وقرئ : نعم بكسر العين وهما لغتان. وقرئ : قال نعم ، أى اللّه تعالى أو الرسول صلى اللّه عليه وسلم. والمعنى : نعم تبعثون وَأَنْتُمْ داخِرُونَ صاغرون فَإِنَّما جواب شرط مقدّر تقديره : إذا كان ذلك فما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ وهي لا ترجع إلى شيء ، إنما هي مبهمة موضحها خبرها. ويجوز : فإنما البعثة زجرة واحدة وهي النفخة الثانية. والزجرة : الصيحة ، من قولك : زجر الراعي الإبل أو الغنم : إذا صاح عليها فريعت لصوته. ومنه قوله : زجر أبى عروة السباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم «1»

يريد تصوينه بها فَإِذا هُمْ أحياء بصراء يَنْظُرُونَ.

[سورة الصافات (37) : الآيات 20 إلى 21]

وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (20) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

يحتمل أن يكون هذا يَوْمُ الدِّينِ إلى قوله احْشُرُوا من كلام الكفرة بعضهم مع بعض

(1). للنابغة الجعدي. وأبو عروة : كنية العباس عم النبي صلى اللّه عليه وسلم ، كانوا يزعمون أنه يصيح بالسباع فينفق مرارة الأسد في جوفه ، وروى أن غارة أتتهم يوم حنين فصاح : يا صباحاه فأسقطت الحوامل ، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال. وزجره يزجره ، إذا صاح بمنعه ، أى : كزجر أبى عروة السباع عن الغنم إذا خاف اختلاطهن بها في البادية.

وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ كلام الكفرة. وهذا يَوْمُ الْفَصْلِ من كلام الملائكة جوابا لهم. ويوم الدين : اليوم الذي ندان فيه ، أى نجازى بأعمالنا. ويوم الفصل : يوم القضاء ، والفرق بين فرق الهدى والضلالة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 22 إلى 26]

احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (24) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

احْشُرُوا خطاب اللّه للملائكة ، أو خطاب بعضهم مع بعض وَأَزْواجَهُمْ وضرباءهم عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: وهم نظراؤهم وأشباههم من العصاة : أهل الزنا مع أهل الزنا ، وأهل السرقة مع أهل السرقة. وقيل : قرناؤهم من الشياطين. وقيل : نساؤهم اللاتي على دينهم فَاهْدُوهُمْ فعرّفوهم طريق النار حتى يسلكوها. هذا تهكم

[سورة الصافات (37) : الآيات 27 إلى 35]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (27) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (28) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (31)فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35)

اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون، ويزاولون أكثر الأمور ، ويتشاءمون بالشمال ، ولذلك سموها : الشؤمى ، كما سموا أختها اليمنى ، وتيمنوا بالسانح ، «1» وتطيروا بالبارح ، وكان الأعسر معيبا عندهم ، وعضدت الشريعة ذلك ، فأمرت بمباشرة أفاضل الأمور باليمين ، وأراذلها بالشمال. وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يحب التيامن في كل شيء «2». وجعلت اليمين لكاتب الحسنات ، والشمال لكاتب السيئات ، ووعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه ، والمسيء أن يؤتاه بشماله : استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى : من قبل الخير وناحيته، فصدّه عنه وأضله. وجاء في بعض التفاسير : من أتاه الشيطان من جهة اليمين : أتاه من قبل الدين فلبس عليه الحق. ومن أتاه من جهة الشمال : أتاه من قبل الشهوات. ومن أتاه من بين يديه : أتاه من قبل التكذيب بالقيامة وبالثواب والعقاب. ومن أتاه من خلفه : خوّفه الفقر على نفسه وعلى من يخلف بعده ، فلم يصل رحما ولم يؤد زكاة. فإن قلت : قولهم : أتاه من جهة الخير وناحيته : مجاز في نفسه ، فكيف جعلت اليمين مجازا عن المجاز؟ قلت : من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى لحق بالحقائق ، وهذا من ذاك ، ولك أن تجعلها مستعارة للقوّة والقهر ، لأنّ اليمين موصوفة بالقوة ، وبها يقع البطش. والمعنى : أنكم كنتم تأتوننا عن القوّة والقهر ، وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه. وهذا من خطاب الأتباع لرؤسائهم ، والغواة لشياطينهم بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بل أبيتم أنتم الإيمان وأعرضتم عنه ، مع تمكنكم منه مختارين له على الكفر. غير ملجئين إليه وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ من تسلط نسلبكم به تمكنكم واختياركم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً مختارين الطغيان فَحَقَّ عَلَيْنا فلزمنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ يعنى : وعيد اللّه بأنا ذائقون لعذابه لا محالة ، لعلمه بحالنا واستحقاقنا بها العقوبة ، ولو حكى الوعيد كما هو لقال : إنكم لذائقون ، ولكنه عدل به إلى لفظ المتكلم ، لأنهم متكلمون بذلك عن أنفسهم. ونحوه قول القائل : لقد زعمت هوازن قلّ مالى «3»

(1). قوله «و تيمنوا بالسانح» السانح : المار من اليسار إلى اليمين. والبارح عكسه. أفاده الصحاح. (ع)
(2). متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها أتم من هذا.
(3) ألا زعمت هوازن قل مالى وهل لي غير ما أنفقت مال
أسربه نعم ونعم قديما على ما كان هن مال وبال
ألا استفتاحية ، وهوازن : امرأته ، وضمن زعمت معنى قالت ، فعداه إلى الجملة ، ولو حكى قولها بلفظه لقال : قل مالك ، ولكن جاء بياء المتكلم لجواز الحكاية بالمعنى ، وهل : استفهام إنكارى ، وغير : حال مقدمة ، أى : ليس لي مال غير ما أنفقته في المكارم ، وأسربه. مبنى للمجهول صفة لمال ، أى : لا يسرني غير ما أنفقته ، وبين جهة الإنفاق بقوله : نعم ونعم ، أى جوابي للسائلين بذلك من قديم الزمان : هو وبال ومضرة على ما كان لي من مال ، ويجوز أن أسر مبنى للفاعل. ونعم الأولى مفعوله ، أى : هل لي مال أسربه من يجاب بنعم ، والحال أن نعم وبال على المال ، ومهلكة له قديما ، حيث أخيب السائل بها.

ولو حكى قولها لقال : قل مالك. ومنه قول المحلف للحالف : احلف لأخرجنّ ، ولتخرجنّ : الهمزة لحكاية لفظ الحالف ، والتاء لإقبال المحلف على المحلف فَأَغْوَيْناكُمْ فدعوناكم إلى الغى دعوة محصلة للبغية ، لقبولكم لها واستحبابكم الغىّ على الرشد إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فأردنا إغواءكم لتكونوا أمثالنا فَإِنَّهُمْ فإنّ الأتباع والمتبوعين جميعا يَوْمَئِذٍ يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية إِنَّا مثل ذلك الفعل نَفْعَلُ بكل مجرم ، يعنى أنّ سبب العقوبة هو الإجرام ، فمن ارتكبه استوجبها إِنَّهُمْ كانُوا إذا سمعوا بكلمة التوحيد نفروا أو استكبروا عنها وأبوا إلا الشرك.

[سورة الصافات (37) : الآيات 36 إلى 39]

وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (38) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39)

لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ رد على المشركين وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ كقوله مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وقرئ : لذائقو العذاب ، بالنصب على تقدير النون ، كقوله : ولا ذاكر الله إلّا قليلا «1» بتقدير التنوين. وقرئ على الأصل : لذائقون العذاب إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلا مثل ما عملتم جزاء سيئا بعمل سيئ.

[سورة الصافات (37) : الآيات 40 إلى 49]

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (44) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 448 فراجعه إن شئت اه مصححه.

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ ولكن عباد اللّه ، على الاستثناء المنقطع. فسر الرزق المعلوم بالفواكه : وهي كل ما يتلذذ به ولا يتقوّت لحفظ الصحة ، يعنى أنّ رزقهم كله فواكه ، لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات ، بأنهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد ، فكل ما يأكلونه يأكلونه على سبيل التلذذ. ويجوز أن يراد : رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها : من طيب طعم ، ورائحة ، ولذة ، وحسن منظر. وقيل : معلوم الوقت ، كقوله وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا وعن قتادة : الرزق المعلوم الجنة. وقوله فِي جَنَّاتِ يأباه ، وقوله وَهُمْ مُكْرَمُونَ هو الذي يقوله العلماء في حد الثواب على سبيل المدح والتعظيم ، وهو من أعظم ما يجب أن تتوق إليه نفوس ذوى الهمم، كما أنّ من أعظم ما يجب أن تنفر عنه نفوسهم هو ان أهل النار وصغارهم.

التقابل : أتم للسرور وآنس. وقيل : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

يقال للزجاجة فيها الخمر : كأس ، وتسمى الخمر نفسها كأسا ، قال : وكاس شربت على لذّة «1»

وعن الأخفش : كل كأس في القرآن فهي الخمر ، وكذا في تفسير ابن عباس مِنْ مَعِينٍ من شراب معين. أو من نهر معين ، وهو الجاري على وجه الأرض ، الظاهر للعيون : وصف بما يوصف به الماء ، لأنه يجرى في الجنة في أنهار كما يجرى الماء ، قال اللّه تعالى وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ.

بَيْضاءَ صفة للكأس لَذَّةٍ إمّا أن توصف باللذة كأنها نفس اللذة وعينها : أو هي تأنيث اللذ ، يقال : لذ الشيء فهو لذ ولذيذ. ووزنه : فعل ، كقولك : رجل طب ، قال : ولذ كطعم الصّرخدى تركته بأرض العدا من خشية الحدثان«2» يريد النوم.

(1) وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنى امرؤ أتيت المعيشة من بابها
للأعشى ، والكأس تطلق على الزجاجة فيها الخمر ، وعلى الخمر فيها : مجازا مشهورا ، وهي مؤنثة بدليل تأنيث صفتها وضميرها. يقول : ورب كأس شربتها مع لذة ، أو لأجل لذة فضرتنى ، فشربت كأسا أخرى تداويت من الأولى بها ، ليعلم الناس أنى مجرب للأمور ، وكنى عن ذلك بقوله : أتيت المعيشة من بابها ، وشبه المعيشة مع أسبابها المناسبة لها بدار لها باب على طريق المكنية وإثبات الباب تخييل ، أى : كما داويت الداء من بابه أدرك المعيشة وأحصلها من الأسباب التي تناسبها. ويروى : بدل الشطر الثاني من البيت الأول
دهاق يرنح من ذاقها
ودهقه :
كسره وغمزه غمزا شديدا ، وكأس داهق : ممتلئة ، ودهاق : مملوءة. وترنح : تميل ، لكن هذا من قافية أخرى.
(2). اللذ : وصف ، واللذة : مؤنثة ، وهي اسم للكيفية القائمة بالنفس ، واسم للشيء اللذيذ. والصرخد :
موضع من الشام ينسب إليه الشراب. والحدثان : مصدر كالحدث ، إلا أنه يدل على التجدد والتكرر ، يقول :
ورب شيء لذيذ يعنى النوم ، طعمه كطعم الشراب الطيب ، تركته بأرض الأعداء خوف نزول المكاره بى. ويروى بدل الشطر الثاني
عشية خمس القوم والعين عاشقة
وخمست القوم أخمسهم - بالضم - : أخذت خمس أموالهم.

الغول : لمن غاله يغوله غولا إذا أهلكه وأفسده. ومنه : الغول الذي في تكاذيب العرب. وفي أمثالهم : الغضب غول الحلم ، ويُنْزَفُونَ على البناء للمفعول ، من نزف الشارب «1» إذا ذهب عقله. ويقال للسكران : نزيف ومنزوف. ويقال للمطعون : نزف فمات إذا خرج دمه كله. ونزحت الركية حتى نزفتها : إذا لم تترك فيها ماء. وفي أمثالهم : أجبن من المنزوف ضرطا. وقرئ : ينزفون ، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله أو شرابه. قال :
لعمري لئن أنزفتمو أو صحوتمو لبئس النّدامى كنتمو آل أبجرا «2»

ومعناه : صار ذا ترف. ونظيره : أقشع السحاب ، وقشعته الريح ، وأكب الرجل وكبيته.

وحقيقتهما : دخلا في القشع والكب. وفي قراءة طلحة بن مصرف : وينزفون : بضم الزاى ، من نزف ينزف كقرب يقرب ، إذا سكر. والمعنى : لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو خمار «3» أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ، ولا هم يسكرون «4» ، وهو أعظم مفاسدها فأفرزه وأفرده بالذكر قاصِراتُ الطَّرْفِ قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم ، كقوله تعالى عُرُباً «5» والعين : النجل العيون «6» شبههنّ ببيض النعام المكنون في الأداحى ، وبها تشبه العرب النساء وتسميهنّ بيضات الخدور.

[سورة الصافات (37) : الآيات 50 إلى 57]

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (50) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (53) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (55) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57)

(1). قوله «من نزف الشارب في الصحاح : نزفت ماء البئر نزفا ، إذا نزحته كله. ونزفت هي : يتعدى ولا يتعدى ... ونزفت أيضا على ما لم يسم فاعله. (ع)
(2). للأبيرد. ونزف دمه : خرج منه حتى ضعف وانقطعت حركته. ونزف الرجل في الخصومة : انقطعت حجته ، وأنزف : صار ذا نزف ، فنزف وأنزف لا زمان. وقوله : لئن أنزفتم ، أى سكرتم وبطلت حركتكم ، أو انقطع شرابكم ، ولبئس الندامى : جواب القسم ، وجواب الشرط مثله محذوف ، وأنتم : هو المخصوص بالذم.
وآل أبجر : منادى ، وفيه نوع من التهكم والاستخفاف بهم.
(3). قوله «في الصحاح : الخمار : بقية السكر. (ع) [.....]
(4). قوله «و لا هم يسكرون» لعله : ولا هم عنها يسكرون. (ع)
(5). قوله «كقوله تعالى : عربا» أى متحببات إلى أزواجهن كما يأتى. (ع)
(6). قوله «النجل العيون» في الصحاح : النجل - بالتحريك : كشف العين. والرجل أنجل ، والعين نجلاء ، والجمع نجل. وفيه : مدحى النعامة : موضع بيضها. وأدحيها موضعها ، وهو أفعول من دحوت ، لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض فيه اه والأداحى : جمعه. (ع)

فإن قلت : علام عطف قوله فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ؟ قلت : على يطاف عليهم. والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشرب «1» ، قال : وما بقيت من اللّذّات إلّا أحاديث الكرام على المدام «2»

فيقبل بعضهم على بعض يَتَساءَلُونَ عما جرى لهم وعليهم في الدنيا ، إلا أنه جيء به ماضيا على عادة اللّه في أخباره. قرئ : من المصدّقين ، من التصديق. ومن المصّدّقين مشدّد الصاد ، من التصدّق ، وقيل : نزلت في رجل تصدّق بماله لوجه اللّه ، فاحتاج فاستجدى بعض إخوانه ، فقال : وأين مالك؟ قال : تصدقت به ليعوضنى اللّه به في الآخرة خيرا منه ، فقال : أإنك لمن المصدّقين بيوم الدين. أو من المتصدّقين لطلب الثواب. واللّه لا أعطيك شيئا لَمَدِينُونَ لمجزيون ، من الدين وهو الجزاء. أو لمسوسون مربوبون. يقال : دانه ساسة.

ومنه الحديث : «العاقل من دان نفسه ، «3». قالَ يعنى ذلك القائل هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إلى النار لأريكم ذلك القرين. قيل : إن في الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. وقيل : القائل هو اللّه عز وجل : وقيل بعض الملائكة يقول لأهل الجنة : هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار. وقرئ. مطلعون ، فاطلع. وفأطلع بالتشديد ، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب : ومطلعون فاطلع ، وفأطلع بالتخفيف ، على لفظ الماضي والمضارع المنصوب. يقال : طلع علينا فلان ، واطلع ، وأطلع بمعنى واحد ، والمعنى : هل أنتم مطلعون إلى القرين فأطلع أنا أيضا. أو عرض عليهم الاطلاع فاعترضوه ، فاطلع هو بعد ذلك.

وإن جعلت الإطلاع من أطلعه غيره ، فالمعنى : أنه لما شرط في اطلاعه اطلاعهم ، وهو من آداب المجالسة.

(1). قوله «كعادة الشرب» جمع شارب ، كالصحب جمع صاحب ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). الفرزدق ، يقول : وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام ، أو ما بقيت شهوة من الشهوات اللذيذة إلا أحاديث الكرام على الخمر ، وأتى بحرف الاستعلاء لأن الشراب يكون بين أيديهم والحديث من أفواههم فوقه ، وكان الظاهر : وما بقي من اللذات ، لكن أنث الفعل لأنه مفرغ لما بعد إلا ، أو للتأويل المتقدم.
(3). أخرجه الترمذي وابن ماجة ، والحاكم وأحمد والبزار وأبو يعلى والحرث والطبراني كلهم من رواية أبى بكر ابن أبى مريم عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس.

أن لا يستبد بشيء دون جلسائه ، فكأنهم مطلعوه. وقيل : الخطاب على هذا للملائكة. وقرئ : مطلعون بكسر النون ، أراد : مطلعون إياى ، فوضع المتصل موضع المنفصل ، كقوله : هم الفاعلون الخير والآمرونه «1» أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لتآخ بينهما ، كأنه قال : تطلعون ، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشعر فِي سَواءِ الْجَحِيمِ في وسطها ، يقال : تعبت حتى انقطع سوائى ، وعن أبى عبيدة : قال لي عيسى بن عمر : كنت أكتب يا أبا عبيدة حتى ينقطع سوائى إنْ مخففة من الثقيلة ، وهي تدخل على «كاد» كما تدخل على «كان» ونحوه إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، والإرداء : الإهلاك. وفي قراءة عبد اللّه : لتغوينّ نِعْمَةُ رَبِّي هي العصمة والتوفيق في الاستمساك بعروة الإسلام ، والبراءة من قرين السوء. أو إنعام اللّه بالثواب وكونه من أهل الجنة مِنَ الْمُحْضَرِينَ من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك.

[سورة الصافات (37) : الآيات 58 إلى 59]

أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59)

الذي عطفت عليه الفاء محذوف ، معناه : أنحن مخلدون منعمون ، فما نحن بميتين ولا معذبين.

وقرئ بمائتين. والمعنى أنّ هذه حال المؤمنين وصفتهم وما قضى اللّه به لهم للعلم بأعمالهم أن لا يذوقوا إلا الموتة الأولى ، بخلاف الكفار ، فإنهم فيما يتمنون فيه الموت كل ساعة ، وقيل لبعض الحكماء : ما شر من الموت؟ قال : الذي يتمنى فيه الموت.

[سورة الصافات (37) : الآيات 60 إلى 61]

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (61)

يقوله المؤمن تحدثا بنعمة اللّه واغتباطا بحاله وبمسمع من قرينه ، ليكون توبيخا له يزيد به تعذبا ، وليحكيه اللّه فيكون لنا لطفا وزاجرا. ويجوز أن يكون قولهم جميعا ، وكذلك قوله إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى إن هذا الأمر الذي نحن فيه. وقيل : هو من قول اللّه عزّ وجلّ تقريرا لقولهم وتصديقا له. وقرئ : لهو الرزق العظيم ، وهو ما رزقوه من السعادة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 62 إلى 70]

أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66)ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (69) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70)

(1) هم الفاعلون الخير والآمرونه إذا ما خشوا من حادث الدهر معظما
الخير : نصب على المفعولية. ويقال : أمرتك الخير وأمرتك به ، فالآمرونه : اسم فاعل متعد للمفعول الثاني بنفسه ، وكان حقه الفصل فوصل ، وربما كان في البيت أوقع منه في اسم الفاعل المجرد من اللام ، وما زائدة : أى إذا خافوا من حادث الدهر أمرا معظما. ويروى : مفظعا ، أى : مخيفا فحقه في حرف العين.

تمت قصة المؤمن وقرينه ، ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال أَذلِكَ الرزق خَيْرٌ نُزُلًا أى خير حاصلا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ وأصل النزل : الفضل والربع في الطعام ، يقال : طعام كثير النزل ، فاستعير للحاصل من الشيء، وحاصل الرزق المعلوم : اللذة والسرور ، وحاصل شجرة الزقوم : الألم والغم ، وانتصاب نزلا على التمييز ، ولك أن تجعله حالا ، كما تقول : أثمر النخلة خير بلحا أم رطبا؟ يعنى أنّ الرزق المعلوم نزل أهل الجنة. وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم ، فأيهما خير في كونه نزلا. والنزل : ما يقال «1» للنازل بالمكان من الرزق. ومنه إنزال الجند لأرزاقهم ، كما يقال لما يقام لساكن الدار : السكن «2». ومعنى الأوّل : أنّ للرزق المعلوم نزلا ، ولشجر الزقوم نزلا ، فأيهما خير نزلا. ومعلوم أنه لا خير في شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى إلى الرزق المعلوم ، واختار الكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم ، قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ محنة وعذابا لهم في الآخرة. أو ابتلاء لهم في الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق الشجر ، فكذبوا. وقرئ : نابتة فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ قيل : منبتها في قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها : والطلع للنخلة ، فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها : إما استعارة لفظية ، أو معنوية ، وشبه برءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر ، لأنّ الشيطان مكروه

(1). قوله «ما يقال للنازل بالمكان» لعله «ما يقام» كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «لساكن الدار السكن» في الصحاح «السكن» : كل ما سكنت إليه. (ع)

رؤوس الشياطين. وما سمت العرب هذا الثمر برءوس الشياطين إلا قصدا إلى أحد التشبيهين ، ولكنه بعد التسمية بذلك رجع أصلا ثالثا يشبه به مِنْها من الشجرة ، أى من ظلعها فَمالِؤُنَ بطونهم ، لما يغلبهم من الجوع الشديد ، أو يقسرون على أكلها وإن كرهوها ، ليكون بابا من العذاب ، فإذا شبعوا غلبهم العطش فيسقون شرابا من غساق أو صديد ، شوبه : أى مزاجه مِنْ حَمِيمٍ يشوى وجوههم ويقطع أمعاءهم ، كما قال في صفة شراب أهل الجنة وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ وقرئ : لشوبا ، بالضم ، وهو اسم ما يشاب به ، والأوّل تسمية بالمصدر. فإن قلت: ما معنى حرف التراخي في قوله ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً وفي قوله ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ؟ قلت : في الأوّل وجهان، أحدهما : أنهم يملئون البطون من شجر الزقوم ، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم ، فلا يسقون إلا بعد ملىّ تعذيبا بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو احرّ وهو الشراب المشوب بالحميم. والثاني : أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة ، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع ، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام ومباينة صفته لصفته في الزيادة عليه. ومعنى الثاني : أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم ، وهي الدركات التي أسكنوها إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون إلى أن يتملئوا ، ويسقون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم ، ومعنى التراخي في ذلك بين : وقرئ : ثم إن منقلبهم ، ثم إن مصيرهم ، ثم إن منفذهم إلى الجحيم : علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين ، واتباعهم إياهم على الضلال ، وترك اتباع الدليل. والإهراع : الإسراع الشديد ، كأنهم يحثون حثا. وقيل : إسراع فيه شبه بالرعدة.

[سورة الصافات (37) : الآيات 71 إلى 74]

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74)

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ قبل قومك قريش. مُنْذِرِينَ أنبياء حذروهم العواقب. الْمُنْذَرِينَ الذين أنذروا وحذروا ، أى أهلكوا جميعا إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الذين آمنوا منهم وأخلصوا دينهم لله ، أو أخلصهم الله لدينه على القراءتين.

[سورة الصافات (37) : الآيات 75 إلى 82]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (77) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (79) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (82)

لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية وسوء عاقبة المنذرين ، أتبع ذلك ذكر نوح ودعائه إياه حين أيس من قومه ، واللام الداخلة على نعم جواب قسم محذوف ، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره : فو الله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء. والمعنى : إنا أجبناه أحسن الإجابة ، وأوصلها إلى مراده وبغيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون هُمُ الْباقِينَ هم الذين بقوا وحدهم وقد فنى غيرهم ، فقد روى أنه مات كل من كان معه في السفينة غير ولده. أو هم الذين بقوا متناسلين إلى يوم القيامة. قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح. وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد : سام ، وحام ، ويافث. فسام أبو العرب ، وفارس، والروم. وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب. ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ من الأمم هذه الكلمة ، وهي : سَلامٌ عَلى نُوحٍ يعنى يسلمون عليه تسليما ، ويدعون له ، وهو من الكلام المحكي ، كقولك : قرأت سورة أنزلناها. فإن قلت : فما معنى قوله فِي الْعالَمِينَ؟ قلت : معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أخد منهم منها ، كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم. علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره ،

[سورة الصافات (37) : الآيات 83 إلى 87]

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (83) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (85) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (87)

مِنْ شِيعَتِهِ ممن شايعه على أصول الدين وإن اختلفت شرائعهما. أو شايعه على التصلب في دين اللّه ومصابرة المكذبين. ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق في أكثر الأشياء. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من أهل دينه وعلى سنته ، وما كان بين نوح وإبراهيم إلا نبيان :

هود ، وصالح. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة. فإن قلت : بم تعلق الظرف؟

قلت : بما في الشيعة من معنى المشايعة ، يعنى : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم. أو بمحذوف وهو : اذكر بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من جميع آفات القلوب. وقيل : من الشرك ، ولا معنى للتخصيص لأنه مطلق ، فليس بعض الآفات أولى من بعض فيتناولها كلها.

فإن قلت : ما معنى المجيء بقلبه ربه؟ قلت : معناه أنه أخلص للّه قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجيء مثلا لذلك أَإِفْكاً مفعول له ، تقديره : أتريدون آلهة من دون اللّه إفكا ، وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية ، وقدّم المفعول له على المفعول به ، لأنه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم. ويجوز أن يكون إفكا مفعولا ، يعنى : أتريدون به إفكا.

ثم فسر الإفك بقوله آلِهَةً دُونَ اللَّهِ على أنها إفك في أنفسها. ويجوز أن يكون حالا ، بمعنى : أتريدون آلهة من دون اللّه آفكين فَما ظَنُّكُمْ بمن هو الحقيق بالعبادة ، لأنّ من كان ربا للعالمين استحق عليهم أن يعبدوه ، حتى تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام : والمعنى : أنه لا يقدّر في وهم ولا ظنّ ما يصدّ عن عبادته. أو فما ظنكم به أى شيء هو من الأشياء ، حتى جعلتم الأصنام له أندادا. أو فما ظنكم به ما ذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره؟

[سورة الصافات (37) : الآيات 88 إلى 90]

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90)

فِي النُّجُومِ في علم النجوم أو في كتابها أو في أحكامها ، وعن بعض الملوك أنه سئل عن مشتهاه فقال : حبيب أنظر إليه ، ومحتاج أنظر له ، وكتاب أنظر فيه. كان القوم نجامين ، فأوهمهم أنه استدل بأمارة في علم النجوم على أنه يسقم فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ إنى مشارف للسقم وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم ، وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه ، فهربوا منه إلى عيدهم وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل. فإن قلت : كيف جاز له أن يكذب؟ قلت : قد جوّزه بعض الناس في المكيدة في الحرب والتقية ، وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين. والصحيح : أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام : معراض من الكلام ، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم.

ومنه المثل : كفى بالسلامة داء. وقول لبيد :

فدعوت ربى بالسّلامة جاهدا ليصحّنى فإذا السّلامة داء «1»

وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح ، فقال أعرابى : أصحيح من الموت في عنقه. وقيل : أراد : إنى سقيم النفس لكفركم.

(1) كانت قناتي لا تلين لغامز فألانها الإصباح والإمساء
فدعوت ربى بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء
للبيد بن ربيعة العامري ، والقناة : الرمح ، استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح ، والليونة والغمز :

ترشيح. والغمزى : الحبى باليد ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب ، يصف قوته زمن الشباب ، ثم ضعف حال المشيب بتتابع الأزمان عليه ، وأنه تطلب فسحة الأجل ، فكانت سبب اضمحلاله.

[سورة الصافات (37) : الآيات 91 إلى 93]

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (91) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (92) فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (93)

فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فذهب إليها في خفية ، من روغة الثعلب ، إلى آلهتهم : إلى أصنامهم التي هي في زعمهم آلهة ، كقوله تعالى : أين شركائى؟ أَلا تَأْكُلُونَ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ استهزاء بها وبانحطاطها عن حال عبدتها فَراغَ عَلَيْهِمْ فأقبل عليهم مستخفيا ، كأنه قال : فضربهم ضَرْباً لأن راغ عليهم بمعنى ضربهم. أو فراغ عليهم يضربهم ضربا. أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا. وقرئ : صفقا وسفقا ، ومعناهما : الضرب. ومعنى ضربا بِالْيَمِينِ ضربا شديدا قويا ، لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما. وقيل : بالقوّة والمتانة : وقيل : بسبب الحلف ، وهو قوله تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ.

[سورة الصافات (37) : آية 94]

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94)

يَزِفُّونَ يسرعون ، من زفيف النعام. ويزفون : من أزفّ ، إذا دخل في الزفيف. أو من أزفه ، إذا حمله على الزفيف ، أى : يزفّ بعضهم بعضا. ويزفون ، على البناء للمفعول ، أى : يحملون على الزفيف. ويزفون ، من وزف يزف إذا أسرع. ويزفون : من زفاه إذا حداه «1» ، كأن بعضهم يزفوا بعضا لتسارعهم إليه ، فإن قلت : بين هذا وبين قوله تعالى قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ، قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ كالتناقض حيث ذكر هاهنا أنهم أدبروا عنه خيفة العدوى ، فلما أبصروه يكسرهم أقبلوا إليه متبادرين ليكفوه ويوقعوا به ، وذكر ثم أنهم سألوا عن الكاسر ، حتى قيل لهم : سمعنا إبراهيم يذمهم ، فلعله هو الكاسر ، ففي أحدهما أنهم شاهدوه يكسرها ، وفي الآخر : أنهم استدلوا بذمه على أنه الكاسر. قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون الذين أبصروه وزفوا إليه نفرا منهم دون جمهورهم وكبرائهم ، فلما رجع الجمهور والعلية «2» من عيدهم إلى بيت الأصنام ليأكلوا الطعام الذي وضعوه عندها لتبرك عليه ورأوها مكسورة اشمأزوا من ذلك ، وسألوا : من فعل هذا بها؟ ثم لم ينم عليه أولئك النفر نميمة صريحة ، ولكن على سبيل التورية والتعريض بقولهم «سمعنا فتى يذكرهم» لبعض الصوارف. والثاني : أن يكسرها ويذهب ولا يشعر بذلك أحد ، ويكون إقبالهم إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم وسؤالهم عن الكاسر. وقولهم : قالوا فأتوا به على أعين الناس.

(1). قوله «إذا حداه» أى ساقه. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و العلية» أى العظماء. (ع)

[سورة الصافات (37) : الآيات 95 إلى 96]

قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (96)

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ يعنى خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، كقوله بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ أى فطر الأصنام. فإن قلت : كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا للّه معمولا لهم ، حيث أوقع خلقه وعملهم عليها جميعا؟ قلت : هذا كما يقال : عمل النجار الباب «1» والكرسي ، وعمل الصائغ السوار والخلخال ، والمراد عمل أشكال هذه الأشياء وصورها دون جواهرها ، والأصنام جواهر وأشكال ، فخالق جواهرها اللّه ، وعاملو أشكالها الذين يشكلونها بنحتهم وحذفهم بعض أجزائها ، حتى يستوي التشكيل الذي يريدونه. فإن قلت : فما أنكرت «2» أن تكون ما مصدرية لا موصولة ، ويكون المعنى : واللّه خلقكم وعملكم ، كما تقول المجبرة «3»؟ قلت : أقرب ما يبطل به هذا السؤال بعد بطلانه بحجج العقل والكتاب :

(1). قال محمود : «يعنى خلقكم وما تعملون من الأصنام ، كقوله بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ فان قلت : كيف يكون الشيء الواحد مخلوقا للّه تعالى معمولا لهم؟ وأجاب بأن هذا كما يقال : عمل النجار الباب ... إلى أن قال : ... وفي ذلك فك للنظم وتبتير كما لو جعلتها مصدرية» اه كلامه. قال أحمد : إذا جاء سيل اللّه ذهب سيل معقل ، فنقول : يتعين حملها على المصدرية ، وذلك أنهم لم يعبدوا هذه الأصنام من حيث كونها حجارة ليست مصورة ، فلو كان كذلك لم يتعاونوا في تصويرها ، ولا اختصوا بعبادتهم حجرا دون حجر ، فدل أنهم إنما يعبدونها باعتبار أشكالها وصورها التي هي أثر عملهم ، ففي الحقيقة أنهم عبدوا عملهم ، وصلحت الحجة عليهم بأنهم مثله ، مع أن المعبود كسب العابد وعمله ، فقد ظهر أن الحجة قائمة عليهم على تقدير أن تكون ما

وأما قوله : إن المطابقة تنفك على تأويل أهل السنة بين ما ينحتون وما يعملون فغير صحيح ، فان لنا أن نحمل الأولى على أنها مصدرية وأنهم في الحقيقة إنما عبدوا نحتهم ، لأن هذه الأصنام وهي حجارة قبل النحت لم يكونوا يعبدونها ، فلما عملوا فيها النحت عبدوها ، ففي الحقيقة ما عبدوا سوى تحتهم الذي هو عملهم ، فالمطابقة إذا حاصلة ، والإلزام على هذا أبلغ وأمتن ، ولو كان كما قال لقامت لهم الحجة ، ولقالوا كما يقول الزمخشري مكافحين لقوله وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ بأن يقولوا : لا ولا كرامة ، ولا يخلق الله ما نعمل نحن ، لأنا إنما عملنا التشكيل والتصوير وهذا لم يخلقه الله ، وكانوا يجدون الذريعة إلى اقتحام الحجة ، ويأبى الله إلا أن تكون لنا الحجة البالغة ولهم الأكاذب الفارغة ، فهذا إلزام بل إلجام لمن خالف السنة ، وغل بعنقه ، وعقر بكتفه ، وضرب على يده ، حتى يرجع إلى الحق آئبا ، ويعترف بخطئه تائبا.
(2). قوله «فان قلت فما أنكرت»؟ لعله : لم أنكرت. (ع) [.....]
(3). قوله «كما تقول المجبرة» يريد أهل السنة حيث ذهبوا إلى أنه لا خالق إلا الله ، فهو الخالق لعمل العبد والمعتزلة يقولون : إن العبد هو الخالق لعمل نفسه ، فجعلوا العبد شريكا لله في الخالقية ، مع أنهم سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، قالوا : لو كان الله هو الخالق لفعل العبد لكان تعذيبه للعبد على المعاصي ظلما لا عدلا ، قال أهل السنة :
يعذبه عليها كما يثيبه على الطاعة ، لما له فيهما من الكسب والاختيار ، فلا ظلم ، لكن المعتزلة لم ينظروا في التوحيد تمام النظر ، ولم يتبصروا في أدلته تمام التبصر. (ع)

أن معنى الاية يأباه إباء جليا ، وينبو عنه نبوّا ظاهرا ، وذلك أن الله عز وجل قد احتج عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعا خلق الله ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله ، ولولاه لما قدر أن يصوّر نفسه ويشكلها ، ولو قلت : والله خلقكم وخلق عملكم ، ولم يكن محتجا عليهم «1» ولا كان لكلامك طباق. وشيء آخر : وهو أن قوله ما تَعْمَلُونَ ترجمة عن قوله ما تَنْحِتُونَ وما في ما تَنْحِتُونَ موصولة لا مقال فيها فلا يعدل بها عن أختها إلا متعسف متعصب لمذهبه ، من غير نظر في علم البيان ، ولا تبصر لنظم القرآن. فإن قلت : اجعلها موصولة حتى لا يلزمني ما ألزمت ، وأريد : وما تعملونه من أعمالكم. قلت : بل الإلزامان في عنقك لا يفكهما إلا الإذعان للحق ، وذلك أنك وإن جعلتها موصولة ، فإنك في إرادتك بها العمل غير محتج على المشركين ، كحالك وقد جعلتها مصدرية ، وأيضا فإنك قاطع بذلك الصلة بين ما تعملون وما تنحتون ، حيث تخالف بين المرادين بهما ، فتريد بما تنحتون : الأعيان التي هي الأصنام ، وبما تعملون : المعاني التي هي الأعمال ، وفي ذلك فك النظم وتبتيره ، كما إذا جعلتها مصدرية.

[سورة الصافات (37) : الآيات 97 إلى 98]

قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)

الْجَحِيمِ النار الشديدة الوقود ، وقيل : كل نار على نار وجمر فوق جمر ، فهي جحيم.

والمعنى : أن الله تعالى غلبه عليهم في المقامين جميعا ، وأذلهم بين يديه : أرادوا أن يغلبوه بالحجة فلقنه الله وألهمه ما ألقمهم به الحجر ، وقهرهم فمالوا إلى المكر ، فأبطل الله مكرهم وجعلهم الأذلين الأسفلين لم يقدروا عليه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 99 إلى 101]

وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (101)

أراد بذهابه إلى ربه : مهاجرته إلى حيث أمره بالمهاجرة إليه من أرض الشام ، كما قال :

(1). قوله «لم يكن محتجا عليهم» يكفى في الاحتجاج أن الله هو الخالق لهم ولأعمالهم في الأصنام وغيرها ، والأصنام لا تخلق شيئا، بل الانفراد بالخالقية أدل على الانفراد بالالهية. (ع)

إنى مهاجر إلى ربى. سَيَهْدِينِ سيرشدنى إلى ما فيه صلاحي في دينى ويعصمني ويوفقني ، كما قال موسى عليه السلام كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ كأن الله وعده وقال له : سأهديك ، فأجزى كلامه على سنن موعد ربه. أو بناء على عادة الله تعالى معه في هدايته وإرشاده.

أو أظهر بذلك توكله وتفويضه أمره إلى اللّه. ولو قصد الرجاء والطمع لقال ، كما قال موسى عليه السلام عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ. هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ هب لي بعض الصالحين ، يريد الولد ، لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد وإن كان قد جاء في الأخ في قوله تعالى وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا قال عزّ وجل وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى اللّه عنهم - حين هنأه بولده علىّ أبى الأملاك - : شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب. ولذلك وقعت التسمية بهبة اللّه ، وبموهوب ، ووهب ، وموهب. وقد انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما ، وأى حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح ، فقال : ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين ، ثم استسلم لذلك. وقيل : ما نعت اللّه الأنبياء عليهم السلام بأقل مما نعتهم بالحلم ، وذلك لعزة وجوده. ولقد نعت اللّه به إبراهيم في قوله إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ لأنّ الحادثة شهدت بحلمهما جميعا.

[سورة الصافات (37) : آية 102]

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102)

فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. فإن قلت : مَعَهُ بم يتعلق؟ قلت : لا يخلو إما أن يتعلق ببلغ ، أو بالسعي ، أو بمحذوف ، فلا يصح تعلقه ببلغ لاقتضائه بلوغهما معا حدّ السعى ، ولا بالسعي لأنّ صلة المصدر لا تتقدم عليه ، فبقى أن يكون بيانا ، كأنه لما قال : فلما بلغ السعى أى الحدّ الذي يقدر فيه على السعى قيل : مع من؟ فقال مع أبيه. والمعنى في اختصاص الأب أنه أرفق الناس به ، وأعطفهم عليه ، وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله ، لأنه لم تستحكم قوته ولم يصلب عوده ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. والمراد : أنه على غضاضة سنه وتقلبه في حد الطفولة ، كان فيه من رصانة الحلم وفسحة الصدر ما جسره على احتمال تلك البلية العظيمة والإجابة بذلك الجواب الحكيم : أتى في المنام فقيل له : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى في اليقظة ، فلهذا قال إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فذكر تأويل الرؤيا ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب في سفينة : رأيت في المنام أنى ناج من هذه المحنة ، وقيل : رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له : إنّ اللّه يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روّى في ذلك من الصباح إلى الرواح ، أمن اللّه هذا الحلم أو من الشيطان؟

فمن ثم سمى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من اللّه ، فمن ثم سمى يوم عرفة ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر. وقيل : إنّ الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال : هو إذن ذبيح اللّه. فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له : أوف بنذرك فَانْظُرْ ما ذا تَرى من الرأى على وجه المشاورة. وقرئ : ما ذا ترى «1» ، أى : ما ذا تبصر من رأيك وتبديه. وما ذا ترى ، على البناء للمفعول ، أى : ما ذا تريك نفسك من الرأى افْعَلْ ما تُؤْمَرُ أى ما تؤمر به ، فحذف الجار كما حذف من قوله : أمرتك الخير فافعل ما أمرت به «2» أو أمرك على إضافة المصدر إلى المفعول ، وتسمية المأمور به أمرا. وقرئ : ما تؤمر به. فإن قلت : لم شاوره في أمر هو حتم من اللّه؟ قلت : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته ، ولكن ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء اللّه ، فيثبت قدمه ويصبره إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلمه حتى يراجع نفسه فيوطنها ويهون عليها ، ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر اللّه قبل نزوله : ولأنّ المغافصة «3» بالذبح مما يستسمج ، وليكون سنة في المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة في أكله من الشجرة لما فرط منه ذلك.

فإن قلت : لم كان ذلك بالمنام دون اليقظة؟ قلت : كما أرى يوسف عليه السلام سجود أبويه وإخوته له في المنام من غير وحى إلى أبيه ، وكما وعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دخول المسجد الحرام في المنام ، وما سوى ذلك من منامات الأنبياء ، وذلك لتقوية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين ، لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما.

[سورة الصافات (37) : الآيات 103 إلى 111]

فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (109) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111)

(1). قوله «و قرئ ما ذا ترى» لعله بضم التاء وكسر الراء ، من أراه يريه ، فليحرر. (ع)
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 590 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «المغافصة» في الصحاح : غافصت الرجل ، أى : أخذته على غرة. (ع)

يقال : سلم لأمر اللّه ، وأسلم ، واستسلم بمعنى واحد. وقد قرئ بهنّ جميعا إذا تنقاد له ، وخضع ، وأصلها من قولك : سلم هذا لفلان إذا خلص له. ومعناه : سلم من أن ينازع فيه ، وقولهم : سلم لأمر اللّه ، وأسلم له منقولان منه ، وحقيقة معناهما : أخلص نفسه للّه وجعلها سالمة له خالصة ، وكذلك معنى : استسلم : استخلص نفسه للّه. وعن قتادة في أَسْلَما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ صرعه على شقه ، فوقع أحد جبينيه على الأرض تواضعا «1» على مباشرة الأمر بصبر وجلد ، ليرضيا الرحمن ويخزيا الشيطان. وروى أن ذلك كان عند الصخرة التي بمنى ، وعن الحسن : في الموضع المشرف على مسجد منى. وعن الضحاك : في المنحر الذي ينحر فيه اليوم. فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : هو محذوف تقديره : فلما أسلما وتله للجبين وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما اللّه وشكرهما على ما أنعم به عليهما ، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان اللّه الذي ليس وراءه مطلوب ، وقوله إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة ، والظفر بالبغية بعد اليأس الْبَلاءُ الْمُبِينُ الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها. الذبح : اسم ما يذبح. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه ، وكان يرعى في الجنة حتى فدى به إسماعيل. وعن الحسن : فدى بو على «2» أهبط عليه من ثبير. وعن ابن عباس : لو تمت تلك الذبيحة لكانت سنة وذبح الناس أبناءهم»

عَظِيمٍ ضخم الجثة سمين ، وهي السنة في الأضاحى. وقوله عليه السلام «استشرفوا ضحاياكم فإنها على الصرِاط مطاياكم» وقيل : لأنه وقع فداء عن ولد إبراهيم. وروى أنه هرب من إبراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتّى أخذه ، فبقيت سنة في الرمي. وروى أنه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده : وروى أنه لما ذبحه قال جبريل : اللّه أكبر اللّه أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، فقال إبراهيم عليه السلام : اللّه أكبر وللّه الحمد «4» ، فبقى سنة : وحكى في قصة الذبيح أنه حين أراد ذبحه وقال : يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا إلى الشعب نحتطب ، فلما توسط شعب ثبير أخبره بما أمر ، فقال : اشدد رباطى لا أضطرب ، واكفف عنى ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمى فينقص أجرى وتراه أمى فتحزن ،

(1). قوله «تواضعا على مباشرة الأمر» أى توافقا. (ع)
(2). قوله «بو عل» في الصحاح : الوعل : الأروى اه ، ويقال : التيس الجبلي. (ع)
(3). لم أجده.
(4). لم أجده.

واشحذ شفرتك وأسرع إمرارها على حلقى حتى تجهز علىّ ، ليكون أهون فإنّ الموت شديد ، واقرأ على أمى سلامى ، وإن رأيت أن تردّ قميصي على أمى فافعل ، فإنه عسى أن يكون أسهل لها ، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بنىّ على أمر اللّه ، ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه ، وهما يبكيان ، ثم وضع السكين على حلقه فلم تعمل. لأنّ اللّه ضرب صفيحة من نحاس على حلقه ، فقال له : كبني على وجهى فإنك إذا نظرت وجهى رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر اللّه ، ففعل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودي : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، فنظر فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح ، فكبر جبريل والكبش ، وإبراهيم وابنه ، وأتى المنحر من منى فذبحه : وقيل : لما وصل موضع السجود منه إلى الأرض جاء الفرج. وقد استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده : أنه يلزمه ذبح شاة ، فإن قلت : من كان الذبيح من ولديه؟ قلت : قد اختلف فيه ، فعن ابن عباس وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وجماعة من النابعين : أنه إسماعيل.

والحجة فيه أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال «أنا ابن الذبيحين» وقال له أعرابى : يا ابن الذبيحين ، فتبسم، فسئل عن ذلك فقال : إنّ عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر للّه : لئن سهل اللّه له أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد اللّه فمنعه أخواله وقالوا له أفد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل» «1» وعن محمد بن كعب القرظي قال : كان مجتهد بنى إسرائيل يقول إذا دعا : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، فقال موسى عليه السلام : يا رب ، ما لمجتهد بنى إسرائيل إذا دعا قال : اللهم إله إبراهيم وإسماعيل وإسرائيل ، وأنا بين أظهرهم فقد أسمعتنى كلامك واصطفيتني برسالتك؟ قال : يا موسى ، لم يحبني

(1). أخرجه الحاكم والثعلبي من رواية الصنابحى عن معاوية رضى الله عنه وفيه قصة.

ومما يدل عليه أنّ الله تعالى وصفه بالصبر دون أخيه إسحاق في قوله وَإِسْماعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وهو صبره على الذبح ، ووصفه بصدق الوعد في قوله إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ لأنه وعد أباه الصبر من نفسه على الذبح فوفى به ، ولأن الله بشره بإسحاق وولده يعقوب في قوله فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ فلو كان الذبيح إسحاق لكان خلفا للموعد في يعقوب. وعن على بن أبى طالب وابن مسعود والعباس وعطاء وعكرمة وجماعة من التابعين : أنه إسحاق. والحجة فيه أن الله تعالى أخبر عن خليله إبراهيم حين هاجر إلى الشام بأنه استوهبه ولدا ، ثم أتبع ذلك البشارة بغلام حليم ، ثم ذكر رؤياه بذبح ذلك الغلام المبشر به. ويدل عليه كتاب يعقوب إلى يوسف : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله«1». فإن قلت : قد أوحى إلى إبراهيم صلوات الله عليه في المنام بأن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا، وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح «2»

(1). أخرجه الترمذي في النوادر في الحادي والعشرين بعد المائتين : حدثنا عمر بن أبى عمر حدثنا عصام بن المثنى الحمصي عن أبيه عن وهب بن منبه قال «كتب يعقوب كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم. من يعقوب نبى الله إلى آخره» وأخرج الدارقطني في غرائب مالك من رواية إسحاق بن وهب الطوسي عن ابن وهب عن مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه «أوحى إلى ملك الموت أن ائت يعقوب فسلم عليه فذكر الحديث - وفيه فقال :
اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت فذكره مطولا. قال الدارقطني : هذا موضوع. وإسحاق كان يضع الحديث على ابن وهب. وقد تقدم في يوسف من وجه آخر.
(2). قال محمود : «فان قلت قد أوحى إلى إبراهيم في المنام أن يذبح ولده ولم يذبح ، وقيل له : قد صدقت الرؤيا وإنما كان يصدقها لو صح منه الذبح ، ولم يصح. فأجاب بأنه قد بذل وسعه وفعل ما يفعله الذابح من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله سبحانه منع الشفرة أن تمضى فيه وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا بل يسمى مطيعا ومجتهدا ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ولا قل أوان الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام حتى يشتغل بالكلام عليه. انتهى كلامه» قال أحمد : كل ما ذكر دندنة حول امتناع النسخ قبل التمكن من الفعل ، وتلك قاعدة المعتزلة. وأما أهل السنة فيثبتون جوازه ، لأن التكليف ثابت قبل التمكن من الفعل ، فجاز رفعه كالموت. وأيضا فكل نسخ كذلك ، لأن القدرة على الفعل عندنا مقارنة لا متقدمة ، ثم يثبتون وقوعه بهذه الآية. ووجه الدليل منها أن إبراهيم عليه السلام أمر بالذبح بدليل افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ونسخ قبل التمكن بدليل العدول إلى الفداء ، فمن ثم تحوم الزمخشري على أنه فعل غاية وسعه من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، وإنما امتنعت بأمر من الله تعالى ، وغرضه بذلك أحد أمرين : إما أن يكون الأمر إنما توجه عليه بمقدمات الذبح وقد حصلت لا بنفس الذبح ، أو توجه الأمر بنفس الذبح وتعاطيه ، ولكن لم يتمكن. وكلا الأمرين لا يخلصه.
أما قوله : أمر بمقدمات الذبح فباطل بقوله إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ وقوله افْعَلْ ما تُؤْمَرُ وأما قوله : لم يتمكن لأن الشفرة منعت بأمر من الله تعالى بعد تسليم الأمر بالذبح ، فحاصله أنه لم يتمكن من الذبح المأمور به ، فكان النسخ إذا قبل التمكن ، وهو عين ما أنكره المعتزلة ، ولما لم يكن في هذين الجوابين لهم خلاص : لجأ بعضهم إلى تسليم أنه أمر بالذبح ، ودعوى أنه ذبح ولكنه كان يلتحم، وهو باطل لا ثبوت له. وسياق الآية يخل دعواه ويفل ثنياه.

قلت. قد بذل وسعه وفعل ما يفعل الذابح : من بطحه على شقه وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله سبحانه جاء بما منع الشفرة أن تمضى فيه ، وهذا لا يقدح في فعل إبراهيم عليه السلام ، ألا ترى أنه لا يسمى عاصيا ولا مفرطا ، بل يسمى مطيعا ومجتهدا ، كما لو مضت فيه الشفرة وفرت الأوداج وأنهرت الدم ، وليس هذا من ورود النسخ على المأمور به قبل الفعل ، ولا قبل أوان الفعل في شيء ، كما يسبق إلى بعض الأوهام ، حتى يشتغل بالكلام فيه. فإن قلت : الله تعالى هو المفتدى منه : لأنه الآمر بالذبح ، فكيف يكون فاديا حتى قال وَفَدَيْناهُ؟ قلت : الفادي هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والله عز وجل وهب له الكبش ليفدى به وإنما قال وَفَدَيْناهُ إسنادا للفداء إلى السبب الذي هو الممكن من الفداء بهبته. فإن قلت : فإذا كان ما أتى به إبراهيم من البطح وإمرار الشفرة في حكم الذبح. فما معنى الفداء ، والفداء إنما هو التخليص من الذبح ببدل؟ قلت : قد علم بمنع الله أن حقيقة الذبح لم تحصل من فرى الأوداج وانهار الدم ، فوهب الله له الكبش ليقيم ذبحه مقام تلك الحقيقة حتى لا تحصل تلك الحقيقة في نفس إسماعيل ، ولكن في نفس الكبش بدلا منه. فإن قلت : فأى فائدة في تحصل تلك الحقيقة ، وقد استغنى عنها بقيام ما وجد من إبراهيم مقام الذبح من غير نقصان؟ قلت : الفائدة في ذلك أن يوجد

[سورة الصافات (37) : الآيات 112 إلى 113]

وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ(113)

نَبِيًّا حال مقدرة ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ. فإن قلت : فرق بين هذا وبين قوله فَادْخُلُوها خالِدِينَ وذلك أنّ المدخول موجود مع وجود الدخول ، والخلود غير موجود معهما ، فقدرت مقدرين الخلود فكان مستقيما ، وليس كذلك المبشر به ، فإنه معدوم وقت وجود البشارة ، وعدم المبشر به أوجب عدم حاله لا محالة ، لأنّ الحال حلية، والحلية لا تقوم إلا بالمحلى ، وهذا المبشر به الذي هو إسحاق حين وجد لم توجد النبوّة أيضا بوجوده ، بل تراخت عنه مدّة متطاولة ، فكيف يجعل نبيا حالا مقدّرة ، والحال صفة الفاعل أو المفعول عند وجود الفعل منه أو به ، فالخلود وإن لم يكن صفتهم عند دخول الجنة ، فتقديرها «1» صفتهم ، لأنّ المعنى مقدّرين الخلود ،

(1). قوله «فتقديرها صفتهم» لعله : فتقديره. (ع)

وليس كذلك النبوّة ، فإنه لا سبيل إلى أن تكون موجودة أو مقدّرة وقت وجود البشارة بإسحاق لعدم إسحاق. قلت: هذا سؤال دقيق السلك ضيق المسلك ، والذي يحل الإشكال : أنه لا بد من تقدير مضاف محذوف ، وذلك قولك : وبشرناه بوجود إسحاق نبيا ، أى بأن يوجد مقدّرة نبوّته ، فالعامل في الحال الوجود لا فعل البشارة ، وبذلك يرجع ، نظير قوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ. مِنَ الصَّالِحِينَ حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء والتقريظ ، لأنّ كل نبى لا بد أن يكون من الصالحين. وعن قتادة : بشره اللّه بنبوّة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه ، وهذا جواب من يقول الذبيح إسحاق لصاحبه عن تعلقه بقوله وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ قالوا : ولا يجوز أن يبشره اللّه بمولده ونبوّته معا ، لأن الامتحان بذبحه لا يصح مع علمه بأنه سيكون نبيا وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وقرئ : وبركنا، أى : أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا ، كقوله وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ وقيل : باركنا على إبراهيم في أولاده ، وعلى إسحاق بأن أخرجنا أنبياء بنى إسرائيل من صلبه. وقوله وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ نظيره : قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي؟ قالَ : لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البر الفاجر ، والفاجر البر. وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر ، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة ، وأنّ المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاتب على ما اجترحت يداه ، لا على ما وجد من أصله أو فرعه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 114 إلى 122]

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (114) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (116) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (119) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (120) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122)

مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ من الغرق. أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم «1» وَنَصَرْناهُمْ الضمير لهما ولقومهما في قوله وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما. الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ البليغ في بيانه وهو التوراة ، كما قال إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ وقال : من جوز أن تكون التوراة

(1). قوله «و غشمهم» في الصحاح «الغشم» : الظلم. (ع) [.....]

عربية أن تشتق «1» من ورى الزند «فوعلة» منه ، على أنّ التاء مبدلة من واو الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صراط أهل الإسلام ، وهي صراط الذين أنعم اللّه عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

[سورة الصافات (37) : الآيات 123 إلى 132]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (125) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (127) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (128) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (130) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (132)

قرئ إلياس ، بكسر الهمزة ، والياس : على لفظ الوصل : وقيل : هو إدريس النبي. وقرأ ابن مسعود : وإنّ إدريس ، في موضع إلياس. وقرئ : إدراس : وقيل : هو إلياس بن ياسين ، من ولد هرون أخى موسى أَتَدْعُونَ بَعْلًا أتعبدون بعلا ، وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل.

وقيل : كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وله أربعة أوجه ، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن ، وجعلوهم أنبياءه ، فكان الشيطان يدخل في جوف - بعل - ويتكلم بشريعة الضلالة ، والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس ، وهم أهل بعلبك من بلاد الشام ، وبه سميت مدينتهم بعلبك. وقيل : البعل الرب ، بلغة اليمن ، يقال : من بعل هذه الدار ، أى : من ربها؟

والمعنى : أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة اللّه اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ قرئ بالرفع على الابتداء ، وبالنصب على البدل ، وكان حمزة إذا وصل نصب ، وإذا وقف رفع : وقرئ : على الياسين. وإدريسين. وادراسين. وإدرسين ، على أنها لغات في إلياس وإدريس. ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى. وقرئ : على الياسين بالوصل ، على أنه جمع يراد به إلياس وقومه ، كقولهم : الخبيبون والمهلبون. فإن قلت : فهلا حملت على هذا إلياسين على القطع وأخواته؟ قلت : لو كان جمعا لعرف بالألف واللام. وأما من قرأ : على آل ياسين ، فعلى أنّ ياسين اسم أبى الياس ، أضيف إليه الآل.

[سورة الصافات (37) : الآيات 133 إلى 138]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138)

(1). قوله «أن تشتق» لعله : يجوز أن تشتق. (ع)

مُصْبِحِينَ داخلين في الصباح ، يعنى : تمرون على منازلهم في متاجركم إلى الشام ليلا ونهارا ، فما فيكم عقول تعتبرون بها.

[سورة الصافات (37) : الآيات 139 إلى 148]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (148)

قرئ : يونس ، بضم النون وكسرها. وسمى هربه من قومه بغير إذن ربه : إباقا على طريقة المجاز. والمساهمة: المقارعة. ويقال : استهم القوم ، إذا اقترعوا. والمدحض : المغلوب المقروع.

وحقيقته : المزلق عن مقام الظفر والغلبة. روى أنه حين ركب في السفينة وقفت ، فقالوا : هاهنا عبد أبق من سيده ، وفيما يزعم البحارون أنّ السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس فقال: أنا الآبق ، وزجّ بنفسه في الماء فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ داخل في الملامة. يقال : ربّ لائم مليم ، أى يلوم غيره وهو أحق منه باللوم. وقرئ : مليم ، بفتح الميم ، من ليم فهو مليم ، كما جاء : مشيب في مشوب ، مبنيا على شيب. ونحوه : مدعى ، بناء على دعى مِنَ الْمُسَبِّحِينَ من الذاكرين اللّه كثيرا بالتسبيح والتقديس. وقيل : هو قوله في بطن الحوت لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ وقيل : من المصلين. وعن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة «1». وعن قتادة : كان كثير الصلاة في الرخاء. قال : وكان يقال : إن العمل الصالح

(1). أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى اللّه عنهما - قوله ورواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة موقوفا

لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ الظاهر لبثه فيه حيا إلى يوم البعث. وعن قتادة : لكان بطن الحوت له قبرا إلى يوم القيامة. وروى أنه حين ابتلعه أوحى اللّه إلى الحوت : إنى جعلت بطنك له سجنا ، ولم أجعله لك طعاما. واختلف في مقدار لبثه ، فعن الكلبي : أربعون يوما ، وعن الضحاك : عشرون يوما.

وعن عطاء سبعة. وعن بعضهم : ثلاثة. وعن الحسن : لم يلبث إلا قليلا ، ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقم فيه. وروى أنّ الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس ويسبح ، ولم يفارقهم حتى انتهوا إلى البر ، فلفظه سالما لم يتغير منه شيء ، فأسلموا : وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل. والعراء : المكان الخالي لا شجر فيه ولا شيء يغطيه وَهُوَ سَقِيمٌ اعتلّ مما حلّ به. وروى أنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يولد. واليقطين : كل ما ينسدح على وجه الأرض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل ، وهو «يفعيل» من قطن بالمكان إذا أقام به. وقيل : هو الدباء. وفائدة الدباء أن الذباب لا يجتمع عنده - وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنك لتحب القرع. قال «أجل هي شجرة أخى يونس» «1» وقيل : هي التين ، وقيل : شجرة الموز ، تغطى بورقها ، واستظلّ بأغصانها ، وأفطر على ثمارها.

وقيل : كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة «2» تختلف إليه ، فيشرب من لبنها. وروى أنه مرّ زمان على الشجرة فيبست ، فبكى جزعا ، فأوحى اللّه إليه : بكيت على شجرة ولا تبكى على مائة ألف في يد الكافر ، فإن قلت : ما معنى وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً؟ قلت : أنبتناها فوقه مظلة له ، كما يطنب البيت على الإنسان وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ المراد به ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى. وقيل : هو إرسال ثان بعد ما جرى عليه إلى الأولين. أو إلى غيرهم وقيل : أسلموا فسألوه أن يرجع إليهم فأبى ، لأن النبىّ إذا هاجر عن قومه لم يرجع إليهم مقيما فيهم ، وقال لهم : إن اللّه باعث إليكم نبيا أَوْ يَزِيدُونَ في مرأى الناظر أى. إذا رآها الرائي قال : هي مائة ألف أو أكثر ، والغرض : الوصف بالكثرة إِلى حِينٍ إلى أجل مسمى وقرئ : ويزيدون ، بالواو. وحتى حين.

[سورة الصافات (37) : الآيات 149 إلى 157]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (150) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (157)

(1). لم أجده. وأخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود في قصة يونس قال عبد اللّه : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم ... واليقطين القرع.
(2). قوله «و كانت وعلة» يقال : هي شاة جبلية. (ع)

فَاسْتَفْتِهِمْ معطوف على مثله في أوّل السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة : أمر رسوله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أوّلا ، ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها ، حيث جعلوا للّه الإناث ولأنفسهم الذكور في قولهم : الملائكة بنات اللّه ، مع كراهتهم الشديدة لهنّ ، ووأدهم ، واستنكافهم من ذكرهنّ.

ولقد ارتكبوا في ذلك ثلاثة أنواع من الكفر ، أحدها : التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام والثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم حين جعلوا أوضع الجنسين له وأرفعهما لهم ، كما قال وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ والثالث : أنهم استهانوا بأكرم خلق اللّه عليه وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك أنوثة. أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمر ، ولانقلبت حماليقه «1» وذلك في أهاجيهم بين مكشوف ، فكرّر اللّه سبحانه الأنواع كلها في كتابه مرّات ، ودل على فظاعتها في آيات : وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا. تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ، وَقالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ، وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ ، أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ، وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما

لم قال وهُمْ شاهِدُونَ فخصّ علم المشاهدة؟ قلت : ما هو إلا استهزاء بهم وتجهيل ، وكذلك قوله أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ونحوه قوله ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر.

ويجوز أن يكون المعنى : أنهم يقولون ذلك ، كالقائل قولا عن ثلج صدر وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم ، كأنهم قد شاهدوا خلقهم. وقرئ : ولد الله ، أى الملائكة ولده.

(1). قوله «و لانقلبت حماليقه» في الصحاح «حملاق العين» : باطن أجفانها الذي يسوده الكحل اه. (ع)

والولد «فعل» بمعنى مفعول ، يقع على الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث. تقول : هذه ولدى ، وهؤلاء ولدى. فإن قلت : أَصْطَفَى الْبَناتِ بفتح الهمزة : استفهام على طريق الإنكار والاستبعاد ، فكيف صحت قراءة أبى جعفر بكسر الهمزة على الإثبات؟ قلت : جعله من كلام الكفرة بدلا عن قولهم وَلَدَ اللَّهُ وقد قرأ بها حمزة والأعمش رضى الله عنهما. وهذه القراءة - وإن كان هذا محملها - فهي ضعيفة ، والذي أضعفها : أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها ، وذلك قوله وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ فمن جعلها للإثبات ، فقد أوقعها دخيلة بين نسيبين. وقرئ تذكرون ، من ذكر أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ أى حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ الذي أنزل عليكم في ذلك ، كقوله تعالى أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ وهذه الآيات صادرة عن سخط عظيم ، وإنكار فظيع ، واستبعاد لأقاويلهم شديد ، وما الأساليب التي وردت عليها إلا ناطقة بتسفيه أحلام قريش ، وتجهيل نفوسها ، واستركاك عقولها ، مع استهزاء وتهكم وتعجيب ، من أن يخطر مخطر مثل ذلك على بال ويحدّث به نفسا ، فضلا أن يجعله معتقدا ويتظاهر به مذهبا.

[سورة الصافات (37) : الآيات 158 إلى 160]

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (159) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160)

وَجَعَلُوا بين الله وبين الجنة وأراد الملائكة نَسَباً وهو زعمهم أنهم بناته ، والمعنى : وجعلوا بما قالوا نسبة بين الله وبينهم ، وأثبتوا له بذلك جنسية جامعة له وللملائكة. فإن قلت : لم سمى الملائكة جنة؟ قلت : قالوا الجنس واحد، ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان ، ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك ، فذكرهم في هذا الموضع باسم جنسهم ، وإنما ذكرهم بهذا الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم. وإن كانوا معظمين في أنفسهم أن يبلغوا منزلة المناسبة التي أضافوها إليهم. وفيه إشارة إلى أن من صفته الاجتنان والاستتار ، وهو من صفات الأجرام لا يصلح أن يناسب من لا يجوز عليه ذلك. ومثاله : أن تسوّى بين الملك وبين بعض خواصه ومقرّبيه ، فيقول لك : أتسوّي بيني وبين عبدى. وإذا ذكره في غير هذا المقام وقره وكناه. والضمير في إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ للكفرة. والمعنى : أنهم يقولون ما يقولون في الملائكة ، وقد علم الملائكة أنهم في ذلك كاذبون مفترون ، وأنهم محضرون النار معذبون بما يقولون ، والمراد المبالغة في التكذيب. حيث أضيف إلى علم الذين ادّعوا لهم تلك النسبة.

وقيل : قالوا إنّ الله صاهر الجن فخرجت الملائكة. وقيل : قالوا. إنّ الله والشيطان أخوان.

وعن الحسن : أشركوا الجن في طاعة الله. ويجوز إذا فسر الجنة بالشياطين : أن يكون الضمير في إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ لهم ، والمعنى أن الشياطين عالمون بأنّ الله يحضرهم النار ويعذبهم ، ولو كانوا مناسبين له أو شركاء في وجوب الطاعة لما عذبهم إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ استثناء منقطع من المحضرين : معناه ولكن المخلصين ناجون. وسبحان الله : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه. ويجوز أن يقع الاستثناء من الواو في يصفون ، أى : يصفه هؤلاء بذلك ، ولكن المخلصون برآء من أن يصفوه به.

[سورة الصافات (37) : الآيات 161 إلى 163]

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (161) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (162) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (163)

والضمير في عَلَيْهِ للّه عز وجلّ ومعناه : فإنكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على اللّه إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها. فإن قلت : كيف يفتنونهم على اللّه؟ قلت. يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهزائهم ، من قولك يفتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها عليه وخيبها عليه. ويجوز أن يكون الواو في وَما تَعْبُدُونَ بمعنى مع ، مثلها في قولهم : كل رجل وضيعته ، فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته ، وأنّ كل رجل وضيعته ، جاز أن يسكت على قوله فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ لأن قوله وَما تَعْبُدُونَ سادّ مسدّ الخبر ، لأن معناه : فإنكم مع ما تعبدون. والمعنى : فإنكم مع آلهتكم ، أى : فإنكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ، ثم قال : ما أنتم عليه ، أى على ما تعبدون بِفاتِنِينَ بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والإضلال إِلَّا مَنْ هُوَ ضال مثلكم. أو يكون في أسلوب قوله : فإنّك والكتاب إلى علىّ كدا بغة وقد حلم الأديم «1»

وقرأ الحسن : صال الجحيم ، بضم اللام. وفيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف «فإن قلت» كيف استقام الجمع مع قوله مَنْ هُوَ؟ قلت من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالحون على معناه كما حمل في مواضع من التنزيل على لفظ من ومعناه في آية واحدة.

(1). لعمرو بن العاص. وقيل للوليد بن عقبة بن أبي معيط ، يحرض معاوية على حرب على بن أبى طالب ، وحلم الجلد حلما ، كتعب تعبا : إذا فسد ودود وتنقب. وحلم بالضم ، حلما بالكسر : عفى مع القدرة. وحلم بالفتح ، حلما بالضم : رأى في منامه شيئا. يقول: فإنك وكتابك الواصل إلى على ترجو به استقامته ، كرجل كثير الدبغ للجلد ، أو كامرأة دابغة له والحال أنه قد فسد ولم ينفع فيه الدبغ. والمقصود : تشبيه حالة بأخرى. ويجوز أن الواو للمعية لا للعطف ، فالمعنى تشبيه معاوية بالدابغة.

والثاني أن يكون أصله صائل على القلب ، ثم يقال صال في صائل ، كقولهم شاك في شائك. والثالث أن تحذف لام صال تخفيفا ويجرى الإعراب على عينه ، كما حذف من قولهم : ما باليت به بالة ، وأصلها بالية من بالي ، كعافية من عافى. ونظيره قراءة من قرأ : وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ بإجراء الإعراب على العين.

[سورة الصافات (37) : الآيات 164 إلى 166]

وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166)

وَما مِنَّا أحد إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، كقوله :

أنا ابن جلا وطلّاع الثّنايا «1»

بكفّى كان من أرمى البشر «2»

مقام معلوم في العبادة ، والانتهاء إلى أمر اللّه مقصور عليه لا يتجاوزه ، كما روى : فمنهم راكع لا يقيم صلبه ، وساجد لا يرفع رأسه لَنَحْنُ الصَّافُّونَ نصف أقدامنا في الصلاة ، أو أجنحتنا في الهواء. منتظرين ما نؤمر. وقيل: نصف أجنحتنا حول العرش داعين للمؤمنين. وقيل : إنّ المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة منذ نزلت هذه الآية. وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين الْمُسَبِّحُونَ المنزهون أو المصلون. والوجه أن يكون هذا وما قبله من قوله سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ من كلام الملائكة حتى يتصل بذكرهم في قوله وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ كأنه قيل : ولقد علم الملائكة وشهدوا أن المشركين مفترون عليهم في مناسبة رب العزة وقالوا : سبحان اللّه ، فنزهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد اللّه المخلصين وبرؤهم منه ، وقالوا للكفرة فإذا صحّ ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على اللّه أحدا من خلقه وتضلوه ، إلا من كان مثلكم ممن علم اللّه - لكفرهم ، لا لتقديره وإرادته «3» ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا - أنهم من أهل النار ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة ويجمعنا وإياه جنسية واحدة؟ وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه ، لكل منا مقام من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفرا ، خشوعا لعظمته

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 305 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 616 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «لا لتقديره وإرادته تعالى» مبنى على مذهب المعتزلة أن اللّه لا يقدر الشر ولا يريده. وقال أهل السنة : إن كل كائن فهو بقضاء اللّه وقدره كما بين في علم التوحيد. (ع)

وتواضعا لجلاله ، ونحن الصافون أقدامنا لعبادته وأجنحتنا ، مذعنين خاضعين مسبحين ممجدين ، وكما يجب على العباد «1» لربهم. وقيل : هو من قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يعنى : وما من المسلمين أحد إلا له مقام معلوم يوم القيامة على قدر عمله ، من قوله تعالى عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً ثم ذكر أعمالهم وأنهم هم الذين يصطفون في الصلاة يسبحون اللّه وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه مما لا يجوز عليه.

[سورة الصافات (37) : الآيات 167 إلى 170]

وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170)

هم مشركو قريش كانوا يقولون لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً أى كتابا مِنَ كتب الْأَوَّلِينَ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لأخلصنا العبادة للّه ، ولما كذبنا كما كذبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا ، فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب ، فكفروا به. ونحوه فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً فسوف يعلمون مغبة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام. وإن : هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادّين فيه ، فكم بين أوّل أمرهم وآخره.

[سورة الصافات (37) : الآيات 171 إلى 173]

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (173)

الكلمة : قوله : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ وإنما سماها كلمة وهي كلمات عدّة ، لأنها لما انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة. وقرئ : كلماتنا : والمراد الموعد بعلوهم على عدوهم في مقاوم الحجاج وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوهم عليهم في الآخرة ، كما قال وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ولا يلزم انهزامهم «2» في بعض المشاهد ، وما جرى عليهم من القتل فإن الغلبة كانت لهم ولمن بعدهم في العاقبة، وكفى بمشاهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والخلفاء الراشدين مثلا يحتذى عليها وعبرا يعتبر بها. وعن الحسن رحمه اللّه : ما غلب نبىّ في حرب ولا قتل فيها ، ولأن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه : الظفر والنصرة - وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة - والحكم للغالب. وعن ابن عباس رضى اللّه

(1). قوله «و كما يجب على العباد لربهم» لعله كما يجب. كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «و لا يلزم انهزامهم» أى لا يرد نقضا للغلبة والنصر. (ع)

عنهما : إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة. وفي قراءة ابن مسعود : على عبادنا ، على تضمين سبقت معنى حقت.

[سورة الصافات (37) : الآيات 174 إلى 175]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (174) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فأعرض عنهم وأغض «1» على أذاهم حَتَّى حِينٍ إلى مدة يسيرة وهي مدّة الكف عن القتال. وعن السدى : إلى يوم بدر. وقيل إلى الموت. وقيل : إلى يوم القيامة وَأَبْصِرْهُمْ وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة ، فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة. والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة : الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة ، وأنّ كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك.

وفي ذلك تسلية له وتنفيس عنه. وقوله فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ للوعيد كما سلف لا للتبعيد.

[سورة الصافات (37) : الآيات 176 إلى 179]

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (178) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179)

مثل العذاب النازل بهم بعد ما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أهبتهم ، ولا دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم ، حتى أناخ بفنائهم بغتة ، فشنّ عليهم الغارة وقطع دابرهم ، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا ، فسميت الغارة صباحا وإن وقعت في وقت آخر ، وما فصحت هذه الآية ولا كانت لها الروعة التي تحس بها ويروقك موردها على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل، وقرأ ابن مسعود : فبئس صباح. وقرئ : نزل بساحتهم ، على إسناده إلى الجار والمجرور كقولك : ذهب بزيد ونزل ، على : ونزل العذاب. والمعنى : فساء صباح المنذرين صباحهم ، واللام في المنذرين مبهم في جنس من أنذروا ، لأنّ ساء وبئس يقتضيان ذلك. وقيل : هو نزول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بمكة.

وعن أنس رضى اللّه عنه : لما أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خيبر - وكانوا خارجين إلى مزارعهم وممهم المساحي - قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصنهم. فقال عليه الصلاة والسلام : «اللّه أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» «2» وإنما ثنى وَتَوَلَّ عَنْهُمْ ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيدا لوقوع الميعاد إلى تأكيد. وفيه فائدة زائدة وهي إطلاق الفعلين معا عن التقييد بالمفعول ، وأنه يبصروهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرة وأنواع المساءة. وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة.

(1). قوله «و أغض على أذاهم» في الصحاح «الاغضاء» : إدناء الجفون. (ع)
(2). متفق عليه

[سورة الصافات (37) : الآيات 180 إلى 182]

سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (182)
أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها كأنه قيل : ذو العزة ، كما تقول : صاحب صدق ، لاختصاصه بالصدق. ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد من الملوك وغيرهم إلا وهو ربها ومالكها ، كقوله تعالى تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ : اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في اللّه ونسبوا إليه مما هو منزه عنه ، وما عاناه المرسلون من جهتهم ، وما خوّلوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون ، والتسليم على المرسلين وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على ما قيض لهم من حسن العواقب ، والغرض تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلوا به ولا يغفلوا عن مضمنات كتابه الكريم ومودعات قرآنه المجيد. وعن علىّ رضى اللّه عنه : «من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه : سبحان ربك رب العرة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه رب العالمين «1» عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ والصافات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبريء من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين» «2».

(1). أخرجه عبد الرزاق والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباتة عن على موقوفا. ورواه ابن أبى حاتم من رواية الشعبي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم مرسلا. [.....]
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرف عن أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة ص

مكية ، وهي ست وثمانون آية ، وقيل ثمان وثمانون آية [نزلت بعد القمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ص (38) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (2)

ص على الوقف وهي أكثر القراءة. وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ، ويجوز أن ينتصب بحذف حرف القسم وإيصال فعله ، كقولهم : اللّه لأفعلنّ ، كذا بالنصب ، أو بإضمار حرف القسم ، والفتح في موضع الجرّ ، كقولهم : اللّه لأفعلنّ ، بالجرّ وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث ، لأنها بمعنى السورة ، وقد صرفها من قرأ ص بالجرّ والتنوين على تأويل الكتاب والتنزيل : وقيل : فيمن كسر هو من المصاداة وهي المعارضة والمعادلة. ومنها الصدى وهو ما يعارض الصوت في الأماكن الخالية من الأجسام الصلبة ، ومعناه : ما عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه. فإن قلت : قوله : ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ كلام ظاهره متنافر غير منتظم ، فما وجه انتظامه؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف المعجم على سبيل التحدّى والتنبيه على الإعجاز كما مرّ في أوّل الكتاب ، ثم أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدّى عليه ، كأنه قال وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ إنه لكلام معجز. والثاني : أن يكون ص خبر مبتدأ محذوف ، على أنها اسم للسورة ، كأنه قال : هذه ص ، يعنى : هذه السورة التي أعجزت العرب ، والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : هذا حاتم واللّه ، تريد : هذا هو المشهور بالسخاء واللّه ، وكذلك إذا أقسم بها كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذى الذكر إنه لمعجز ، ثم قال : بل الذين كفروا في عزة واستكبار عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق وشقاق للّه ورسوله ، وإذا جعلتها مقسما بها وعطفت عليها وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ جاز لك أن تريد بالقرآن التنزيل كله ، وأن تريد السورة بعينها. ومعناه : أقسم بالسورة الشريفة والقرآن ذى الذكر ، كما تقول : مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة ، ولا تريد بالنسمة غير الرجل. والذكر : الشرف والشهرة ، من قولك : فلان مذكور ، وإنه لذكر لك ولقومك. أو الذكرى والموعظة ، أو ذكر ما يحتاج إليه في الدين من الشرائع وغيرها ، كأقاصيص الأنبياء والوعد والوعيد. والتنكير في عِزَّةٍ وَشِقاقٍ للدّلالة على شدّتهما وتفاقمهما.

وقرئ : في غرّة ، أى : في غفلة عما يجب عليهم من النظر واتباع الحق.

[سورة ص (38) : آية 3]

كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (3)

كَمْ أَهْلَكْنا وعيد لذوي العزة والشقاق فَنادَوْا فدعوا واستغاثوا ، وعن الحسن.

فنادوا بالتوبة وَلاتَ هي لا المشبهة بليس ، زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب ، وثم للتوكيد ، وتغير بذلك حكمها حيث لم تدخل إلا على الأحيان ولم يبرز إلا أحد مقتضيها : إمّا الاسم وإما الخبر ، وامتنع بروزهما جميعا ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه. وعند الأخفش : أنها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء ، وخصت بنفي الأحيان. وحِينَ مَناصٍ منصوب بها ، كأنك قلت : ولا حين مناص لهم. وعنه : أنّ ما ينتصب بعده بفعل مضمر، أى : ولا أرى حين مناص ، ويرتفع بالابتداء : أى ولا حين مناص كائن لهم ، وعندهما أنّ النصب على : ولات الحين حين مناص أى وليس حين مناص ، والرفع على ولات حين مناص حاصلا لهم.

وقرئ : حين مناص ، بالكسر ، ومثله قول أبى زبيد الطائي :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء «1»

فإن قلت : ما وجه الكسر في أوان؟ قلت : شبه بإذ في قوله : وأنت إذ صحيح ، في أنه زمان قطع منه المضاف إليه وعوض التنوين : لأنّ الأصل : ولات أوان صلح. فإن قلت : فما تقول في حين مناص والمضاف إليه قائم؟ قلت : نزل قطع المضاف إليه من مناص ، لأنّ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين ،

(1) بعثوا حربنا عليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كريه الصلاء
طلبوا صلحتا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء
لأبى زبيد الطائي ، استعار البعث للتسبب. وتنوين مقام ورخاء للتعظيم. والتشذر : التهيؤ للقتال ، والتشمر بأطراف الثوب ، والتطاول ، والوعيد ، والركوب من خلف المركوب. والانافة : الارتفاع ، وكل هذا ترشيح لاستعارة البعث. ويجوز أنه شبه الحرب بفارس على طريق المكنية. والبعث والتشذر والانافة : تخييل. وشبهها بالنار أيضا فأثبت لهاء التصلى وهو التدفؤ بالنار تخييلا. أو استعار التصلى لاقتحام المكاره تصريحية ، وطلبوا : جواب لما ، أى : لما ذاقوا بأسنا طلبوا صلحنا ، والحال أنه ليس الأوان أوان صلح ، فأجبناهم بأن هذا ليس وقت بقاء ، بل وقت فناء. وأوان : منى على الكسر لنية الاضافة. وقيل : إنه مبنى على الكسر أيضا لنية الاضافة ، ونون للضرورة. وشبهه بنزال في الوزن. وقيل : مجرور على إضمار «من» الاستغراقية الزائدة. وزعم الفراء أن لات هنا حرف جر ، وعليها فتنوين أوان للتمكين. وزعم الزمخشري أنه على البناء تنوين عوض ، ورد بأنه لو كان كذلك لأعرب ، وحين نصب على أنه خبر لات في بقاء ، ثم تنزيلها منزلة نيتها في حين ، لأن التقدير : أن لات حين بقائكم ، وهو بعيد عن المعنى الجزل.

لاتحاد المضاف والمضاف إليه ، وجعل تنوينه عوضا من الضمير المحذوف ، ثم بنى الحين لكونه مضافا إلى غير متمكن. وقرئ : ولات بكسر التاء على البناء ، كجير. فإن قلت : كيف يوقف على لات؟ قلت : يوقف عليها بالتاء ، كما يوقف على الفعل الذي يتصل به تاء التأنيث. وأمّا الكسائي فيقف عليها بالهاء كما يقف على الأسماء المؤنثة.

وأمّا قول أبى عبيد : إنّ التاء داخلة على حين فلا وجه له. واستشهاده بأنّ التاء ملتزقة بحين في الإمام لا متشبث به ، فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط. والمناص : المنجا والفوت. يقال : ناصه ينوصه إذا فاته. واستناص : طلب المناص. قال حارثة بن بدر : غمر الجراء إذا قصرت عنانه بيدي استناص ورام جري المسحل «1»

[سورة ص (38) : الآيات 4 إلى 5]

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ(5) مُنْذِرٌ مِنْهُمْ رسول من أنفسهم وَقالَ الْكافِرُونَ ولم يقل : وقالوا ، إظهارا للغضب عليهم ، ودلالة على أنّ هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر المنهمكون في الغىّ الذين قال فيهم أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وهل ترى كفرا أعظم وجهلا أبلغ من أن يسموا من صدّقه اللّه بوحيه كاذبا ، ويتعجبوا من التوحيد، وهو الحق الذي لا يصح غيره ، ولا يتعجبوا من الشرك وهو الباطل الذي لا وجه لصحته. روى أنّ إسلام عمر رضى اللّه تعالى عنه فرح به المؤمنون فرحا شديدا ، وشق على قريش وبلغ منهم ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا إلى أبى طالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا «2» ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، يريدون : الذين دخلوا في الإسلام ، وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : يا ابن أخى ، هؤلاء قومك يسألونك السؤال «3» فلا تمل كل الميل على قومك ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما ذا يسألوننى؟

(1). لحارثة بن بدر ، يصف فرسا بأنه كثير المجاراة لغيره من الأفراس ، إذا قصرت : أى جذبت عنانه ، استناص : أى طلب النوص والهرب والنجاء من الأعداء. وشبه الفرس بمن تصح منه الارادة على طريق المكنية ، والروم تخييل ، أى : أراد جريا كجرى السحل وهو حمار الوحش ، سمي به لكثرة سحاله ، أى شهيقه.
(2). ذكره الثعلبي بغير سند. وروى الترمذي والنسائي وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبري وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق يحيى بن عمارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال «مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاء النبي صلى اللّه عليه وسلم ..... الحديث نحوه» وليس فيه أوله.
(3). قوله «يسألونك السؤال فلا تمل» لعله السواء ، كما في عبارة النسفي. (ع)

قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك ، فقال عليه السلام : أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتم أمعطىّ أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ فقالوا : نعم وعشرا ، أى نعطيكها وعشر كلمات معها ، فقال : قولوا لا إله إلا اللّه فقاموا وقالوا أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ أى : بليغ في العجب. وقرئ : عجاب ، بالتشديد ، كقوله تعالى مَكْراً كُبَّاراً وهو أبلغ من المخفف. ونظيره : كريم وكرام وكرام : وقوله أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً مثل قوله وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً في أن معنى الجعل التصيير في القول على سبيل الدعوى والزعم ، كأنه قال : أجعل الجماعة واحدا في قوله ، لأنّ ذلك في الفعل محال.

[سورة ص (38) : الآيات 6 إلى 7]

وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (6) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (7)

الْمَلَأُ أشراف قريش ، يريد : وانطلقوا عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالجواب العتيد ، قائلين بعضهم لبعض امْشُوا وَاصْبِرُوا فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد إِنَّ هذا الأمر لَشَيْءٌ يُرادُ أى يريده اللّه تعالى ويحكم بإمضائه ، وما أراد اللّه كونه فلا مردّ له ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو أن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه : أو أن دينكم لشيء يراد ، أى : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه. وأَنِ بمعنى أى ، لأنّ المنطلقين عن مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول. ويجوز أن يراد بالانطلاق : الاندفاع في القول ، وأنهم قالوا : امشوا ، أى أكثروا واجتمعوا ، من مشت المرأة إذا كثرت ولادتها. ومنه : الماشية ، للتفاؤل ، كما قيل لها : الفاشية : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1» «ضموا فواشيكم» «2» ومعنى وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ : واصبروا على عبادتها والتمسك بها حتى لا تزالوا عنها ، وقرئ : وانطلق الملأ منهم امشوا ، بغير أَنِ على إضمار القول. وعن ابن مسعود : وانطلق الملأ منهم يمشون أن اصبروا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ في ملة عيسى التي هي آخر الملل ، لأنّ النصارى يدعونها وهم مثلثة غير موحدة. أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا. أو ما سمعنا بهذا كائنا في الملة الآخرة ، على أن يجعل في الملة الآخرة حالا من هذا ولا تعلقه بما سمعنا كما في الوجهين.

والمعنى : أنا لم نسمع من أهل الكتاب ولا من الكهان أنه يحدث في الملة الآخرة توحيد اللّه.

ما هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أى : افتعال وكذب.

(1). أخرجه ابن حبان من حديث جابر رضى اللّه عنه بلفظ «كفوا» وأصله في مسلم.
(2). قوله «ضموا فواشيكم» بقيته في الصحاح : «حتى تذهب فحمة العشاء» (ع)

[سورة ص (38) : الآيات 8 إلى 11]

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (10) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (11)

أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوّة من بينهم بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ من القرآن ، يقولون في أنفسهم : إما وإما. وقولهم إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ كلام مخالف لاعتقادهم فيه يقولونه على سبيل الحسد بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ بعد فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم من الشك والحسد «1» حينئذ ، يعنى : أنهم لا يصدقون به إلا أن يمسهم العذاب مضطرين إلى تصديقه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ يعنى ما هم بما لكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ويصرفوها عمن شاءوا ، ويتخيروا للنبوّة بعض صناديدهم ، ويترفعوا بها عن محمد عليه الصلاة والسلام.

وإنما الذي يملك الرحمة وخزائنها : العزيز القاهر على خلقه ، الوهاب الكثير المواهب المصيب بها مواقعها ، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته وعدله ، كما قال أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا ثم رشح هذا المعنى فقال أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ حتى يتكلموا في الأمور الربانية والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء ، ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال : وإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة ، وكانت عندهم الحكمة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوّة دون من لا تحق له فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش ، حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت اللّه، وينزلوا الوحى إلى من يختارون ويستصوبون ، ثم خسأهم خساءة «2»

(1). قال محمود : «معناه لم يذوقوه بعد ، فإذا ذاقوه زال عنهم ما بهم ... الخ» قلت : ويؤخذ منه أن لما لائقة بالجواب ، وإنما ينفى بها فعل يتوقع وجوده ، كما يقول سيبويه ، وفرق بينها وبين لم بأن لم نفى لفعل يتوقع وجوده لم يقبل مثبته قد ، ولما نفى لما يتوقع وجوده أدخل على مثبته قد ، وإنما ذكرت ذلك لأنى حديث عهد بالبحث في قوله عليه الصلاة والسلام «الشفعة فيما لم يقسم» فانى استدللت به على أن الشفعة خاصة بما يقبل القسمة ، فقيل لي :

إن غايته أنه أثبت الشفعة فيما نفى عنه القسمة ، فاما أنها لا تقبل قسمة ، وإما أنها تقبل ولم تقع القسمة ، فأبطلت ذلك بأن آلة النفي المذكورة «لم» ومقتضاها قبول المحل الفعل المنفي وتوقع وجوده. ألا تراك تقول : الحجر لا يتكلم» ولو قلت : الحجر لم يتكلم ، لكان ركيكا من القول ، لافهامه قبوله للكلام ،
(2). قوله «ثم خسأهم خسأة» في الصحاح : خسأت الكلب خسأ : طردته. وخسأ بنفسه يتعدى ولا يتعدى. (ع)

عن ذلك بقوله جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ يريد ما هم إلا جيش من الكفار المتحزبين على رسل اللّه ، مهزوم مكسور عما قريب «1» فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث لما به يهذون. وما مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام ، كما في قول امرئ القيس : وحديث ما على قصره «2»

إلا أنه على سبيل الهزء ، وهُنالِكَ إشارة إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله : لست هنالك.

[سورة ص (38) : الآيات 12 إلى 15]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (13) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (14) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (15)

ذُو الْأَوْتادِ أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده ، قال :

والبيت لا يبتنى إلّا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد «3»

(1). قال محمود : «ثم تهكم بهم غاية التهكم فقال : إن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق والتصرف في قسمة الرحمة فكانت عندهم المعرفة التي يميزون بها بين من هو حقيق بإيتاء النبوة دون من لا يستحق ، فليرتقوا في المعارج والطرق الموصلة إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت اللّه تعالى ، وينزلوا الوحى على من يختارونه.
قال : ثم خسأهم بقوله جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ معناه : إن هؤلاء إلا جند متحزبون على النبي صلى اللّه عليه وسلم عما قليل يهزمون ويولون الأدبار» قال أحمد : الاستواء المنسوب للّه : ليس مما يتوصل إليه بالصعود في المعارج والوصول إلى العرش والاستقرار عليه والتمكن فوقه ، لأن الاستواء المنسوب إلى اللّه تعالى ليس استواء استقرار بجسم - تعالى اللّه عن ذلك - وإنما هو صفة فعل ، أى فعل فيه فعلا سماء استواء ، هذا تأويل القاضي أبى بكر.
وليست عبارة الزمخشري في هذا الفصل مطابقة للمفصل على جارى عاداته في تحرير العبارة على مراده.
(2) جد بالوفاق لمشتاق إلى سهره إن لم تجد فحديث ما على قصره
المراد بالوفاق : الوصال. وضمير «سهره» للمشتاق أو للوفاق. وحديث : مبتدأ خبره محذوف ، أى : تجود به.
وما زائدة التعميم. ويجوز أنها للتعظيم. لكن الأول أوفق بالمقام. وعلى بمعنى مع ، وضمير «قصره» : للحديث.
(3) والبيت لا يبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أسباب وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
للرافدة الأودى ، يقول : لا ينال الأمر إلا بتوافر أسبابه ، فالبيت من باب التمثيل : شبه توقف الأمر على أسبابه وتوقف أسبابه على أسبابها ، يتوقف ضرب الخيمة على انتصاب الأعمدة ، وتوقف انتصابها على إثبات الأوتاد المشدودة بالحبال ، ثم قال : فان اجتمعت الحبال المشدودة بالأوتاد الثابتة وانتصبت الأعمدة ووجد الساكن بلغ مراده ، وهو بمعنى الجمع ، فصح جمع ضميره ، وكاده كيدا عالجه علاجا ، أى : بلغوا الأمر الذي كادوه ، أي عالجوه لتحصيله.

فاستعير لثبات العز والملك واستقامة الأمر ، كما قال الأسود : في ظل ملك ثابت الأوتاد «1»

وقيل : كان يشبح «2» المعذب بين أربع سوار : كل طرف من أطرافه إلى سارية مضروب فيه وتد من حديد، ويتركه حتى يموت. وقيل : كان يمدّه بين أربعة أوتاد في الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل : كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه أُولئِكَ الْأَحْزابُ قصد بهذه لإشارة الإعلام بأنّ الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم هم الذين وجد منهم التكذيب «3».

ولقد ذكر تكذيبهم أولا في الجملة الخبرية على وجه الإبهام ، ثم جاء بالجملة الاستئنائية فأوضحه فيها : بأنّ كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل ، لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبوهم جميعا. وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه ، والتنويع في تكريره بالجملة الخبرية أوّلا وبالاستثنائية ثانيا ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص : أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه ، ثم قال فَحَقَّ عِقابِ أى فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم هؤُلاءِ أهل مكة. ويجوز أن يكون إشارة إلى جميع الأحزاب لاستحضارهم بالذكر.

(1) ما ذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد أياد

جرت الرياح على مقر ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي به يوما يصير إلى بلى ونفاد
للأسود بن يعفر. يقول : لا أتمنى شيئا بعدهم من الدنيا. ومحرق : هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدى اللخمي.
والاياد - في الأصل - : تراب يجمع حول الحوض والبيت ، يحفظه عن المطر والسيول ، من الأيدى : وهو القوة.
وإياد : علم على ابن نزار بن معد ، فهو أخو مضر وربيعة. والمراد به هنا القبيلة. وروى : وآل إياد ، عطفا على آل محرق. وغنى بالمكان ، كرضى : أقام به. والبلى : الانمحاق. والنفاد : الفناء. يقول : تركوا منازلهم :
جملة مستأنفة لبيان نفى التأميل ، واعتراضية بين المتعاطفين. وقوله «جرت الرياح» مستأنف لبيان حال القبيلتين ، يقول : تفانوا فجرت الرياح على محل ديارهم ، وجريان الرياح على مقر الديار ، لانهدام الجدران التي كانت تمنع الرياح ، وذلك كناية عن موتهم، وأفاد أن فناءهم كان سريعا كأنه دفعة واحدة بقوله : فكأنهم كانوا على ميعاد واحد ، ولقد أقاموا بأرغد عيشة ، وشبه الملك الذي به عزهم وصونهم بخيمة مضروبة عليهم ، والظل : الترشيح ، والأوتاد تخييل. وإذا معناها المفاجأة. أى فظهر بغتة أن كل نعيم لا محالة زائل ، أى : فأدركهم المحاق والفناء.
(2). قوله «و قيل كان يشبح المعذب» أى يمده ، أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(3). قال محمود : «قصد بهذه الاشارة الاعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم الذين وجد التكذيب منهم» قال أحمد : وفي تكرار تكذيبهم فائدة أخرى : وهي أن الكلام لما طال بتعديد آحاد المكذبين ، ثم أريد ذكر ما حاق بهم من العذاب جزاء لتكذيبهم ، كرر ذلك مصحوبا بالزيادة المذكورة ، ليلي قوله تعالى فَحَقَّ عِقابِ على سبيل التطرية المعتادة عند طول الكلام وهو كما قدمته في قوله وَكُذِّبَ مُوسى حيث كرر الفعل ليقترن بقوله فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ.

أو لأنهم كالحضور عند اللّه. والصيحة : النفخة ما لَها مِنْ فَواقٍ وقرئ بالضم : ما لها من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين حلبتي الحالب ورضعتى الراضع. يعنى : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان ، كقوله تعالى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وعن ابن عباس : مالها من رجوع ، وترداد ، من أفاق المريض إذا رجع إلى الصحة. وفواق الناقة : ساعة ترجع الدرّ إلى ضرعها ، يريد : أنها نفخة واحدة فحسب لا تثنى ولا تردد.

[سورة ص (38) : آية 16]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (16)

القط : القسط من الشيء ، لأنه قطعة منه ، من قطه إذا قطعه. ويقال لصحيفة الجائزة : قط ، لأنها قطعة من القرطاس ، وقد فسر بهما قوله تعالى عَجِّلْ لَنا قِطَّنا أى نصيبنا من العذاب الذي وعدته ، كقوله تعالى وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وقيل : ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعد اللّه المؤمنين الجنة ، فقالوا على سبيل الهزء : عجل لنا نصيبنا منها. أو عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها.

[سورة ص (38) : الآيات 17 إلى 20]

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (20)

فإن قلت : كيف تطابق قوله اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وقوله وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ قلت : كأنه قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : اصبر على ما يقولون ، وعظم أمر معصية اللّه في أعينهم بذكر قصة داود ، وهو أنه نبىّ من أنبياء اللّه تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوّة والملك ، لكرامته عليه وزلفته لديه ، ثم زل زلة فبعث إليه الملائكة ووبخه عليها. على طريق التمثيل والتعريض ، حتى فطن لما وقع فيه فاستغفر وأناب ، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم وغمه الواصب «1» ، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال يجدد النظر إليها والندم عليها فما الظنّ بكم مع كفركم ومعاصيكم؟ أو قال له صلى اللّه عليه وسلم : اصبر على ما يقولون وصن نفسك وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذاهم ، واذكر أخاك داود وكرامته على اللّه كيف زلّ تلك الزلة اليسيرة فلقى من توبيخ اللّه وتظليمه ونسبته إلى البغي ما لقى ذَا الْأَيْدِ ذا القوّة في الدين المضطلع بمشاقه وتكاليفه ،

(1). قوله «و غمه الواصب» أى : الدائم. (ع)

كان على نهوضه بأعباء النبوّة والملك يصوم يوما ويفطر يوما وهو أشدّ الصوم ، ويقوم نصف الليل. يقال : فلان أيد ، وذو أيد ، وذو آد. وأياد كل شيء : ما يتقوّى به أَوَّابٌ توّاب رجاع إلى مرضاة اللّه فإن قلت : ما ذلك على أنّ الأيد القوّة في الدين؟ قلت : قوله تعالى إِنَّهُ أَوَّابٌ لأنه تعليل لذي الأيد وَالْإِشْراقِ وقت الإشراق ، وهو

وعنه : لم يزل في نفسي من صلاة الضحى شيء حتى طلبتها فوجدتها بهذه الآية يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وكان لا يصلى صلاة الضحى ، ثم صلاها بعد. وعن كعب أنه قال لابن عباس : إنى لا أجد في كتب اللّه صلاة بعد طلوع الشمس ، فقال : أنا أوجدك ذلك في كتاب اللّه تعالى ، يعنى هذه الآية. ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في الشروق ، ومنه قوله تعالى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ وقول أهل الجاهلية : أشرق «3» ثبير، ويراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بالشروق. ويسبحن : في معنى ومسبحات على الحال. فإن قلت : هل من فرق بين يسبحن ومسبحات «4»؟ قلت : نعم ، وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك ،

(1). قال محمود : «الاشراق حين تشرق الشمس ، أى يصفو نورها وهو وقت الضحى. وأما شروقها فطلوعها.
يقال : شرقت الشمس ولما تشرق. ومنه أخذ ابن عباس صلاة الضحى. قال : ويحتمل أن يكون من أشرق القوم إذا دخلوا في وقت الشروق ، ويكون المراد وقت صلاة الفجر لانتهائه بشروق الشمس» قال أحمد : الوجه الثاني يفرق بين العشى والاشراق ، فان العشى ظرف بلا إشكال ، فلو حمل الاشراق على الدخول في وقت الشروق لكان مصدرا ، مع أن المراد به الظرف ، لأنه فعل الشمس وصفتها التي تستعمل ظرفا كالطلوع والغروب وشبههما.
(2). أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي والبغوي والطبراني كلهم من رواية أبى بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس : حدثتني أم هانئ. ورواه الحاكم من وجه آخر عن عبد اللّه بن الحرث عن ابن عباس «كان لا يصلى الضحى حتى أدخلناه على أم هانئ فقلت لها : أخبرى ابن عباس قالت : دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال : فخرج ابن عباس وهو يقول : هذه صلاة الاشراق» هذا موقوف وهو أصح.
(3). قوله «أشرق ثبير» كانوا يقولون : أشرق ثبير كيما نغير ، كما في الصحاح. (ع)
(4). قال محمود : «إن قلت لم اختار يسبحن على مسبحات وأيهما وقع كان حالا ، وأجاب بأن اختيارهما لمعنى وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئا بعد شيء كأن السامع محاضر لها فيسمعها تسبح. ومنه قول الأعشى :
إلى ضوء نار في يفاع تحرق
ولو قال : محرقة لم يكن شيئا. قال أحمد : ولهذه النكتة فرق سحنون من أصحابنا بين : أنا محرم يوم أفعل كذا «بصيغة اسم الفاعل. وبين أحرم بصيغة المضارع. فرأى أن المعلق بصيغة اسم الفاعل يكون محرما بوجود صيغة التعليق ، ولا كذلك المعلق بصيغة الفعل المضارع ، فانه لا يكون محرما حتى يحرم ويقال له أحرم ، فكأنه رأى أن صيغة الفعل خصوصية في الدلالة على حدوثه ، ولا كذلك اسم الفاعل وإن كان متأخرا. وأصحابنا اختلفوا في معنى قول سحنون في اسم الفاعل يكون محرما يوم يفعل ، فمنهم من قال : أراد الفور فينشئ إحراما ، ومنهم من قال : يكون محرما في الحال بالتعليق الأول ولا يجدد شيئا. ومذهب مالك : التسوية بين صيغتي اسم الفاعل والفعل في هذا المقام واللّه أعلم. وحقق الزمخشري هذا الفرق بين اسم الفاعل والفعل في قوله وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ فقال :
لما كان الواقع حشر الطير دفعة واحدة ، وكان ذلك أدل على القدرة ، لم يكن لاستعمال الفعل الدال على الحدوث شيئا فشيئا معنى ، فاستعمل فيه اسم المفعول على خلاف استعمال الفعل في الأول.

وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شيء وحالا بعد حال ، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح. ومثله قول الأعشى : إلى ضوء نار في يفاع تحرق «1»

ولو قال : محرقة ، لم يكن شيئا. وقوله مَحْشُورَةً في مقابلة : يسبحن : إلا أنه لما لم يكن في الحشر ما كان في التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شيء ، جيء به اسما لا فعلا.

وذلك أنه لو قيل : وسخرنا الطير يحشرن - على أنّ الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شيء.

والحاشر هو اللّه عز وجل - لكان خلفا ، لأنّ حشرها جملة واحدة أدلّ على القدرة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير فسبحت ، فذلك حشرها. وقرئ : والطير محشورة. بالرفع كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ كل واحد من الجبال والطير لأجل داود ، أى : لأجل تسبيحه مسبح ، لأنها كانت تسبح بتسبيحه. ووضع الأوّاب موضع المسبح : إمّا لأنها كانت ترجع التسبيح ، والمرجع رجاع ، لأنه يرجع إلى فعله رجوعا بعد رجوع وإمّا لأن الأواب - وهو التوّاب الكثير الرجوع إلى اللّه وطلب مرضاته - من عادته أن يكثر ذكر اللّه ويديم تسبيحه وتقديسه. وقيل : الضمير للّه ، أى : كل من داود والجبال والطير للّه أوّاب ، أى مسبح مرجع للتسبيح وَشَدَدْنا مُلْكَهُ قوّيناه ، قال تعالى سَنَشُدُّ عَضُدَكَ وقرئ شددنا على المبالغة. قيل : كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم «2» يحرسونه وقيل : الذي شدّ اللّه به ملكه وقذف في قلوب قومه الهيبة : أنّ رجلا ادّعى عنده على آخر بقرة ، وعجز عن إقامة البينة ، فأوحى اللّه تعالى إليه في المنام : أن اقتل المدّعى

(1). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات بالجزء الثالث صفحة 63 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «مستلئم» أى : لا بس اللأمة ، وهي الدرع. أفاده الصحاح. (ع)

فهابوه الْحِكْمَةَ الزبور وعلم الشرائع. وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة. الفصل : التمييز بين الشيئين. وقيل للكلام البين : فصل ، بمعنى المفصول كضرب الأمير ، لأنهم قالوا : كلام ملتبس ، وفي كلامه لبس. والملتبس: المختلط ، فقيل في نقيضه : فصل ، أى مفصول بعضه من بعض ، فمعنى فصل الخطاب : البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ، ومن فصل الخطاب وملخصه : أن لا يخطئ صاحبه مظانّ الفصل والوصل ، فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه ، ولا يتلو قوله فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إلا موصولا بما بعده ، ولا وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ حتى يصله بقوله لا تَعْلَمُونَ ونحو ذلك ، وكذلك مظانّ العطف وتركه ، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار ، وإن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل ، كالصوم والزور ، وأردت بفصل الخطاب : الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، والصواب والخطأ ، وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير الملك والمشورات. وعن علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه. هو قوله : البينة على المدّعى واليمين على المدّعى عليه ، وهو من الفصل بين الحق والباطل ، ويدخل فيه قول بعضهم : هو قوله «أمّا بعد» لأنه يفتتح إذا تكلم في الأمر الذي له شأن بذكر اللّه وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه : فصل بينه وبين ذكر اللّه بقوله : أمّا بعد. ويجوز أن يراد الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخلّ ولا إشباع مملّ. ومنه ما جاء في صفة كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فصل لا نذر ولا هذر «1».

[سورة ص (38) : الآيات 21 إلى 22]

وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (22)

كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوّجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا ، فأحبها ، فسأله النزول له عنها ، فاستحيا أن يردّه ، ففعل ، فتزوّجها وهي أمّ سليمان ، فقيل له : إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نسائك : لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول ، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر

(1). هو حديث أم معيد. وقد تقدم في سورة الأعراف ، وفي الأدب لأبى داود من حديث عائشة «كان كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصلا يفهمه من سمعه».

على ما امتحنت به. وقيل : خطبها أوريا ثم خطبها داود ، فآثره أهلها ، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن ، مع كثرة نسائه. وأمّا ما يذكر أنّ داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فقال : يا رب إنّ آبائي قد ذهبوا بالخير كله ، فأوحى إليه : إنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها : قد ابتلى ابراهيم بنمروذ وذبح ولده ، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره ، ويعقوب بالحزن على يوسف. فسأل الابتلاء فأوحى اللّه إليه : إنك لمبتلى في يوم كذا وكذا ، فاحترس ، فلما حان ذلك اليوم دخل محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فجاءه الشيطان في صورة حمامة من ذهب ، فمدّ يده ليأخذها لابن له صغير ، فطارت ، فامتدّ إليها ، فطارت فوقعت في كوّة ، فتبعها ، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها ، وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء ، «1» فكتب إلى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء. أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ، وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح اللّه على يده أو يستشهد ، ففتح اللّه على يده وسلم ، فأمر بردّه مرة أخرى ، وثالثة ، حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته. فهذا ونحوه مما يقبح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، «2» فضلا عن بعض أعلام الأنبياء. وعن سعيد ابن المسيب والحرث الأعور : أنّ علىّ بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء «3». وروى أنه حدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب اللّه فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظم بأن يقال غير ذلك.

وإن كانت على ما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه فما ينبغي إظهارها عليه. فقال عمر : لسماعى هذا الكلام أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس. والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب. فإن قلت : لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح؟ قلت : لكونها أبلغ في التوبيخ ، من قبل أن التأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع في نفسه ، أشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطإ فيه من أن يبادره به صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة. ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا في سياسة الولد إذا
وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح.

(1). قوله «من غزاة البلقاء» في الصحاح : مدينة بالشام. (ع)
(2). قوله «من أفناء المسلمين» في الصحاح : يقال : هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممن هو. وعبارة النسفي بدل قوله : فهذا ونحوه ... الخ : فلا يليق من المتسمين ... الخ. (ع)
(3). لم أجده

وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية فاستسمج حال نفسه ، وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحاله ومقياسا لشأنه ، فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة ، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة. فإن قلت : فلم كان ذلك على وجه التحاكم إليه؟

قلت : ليحكم بما حكم به من قوله لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ حتى يكون محجوجا بحكمه ومعترفا على نفسه بظلمه وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ظاهره الاستفهام. ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد ، والتشويق إلى استماعه. والخصم : الخصماء ، وهو يقع على الواحد والجمع ، كالضيف. قال الله تعالى حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ لأنه مصدر في أصله ، تقول : خصمه خصما ، كما تقول : ضافه ضيفا. فإن قلت : هذا جمع. وقوله خَصْمانِ تثنية فكيف استقام ذلك؟ قلت : معنى خصمان : فريقان خصمان ، والدليل عليه قراءة من قرأ : خصمان بغى بعضهم على بعض : ونحوه قوله تعالى هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ. فإن قلت : فما تصنع بقوله إِنَّ هذا أَخِي وهو دليل على اثنين؟

قلت : هذا قول البعض المراد بقوله بعضنا على بعض. فإن قلت : فقد جاء في الرواية أنه بعث إليه ملكان. قلت: معناه أن التحاكم كان بين ملكين ، ولا يمنع ذلك أن يصحبهما آخرون. فإن قلت : فإذا كان التحاكم بين اثنين كيف سماهم جميعا خصما في قوله نَبَأُ الْخَصْمِ وخَصْمانِ؟ قلت : لما كان صحب كل واحد من المتحاكمين في صورة الخصم صحت التسمية به. فإن قلت : بم انتصب إِذْ؟ قلت : لا يخلو إما أن ينتصب بأتاك ، أو بالنبإ ، أو بمحذوف فلا يسوغ انتصابه بأتاك ، لأن إتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا في عهده لا في عهد داود ، ولا بالنبإ ، لأن النبأ الواقع في عهد داود لا يصح إتيانه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن أردت بالنبإ : القصة في نفسها لم يكن ناصبا ، فبقى أن ينتصب بمحذوف ، وتقديره : وهل أتاك نبأ تحاكم الخصم. ويجوز أن ينتصب بالخصم لما فيه من معنى الفعل. وأما إذ الثانية فبدل من الأولى تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ تصعدوا سوره ونزلوا إليه. والسور : الحائط المرتفع ونظيره في الأبنية : تسنمه ، إذ علا سنامه ، وتذرّاه : إذا علا ذروته. روى أنّ الله تعالى بعث إليه ملكين في صورة إنسانين ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه في يوم عبادته ، فمنعهما الحرس فتسوّرا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان فَفَزِعَ مِنْهُمْ قال ابن عباس : إنّ داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء : يوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للاشتغال بخواص أموره ، ويوما يجمع بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، فجاءوه في غير يوم القضاء ففزع منهم ، ولأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه خَصْمانِ

خبر مبتدإ محذوف ، أى : نحن خصمان وَلا تُشْطِطْ ولا تجر. وقرئ : ولا تشطط ، أى : ولا تبعد عن الحق. وقرئ : ولا تشطط. ولا تشاطط ، وكلها من معنى الشطط : وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق. وسَواءِ الصِّراطِ وسطه ومحجته : ضربه مثلا لعين الحق ومحضه.

[سورة ص (38) : آية 23]

إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (23)

أَخِي بدل من هذا أو خبر لإنّ. والمراد أخوّة الدين ، أو أخوّة الصداقة والألفة ، أو أخوة الشركة والخلطة ، لقوله تعالى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ كل واحدة من هذه الأخوات تدلى بحق مانع من الاعتداء والظلم. وقرئ : تسع

وحقيقته : اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدي وَعَزَّنِي وغلبني. يقال : عزه يعزه. قال : قطاة عزّها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح «2»

يريد : جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أردّه به. وأراد بالخطاب : مخاطبة المحاج المجادل : أو أراد : خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابا ، أى : غالبني في الخطبة فغلبني ، حيث زوّجها دوني. وقرئ : وعازني ، من المعازة وهي المغالبة. وقرأ أبو حيوة : وعزنى ، بتخفيف الزاى طلبا للخفة ، وهو تخفيف غريب، وكأنه قاسه على نحو : ظلت ، ومست. فإن قلت : ما معنى ذكر النعاج؟ قلت : كأن تحاكمهم في نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ، لأنّ التمثيل أبلغ في التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحيا من كشفه ، فيكنى عنه كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به ، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته. ووجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع في نعجة خليطه وأراده على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ مراده ،

(1). قوله «نحو نطع ونطع ، ولقوة ولقوة» في الصحاح : «النطع» فيه أربع لغات. وفيه «اللقوة» : داء في الوجه ، والناقة السريعة اللقاح ، والعقاب : الأنثى ، واللقوة - بالكسر - : مثله. (ع)
(2) كأن القلب ليلة قيل يفدى بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح
لقيص بن الملوح مجنون ليلى العامرية ، وقطاة : خبر كأن. وعزها : بمهملة فمعجمة ، بمعنى : غلبها وحبسها ، يقال :
عز يعز بالكسر : تعظم ، وبالفتح : قوى. وعزه يعزه - بالضم - : غلبه ، وما هنا من الثالث : شبه قلبه حين سمع برحيلها بحمامة أمسك الشرك جناحها في كثرة الخفقان والاضطراب. [.....]

والدليل عليه قوله وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ وإنما خص هذه القصة لما فيها من الرمز إلى الغرض بذكر النعجة. فإن قلت : إنما تستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال ، فإن فسرته بالمفاعلة من الخطبة لم يستقم. قلت : الوجه مع هذا التفسير أن أجعل النعجة استعارة عن المرأة ، كما استعاروا لها الشاة في نحو قوله :

يا شاة ما قنص لمن حلّت له «1»
فرميت غفلة عينه عن شاته «2»
وشبهها بالنعجة من قال :
كنعاج الملا تعسّفن رملا «3»

(1) يا شاة ما قنص لمن حلت له حرمت علىّ وليتها لم تحرم
لعنترة من معلقته يتذكر محبوبته بعد وقوع الحرب بينه وبين قبيلتها ، فلذلك حرمت عليه. وقيل : كان تزوجها أبوه فحرمت عليه ، شبهها بالشاة الوحشية في الحسن والجمال والفرة عن الرجال ، وأن كلا يصطاد بالاحتيال على طريق الاستعارة التصريحية ، وذكر القنص ترشيح ، لأنه يلائم الشاة. وما زائدة ، أى يا شاة القنص تعالى ، فهذا وقت التفكر في شأنك. وقيل : المنادى محذوف ، أى : يا قوم أحضروا شاة قنص ، وتعجبوا من حالها. والقنص :
الصيد ، والقنص - بالتحريك - والقنيص : المصيد. ويروى : يا شاة من قنص ، فقيل : من زائدة ، بناء على مذهب الكوفيين ، من جواز زيادة الأسماء. وقيل : نكرة موصوفة. وقنص صفتها من باب الوصف بالمصدر ، أى :
يا شاة إنسان قابص. ولمن حلت : متعلق بمحذوف صفة لها ، وحرمت على : التفات على القول بندائها ، وهو صفة لها ، أو استئناف بين به شأنها ، وتمنى عدم حرمتها : ندم على ما وقع من سبب الحرمة.
(2) قد كنت رائدها وشاة محاذر حذر يقل بعينه إغفالها
فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها
فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلها وطحالها
للأعشى. وقيل : لعمر بن أبى ربيعة. وضمير رائدها مرجعه في البيت قبله كامرأة أو مفازة ، ثم قال : ورب شاة رجل محاذر ، فاستعار الشاة للمرأة الجميلة على طريق التصريحية. والمحاذر : الذي يحاذر غيره ويخاف مكره. والحذر :
كثير الحذر مستمره ، يقل : بضم أوله ، من أقل الرباعي. وإغفالها ، أى : إغفال عينه ، فظللت أراقب الشاة وظل هو يحفظها ، حتى قربت لها حين قرب الظلام ودخل الليل ، فرميت شاته حين غفلة عينه عن شاته التي كان يحفظها وفيه نوع تهكم به ، وأضاف الغفلة إلى العين دون الشخص لأنها المذكورة أولا ، وللدلالة على قصر الزمن وسرعة الظفر ، ولأن القلب لا يغفل عنها لعزتها عنده ، بل يذكرها في النوم. وأما العين فتغفل ، فأصبت حبة ملبها أى وسطه ، وأصبت طحالها ، والرمي ترشيح للاستعارة ، لأنه من ملائمات الشاة. ويصح أن يكون هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه حالة ظفره بمراده على حين غفلة من الرقيب وإصابة أحشاء المرأة بالحب ، بحال من ظفر برمي الشاة بالسهم على غفلة من الراعي ، بل يصح أن يكون قوله : وشاة محاذر ... إلى آخر الأبيات : استعارة تمثيلية لتلك الحال ، ولا استعارة في الشاة وحدها على هذا.
(3) قلت إذا أقبلت وزهر تهادى كنعاج الفلا تعسفن رملا
وتنقبن بالحرير وأبدين عيونا حور المداعج نجلا

لعمر بن أبى ربيعة. وزهر : عطف على ضمير الفاعل المتصل ، ومجيئه بلا فصل قليل. وتهادى : أصله تتهادى ، حذف منه إحدى التاءين ، وهو صفة زهر. وشبههن بالنعاج الوحشية في حسن المشية وسعة العيون وسوادها.
والزهر : جمع زهراء ، أى : بيضاء ، والفلا : القفر الخالي. والتعسف : الميل عن سواء السبيل ، وهو حال من النعاج. ورملا : نصب على نزع الخافض ، أى : تمايلن في رمل. وتنقبت المرأة : لبست النقاب. وحور : جمع حوراء ، أى : صافيات. والمداعج : الحدقات ، من الدعج وهو اتساع سواد العين. والنجل : جمع نجلاء ، أى : واسعات.

لو لا أنّ الخلطاء تأباه ، إلا أن يضرب داود الخلطاء ابتداء مثلا لهم ولقصتهم «1». فإن قلت. الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يتلبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم؟ قلت : هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوّروها في أنفسهم وكانوا في صورة الأناسى ، كما تقول في تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون ، وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد «2» وتقول أيضا في تصويرها : لي أربعون شاة وأربعون فخلطناها. وما لكما من الأربعين أربعة ولاربعها فإن قلت : ما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أنثى «3»؟ قلت : يقال لك امرأة أنثى للحسناء الجميلة. والمعنى : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها ، وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها. ألا ترى إلى وصفهم لها بالكسول والمكسال. وقوله :

(1). قال محمود : «فان قلت : طريقة التمثيل إنما تستعمل على جعل الخطاب من الخطابة ، فان كان من الخطبة فما وجهه؟ قال : الوجه حينئذ أن تجعل النعجة استعارة للمرأة ، كما استعاروا لها الشاة في قوله :
يا شاة ما قنص لمن حلت له
إلا أن لفظ الخلطاء يأباه : اللهم إلا أن يكون ابتداء مثل من داود عليه السلام» قال أحمد : والفرق بين التمثيل والاستعارة : أنه على التمثيل ، يكون الذي سبق إلى فهم داود عليه السلام : أن التحاكم على ظاهره ، وهو التخاصم في النعاج التي هي الهائم ، ثم انتقل بواسطة التنبيه إلى فهم أنه تمثيل لحاله. وعلى الاستعارة يكون فهم عنهما : التحاكم في النساء المعبر عنهن بالنعاج كناية ، ثم استشعر أنه هو المراد بذلك.
(2). قوله «و ما لزيد وعمرو سبد ولا لبد» في الصحاح : ما له سبد ولا لبد ، أى : لا قليل ولا كثير.
والسبد : من الشعر ، واللبد : من الصوف. (ع)
(3). قال محمود : «فان قلت : فما وجه قراءة ابن مسعود : ولي نعجة أنثى. وأجاب بأنه يقال : امرأة أنثى للحسناء الجميلة ، ومعناه : وصفها بالعراقة في لين الأنوثة وفتورها وذلك أملح لها وأزيد في تكسرها وتثنيها. ألا ترى إلى وصفهم إياها بالكسول والمكسال ، كقوله :
فتور القيام قطيع الكلام
قال أحمد : ولكن قوله وَلِيَ نَعْجَةٌ إنما أورده على سبيل التقليل لما عنده والتحقير ، ليستجل على خصمه بالبغي لطلبه هذا القليل الحقير وعنده الجم الغفير ، فكيف يليق وصف ما عنده والمراد تقليله بصفة الحسن التي توجب إقامة عذر ما لخصمه ، ولذلك جاءت القراءة المشهورة على الاقتصار على ذكر النعجة ، وتأكيد قلتها بقوله واحِدَةٌ فهذا إشكال على قراءة ابن مسعود ، يمكن الجواب عنه بأن القصة الواقعة لما كانت امرأة أوريا الممثلة بالنعجة فيها مشهورة بالحسن ، وصف مثالها في قصة الخصمين بالحسن زيادة في التطبيق ، لتأكيد التنبيه على أنه هو المراد بالتمثيل.

فتور القيام قطيع الكلام «1»

وقوله : مشى رويدا تكاد تنغرف «2»

[سورة ص (38) : الآيات 24 إلى 25]

قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (24) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)

لَقَدْ ظَلَمَكَ جواب قسم محذوف. وفي ذلك استنكار لفعل خليطه وتهجين لطمعه.

والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، كقوله تعالى مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وقد ضمن معنى الإضافة فعدّى تعديتها ، كأنه قيل بإضافة نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ على وجه السؤال والطلب. فإن قلت : كيف سارع إلى تصديق أحد الخصمين حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه «3»؟ قلت : ما قال ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم.

(1) فتور القيام قطوع الكلام لعوب العشاء إذا لم تنم
تبذ النساء بحسن الحديث ودل رخيم وخلق عمم

الفترة : ضعف حركة الأعضاء في العمل ، فهي كثيرة الفترة في القيام. وقطوع الكلام : أى قليلته ، أو كأنها لا تقدر على إتمام الألفاظ للينها واستحيائها ، فكأنها تقطعها تقطيعا ، كثيرة اللعب في وقت العشاء مع زوجها ، وإذا لم تنم : إشارة إلى أنها قد تنام من أول الليل، وهو وصف لها بالكسل الذي هو من توابع اللين والأنوثة.
وبذ الرجل : إذا ساء خلقه ورث حاله وبذه الرجل : إذا غلبه ، أى تغلبهن بحسن الحديث ، والدل والدلال ، والتيه ، والتغنج ، والتشكل، والتكسر ، والرخاوة ، والرخامة ، ورقة الصوت ولينه ، والتمنع مع الرضاء. واعتم النبت : طال ، واعتم الشيء : تم ، وجسم عميم : تام ، والجمع عمم ، كسرير وسرر ، ورجل عمم - بالافراد - :
أى تام ، فالمراد أن خلقها أى جسمها تام حسن.
(2) ما أنس سلمى غداة تنصرف تمشى رويدا تكاد تنغرف
حذف ألف أنس للوزن ، أى : لا أنساها ، بل أتذكرها وقت انصرافها ، وتمشى : بدل مما قبله. وعبر بالمضارع لاستحضار الصورة المستحسنة. ورويدا : نصب بتمش ، أى : مشيا بتؤدة وأناة ، تكاد تنغرف : أى تنقطع وتنكسر.
وغرفته فانغرف. قطعته فانقطع ، أو تكاد تؤخذ من الأرض ، كما يغرف الماء باليد ، فكأنها ماء لتنكلها وتقطعها في تبخترها. وفرس غروف : كثير الأخذ من الأرض بقوائمه.
(3). قال محمود : «فان قلت كيف سارع بتصديق أحد الخصمين قبل سماع كلام الآخر ، وأجاب بأن ذلك كان بعد اعتراف خصمه ولكنه لم يحك في القرآن لأنه معلوم» قال أحمد : ويحتمل أن يكون ذلك من داود على سبيل الفرض والتقدير ، أى : إن صح ذلك فقد ظلمك.

ويروى أنه قال : أنا أريد أن آخذها منه وأكمل نعاجى مائة ، فقال داود : إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا ، وأشار إلى طرف الأنف والجبهة ، فقال : يا داود أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا ، وأنت فعلت كيت وكيت، ثم نظر داود فلم ير أحدا ، فعرف ما وقع فيه والْخُلَطاءِ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، الواحد : خليط ، وهي الخلطة ، وقد غلبت في الماشية ، والشافعي رحمه اللّه يعتبرها ، فإذا كان الرجلان خليطين في ماشية بينهما غير مقسومة ، أو لكل واحد منهما ماشية على حدة إلا أنّ مراحهما ومساقهما وموضع حلبهما والراعي والكلب واحد والفحولة مختلطة : فهما يزكيان زكاة الواحد فإن كان لهما أربعون شاة فعليهما شاة. وإن كانوا ثلاثة ولهم مائة وعشرون لكل واحد وأربعون ، فعليهم واحدة كما لو كانت لواحد. وعند أبى حنيفة : لا تعتبر الخلطة ، والخليط والمنفرد عنده واحد ، ففي أربعين بين خليطين : لا شيء عنده ، وفي مائة وعشرين بين ثلاثة : ثلاث شياه. فإن قلت : فهذه الخلطة ما تقول فيها؟ قلت : عليهما شاة واحدة ، فيجب على ذى النعجة أداء جزء من مائة جزء من الشاة عند الشافعي رحمه اللّه ، وعند أبى حنيفة لا شيء عليه ، فإن قلت : ما ذا أراد بذكر حال الخلطاء في ذلك المقام؟ قلت : قصد به الموعظة الحسنة والترغيب في إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة ، وأن يكرّه إليهم الظلم والاعتداء الذي عليه أكثرهم ، مع التأسف على حالهم ، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه ، وأنّ له في أكثر الخلطاء أسوة. وقرئ : ليبغى بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة ، وحذفها كقوله : اضرب عنك الهموم طارقها «1» وهو جواب قسم محذوف. وليبغ : بحذف الياء ، اكتفاء منها بالكسرة ، وما في وَقَلِيلٌ ما هُمْ للإبهام. وفيه تعجب من قلتهم. وإن أردت أن تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها ، من قول امرئ القيس : وحديث ما على قصره «2»

(1) اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسوط قونس الفرس
لطرفة بن العبد ، وقال أبو حاتم وابن برى : هو مصنوع عليه. واضرب فعل أمر بنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة تقديرا ، وحذفها لغير وقف ولالتقاء الساكنين قليل. وقيل ضرورة كما هنا. والمعنى : ادفع عنك الهموم ، فهو استعارة مضرحة. وضربك بالسوط ، أى : كضربك به ترشيح ، وطارقها : بدل من الهموم ، أى الفاشي لك منها ، والسوط : معمول من جلد تساق به الفرس. ويروى : بالسيف ، لكنه غير ملائم للفرس ، بل للفارس. وقونسها : أعلى رأسها. وقيل : شعر عنقها. ويجوز تشبيه الهموم بحيوان يصح ضربه على طريق المكنية ، والضرب تخييل ، والطروق ترشيح.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 75 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وانظر هل بقي له معنى قط. لما كان الظنّ الغالب يدانى العلم ، استعير له. ومعناه : وعلم داود وأيقن أَنَّما فَتَنَّاهُ أنا ابتليناه لا محالة بامرأة أوريا ، هل يثبت أو يزل؟ وقرئ : فتناه ، بالتشديد للمبالغة. وأفتناه ، من قوله : لئن فتنتني لهى بالأمس أفتنت «1» وفتناه وفتناه ، على أن الألف ضمير الملكين. وعبر بالراكع عن الساجد ، لأنه ينحنى ويخضع كالساجد. وبه استشهد أبو حنيفة وأصحابه في سجدة التلاوة ، على أنّ الركوع يقوم مقام السجود. وعن الحسن : لأنه لا يكون ساجدا حتى يركع ، ويجوز أن يكون قد استغفر اللّه لذنبه وأحرم بركعتي الاستغفار والإنابة ، فيكون المعنى : وخرّ للسجود راكعا أى مصليا ، لأنّ الركوع يجعل عبارة عن الصلاة وَأَنابَ ورجع إلى اللّه تعالى بالتوبة والتنصل. وروى أنه بقي ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه إلا لصلاة مكتوبة أو ما لا بدّ منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت العشب من دمعه إلى رأسه ، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دمع ، وجهد نفسه راغبا إلى اللّه تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك ، واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له إيشا على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه.

وروى أنه نقش خطيئته في كفه حتى لا ينساها. وقيل : إنّ الخصمين كانا من الإنس ، وكانت الخصومة على الحقيقة بينهما : إما كانا خليطين في الغنم ، وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهائر والسراري ،

(1) لئن فتنتني لهى بالأمس أفتنت سعيدا فأمسى قد قلى كل مسلم
وألقى مصابيح القراءة واشترى وصال الغواني بالكتاب المنمنم
للأعشى الهمداني. وفتنته المرأة - بالتخفيف والتشديد - وأفتنته : دلهته وحيرته. و«لهى بالأمس أفتنت» جواب القسم المدلول عليه باللام في قوله : لئن فتنتني. وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم. والمعنى : إن فتنتني فلا أحزن ولا أتعجب ، فان تلك عادتها من قبل ، فالمراد بالأمس : الزمن الماضي. وسعيد : هو ابن جبير ، كان عالما تقيا. وقلى كل مسلم ، أى : بغض كل مسلم سواها. وعبر بالمسلم ، لأنه يبعد بغضه. والمصابيح : يجوز أنها حقيقة ، وأنها مجاز عن الكتب. والغواني : الجميلات. والمنمنم : المحسن بنقوش الكتابة.
(2). قال محمود : «و نقل بعضهم أن هذه القصة لم تكن من الملائكة وليست تمثيلا وإنما كانت من البشر إما خليطين في الغنم حقيقة ، وإما كان أحدهما موسرا وله نسوان كثيرة من المهاتر والسراري والثاني معسرا وماله إلا امرأة واحدة ، فاستنزله عنها ، وفزع داود ، وخوفه أن يكونا مغتالين لأنهما دخلا عليه في غير وقت القضاء ، وما كان ذنب داود إلا أنه صدق أحدهما على الآخر ونسبه إلى الظلم قبل مسألته» قال أحمد : مقصود هذا القائل تنزيه داود عن ذنب يبعثه عليه شهوة النساء ، فأخذ الآية على ظاهرها وصرف الذنب إلى العجلة في نسبة الظلم إلى المدعى عليه ، لأن الباعث على ذلك في الغالب إنما هو التهاب الغضب وكراهيته أخف مما يكون الباعث عليه الشهوة والهوى ، ولعل هذا القائل يؤكد رأيه في الآية بقوله تعالى عقبها وصية لداود عليه السلام : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فما جرت العناية بتوصيته فيما يتعلق بالأحكام إلا والذي صدر منه أولا وبان منه من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس ، وقد التزم المحققون من أئمتنا أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : داود وغيره - منزهون من الوقوع في صغائر الذنوب مبرؤن من ذلك ، والتمسوا المحامل الصحيحة لأمثال هذه القصة ، وهذا هو الحق الأبلج ، والسبيل الأبهج ، إن شاء اللّه تعالى.

[سورة ص (38) : آية 26]

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (26)

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ أى استخلفناك على الملك في الأرض ، كمن يستخلفه بعض السلاطين على بعض البلاد ويملكه عليها. ومنه قولهم : خلفاء اللّه في أرضه. وجعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق. وفيه دليل على أنّ حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغير فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ أى بحكم اللّه تعالى إذ كنت خليفته وَلا تَتَّبِعِ هوى النفس في قضائك وغيره مما تتصرف فيه من أسباب الدين والدنيا فَيُضِلَّكَ الهوى فيكون سببا لضلالكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن دلائله التي نصبها في العقول ، وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها.

ويَوْمَ الْحِسابِ متعلق بنسوا ، أى : بنسيانهم يوم الحساب ، أو بقوله لهم ، أى : لهم عذاب يوم القيامة بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن سبيل اللّه. وعن بعض خلفاء بنى مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز أو للزهري : هل سمعت ما بلغنا؟ قال : وما هو؟ قال : بلغنا أن الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا تكتب عليه معصية. فقال : يا أمير المؤمنين ، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا هذه الآية.

[سورة ص (38) : آية 27]

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27)

باطِلًا خلقا باطلا ، لا لغرض صحيح وحكمة بالغة. أو مبطلين عابثين ، كقوله تعالى وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وتقديره : ذوى باطل.

أو عبثا ، فوضع باطلا موضعه ، كما وضعوا هنيئا موضع المدر ، وهو صفة ، أى ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أن خلقناها نفوسا «1» أودعناها العقل

(1). قوله «و هو أن خلقنا نفوسا» عبارة النسفي : وهو أنا خلقنا نفوسا. (ع) [.....]

والتمييز ، ومنحناها التمكين ، وأزحنا عللها ثم عرضناها للمنافع العظيمة بالتكليف ، وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالهم. وذلِكَ إشارة إلى خلقها باطلا ، والظن : بمعنى المظنون ، أى : خلقها للعبث لا للحكمة هو مظنون الذين كفروا. فإن قلت : إذا كانوا مقرين بأن اللّه خالق السماوات والأرض وما بينهما بدليل قوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فبم جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة. قلت : لما كان

[سورة ص (38) : آية 28]

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28)

أَمْ منقطعة. ومعنى الاستفهام فيها الإنكار ، والمراد : أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند اللّه أحوال من أصلح وأفسد ، وأتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما.

[سورة ص (38) : آية 29]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (29)

وقرئ : مباركا ، وليتدبروا : على الأصل ، ولتدبروا : على الخطاب. وتدبر الآيات : التفكر فيها ، والتأمل الذي يؤدى إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة ، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ ، لم يحل منه بكثير طائل ، «1» وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها ، ومهرة نثور لا يستولدها. وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله : حفظوا حروفه وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : واللّه لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد واللّه أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، واللّه ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، واللّه ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، «2» لا كثر اللّه في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين ، وأعذنا من القراء المتكبرين.

(1). قوله لم يحل منه بكثير طائل» في الصحاح : قولهم «لم يحل منه بطائل» أى : لم يستفد منه كبير فائدة وفيه : اللقح - بالكسر - : الإبل بأعيانها ، الواحدة : لقوح ، وهي الحلوب ، مثل : فلوص وقلاص : واللقحة : اللقوح ، والجمع لقح مثل قربة قرب ، وفيه : ناقة درور ، أى : كثيرة اللبن. وفيه : النثور ، أى : كثيرة الولد.
(2). قوله «و لا الوزعة» جمع وازع ، وهو الذي يكف عن الضرر ، والذي يتقدم الصف فيصلحه بالتقديم والتأخير. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة ص (38) : الآيات 30 إلى 33]

وَوَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (31) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (32) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْناقِ (33)

وقرئ : نعم العبد ، على الأصل ، «1» والمخصوص بالمدح محذوف. وعلل كونه ممدوحا بكونه أوّابا رجاعا إليه بالتوبة. أو مسبحا مؤوّبا للتسبيح مرجعا له ، لأن كل مؤوّب أوّاب.

والصافن : الذي في قوله : ألف الصّفون فما يزال كأنّه ممّا يقوم على الثّلاث كسيرا «2» وقيل : الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل : هو المتخيم. وأما الصافن : فالذي يجمع بين يديه. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من سره أن يقوم الناس له صفونا فليتبوّأ مقعده من النار» «3» أى : واقفين كما خدم الجبابرة. فإن قلت: ما معنى وصفها بالصفون؟ قلت : الصفون لا يكاد يكون في الهجن ، وإنما هو في العراب الخلص. وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى : إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها. وروى أن سليمان عليه السلام غزا أهل دمشق ونصيبين ، فأصاب ألف فرس. وقيل : ورثها من أبيه وأصابها أبوه من العمالقة. وقيل : خرجت من البحر لها أجنحة ، فقعد يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه «4» واستعرضها ،

(1). قوله «و قرئ نعم العبد على الأصل» لعله بفتح النون وكسر العين ، كما يفيده الصحاح. (ع)
(2). لامرئ القيس. وقيل : للعجاج يصف فرسا. والصفون - بالمهملة - : الوقوف على سنبك يد أو رجل.
والسنبك : طرف حافر الفرس. والصفون - بالمعجمة - : الجمع بين اليدين في الوقوف ، ومما يقوم : خبر كان ، أى : أحب الصفون ، كأنه من الجنس الذي يقوم على ثلاث قوائم. أو كأنه مخلوق من القيام على ثلاثة كخلق الإنسان من عجل ، حال كونه مكسور القائمة الرابعة ، أو كاسرها أى ثانيها ، فما موصولة أو مصدرية. وكسيرا :

حال ، والجملة : خبر يزال ، وهذا ما استقر عليه رأى ابن الحاجب في الأمالى بعد كلام طويل ، ولو جعلت ما مصدرية ، وكسيرا : خبر كأن ، كان حقه الرفع ، ولو جعلته خبر يزال كما اختاره ابن هشام ، لكان المعنى :
فلا يزال كسيرا ، كأنه مما يقوم على الثلاث على ما مر. ويجوز أن يكون المعنى : فلا يزال كسيرا من قيامه على الثلاث ، وكأنه اعتراض ، وخبره محذوف ، أى كأنه كسير. وفائدته الاحتراس.
(3). لم أجده هكذا وفي السنن حديث معاوية «من سره أن يتمثل الناس له قياما» وفي الغريب لأبى عبيد من حديث البراء رضى اللّه عنه «كنا إذا صلينا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فرفع رأسه قمنا معه صفوفا.
(4). قوله «بعد ما صلى الأولى على كرسيه» عبارة النسفي. صلى الظهر. (ع)

فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد من الذكر كان له وقت العشى ، وتهيبوه فلم يعلموه ، فاغتم لما فاته ، فاستردها وعقرها مقربا «1» للّه ، وبقي مائة ، فما بقي في أيدى الناس من الجياد فمن نسلها ، وقيل : لما عقرها أبدله اللّه خيرا منها ، وهي الريح تجرى بأمره. فإن قلت : ما معنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي؟ قلت : أحببت : مضمن معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أنبت حب الخير عن ذكر ربى. أو جعلت حب الخير مجزيا أو مغنيا عن ذكر ربى. وذكر أبو الفتح الهمداني في كتاب التنبيان : أن «أحببت» بمعنى : لزمت ، من قوله : مثل بعير السوء إذ أحبّا «2» وليس بذاك. والخير : المال ، كقوله إِنْ تَرَكَ خَيْراً وقوله وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ والمال : الخيل التي شغلته. أو سمى الخيل خيرا كأنها نفس الخير لتعلّق الخير بها. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة «3»» وقال في زيد الخيل حين وفد عليه وأسلم : «ما وصف لي رجل فرأيته إلا كان دون ما بلغني إلا زيد الخيل» «4» وسماه زيد الخير. وسأل رجل بلالا رضى اللّه عنه عن قوم يستبقون : من السابق؟ فقال : رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فقال له الرجل : أردت الخيل. فقال : وأنا أردت الخير «5».

(1). قوله «و عقر ما مقربا للّه» عبارة النسفي : تقربا. (ع)
(2) كيف قربت عمك القرشبا حين أتاك لاغبا مخبا
حلت عليه بالقفيل ضربا تبا لمن بالهون قد ألبا
مثل بعير السوء إذ أحبا
لأبى محمد الفقعسي. والقرشب - بكسر أوله وفتح ثالثه - : المسن ، واللاغب ، من اللغوب : وهو التعب. والمخب من أخبه : إذا حمله على الخبب ، وهو نوع من السير. أو من أخب : إذا لزم المكان كما قيل. وحلت : أى قمت ووثبت عليه. والقفيل : السوط. وضربا : بمعنى ضاربا. أو تضربه ضربا. والتب : الهلاك ، وهو دعاء عليه ، وفعله محذوف وجوبا. والهون - بالضم - : الهوان. وألب بالمكان : أقام به ، ورواه الأصمعى هكذا :
كيف قربت شيخك الأذبا لما أتاك يابسا قرشبا
قمت عليه بالقفيل ضربا مثل بعير السوء إذ أحبا
والذيب : كثرة الشعر وطوله. والأذب : البعير الذي نبت على حاجبيه شعيرات ، فإذا ضربته الريح نفر وماج.
وقال الجوهري : الاخباب : البروك. وهو في الإبل كالحران في الخبل.
(3). متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما.
(4). ذكره ابن إسحاق في المغازي بغير سند ، والبيهقي في الدلائل من طريقه. وذكره ابن سعد عن الواقدي بأسانيد له مقطوعة
(5). أخرجه ابراهيم الحربي من رواية مغيرة عن الشعبي قال «كان رهان. فقال رجل لبلال : من سبق ، قال :
رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. قال : فمن صلى؟ قال : أبو بكر. قال : إنما أعنى في الخيل» قال : وأنا أعنى في الخير»

والتواري بالحجاب : مجاز في غروب الشمس عن توارى الملك. أو المخبأة بحجابهما. والذي دل على أن الضمير للشمس مرور ذكر العشى ، ولا بد للمضمر من جرى ذكر أو دليل ذكر.

وقيل : الضمير للصافنات ، أى : حتى توارت بحجاب الليل يعنى الظلام. ومن بدع التفاسير : أن الحجاب جبل دون قاف بمسيرة سنة تغرب الشمس من ورائه فَطَفِقَ مَسْحاً فجعل يمسح مسحا ، أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ، يعنى : يقطعها. يقال : مسح علاوته ، إذا ضرب عنقه ، ومسح المسفر الكتاب «1» إذا قطع أطرافه بسيفه. وعن الحسن : كسف عراقيبها وضرب أعناقها ، أراد بالكسف : القطع ، ومنه : الكسف في ألقاب الزحاف في العروض. ومن قاله بالشين المعجمة فمصحف. وقيل : مسحها بيده استحسانا لها وإعجابا بها. فإن قلت : بم اتصل قوله رُدُّوها عَلَيَّ؟ قلت : بمحذوف تقديره : قال ردّوها علىّ ، فأضمر وأضمر ما هو جواب له، كأن قائلا قال : فما ذا قال سليمان؟ لأنه موضع مقتض للسؤال اقتضاء ظاهرا ، وهو اشتغال نبىّ من أنبياء اللّه بأمر الدنيا ، حتى تفوته الصلاة عن وقتها. وقرئ : بالسؤق ، بهمز الواو لضمتها ، كما في أدؤر. ونظيره : الغئور ، في مصدر غارت الشمس. وأما من قرأ بالسؤق فقد جعل الضمة في السين كأنها في الواو للتلاصق ، كما قيل : مؤسى : ونظير ساق وسوق : أسد وأسد.

وقرئ : بالساق ، اكتفاء بالواحد عن الجمع ، لأمن الإلباس.

[سورة ص (38) : آية 34]

وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (34)

قيل : فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة. وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته : أنه ولد له ابن ، فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السخرة ، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله ، فعلم ذلك ، فكان يغذوه في السحابة «2» فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتا ، فتنبه على خطئه في أن لم يتوكل فيه على ربه ، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد في سبيل اللّه ، ولم يقل : إن شاء اللّه ، فطاف عليهنّ فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء اللّه ، لجاهدوا في سبيل اللّه فرسانا أجمعون «3» ، فذلك قوله تعالى وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ. وهذا ونحوه مما لا بأس به. وأما ما يروى من حديث الخاتم والشياطين وعبادة الوثن في بيت سليمان ،

(1). قوله «و مسح المسفر الكتاب» الذي في الصحاح : سفرت الكتاب أسفره سفرا. وسفرت المرأة : كشفت عن وجهها. وأسفر الصبح : أى أضاء. وأسفر وجهه حسنا ، أى : أشرق ، فليحرر. (ع)
(2). قوله «فكان يغذوه» في الصحاح : غذوت الصبي باللبن ، أى ربيته به فاغتذى. (ع)
(3). متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه. [.....]

فاللّه أعلم بصحته «1» حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون وهي مدينة في بعض الجزائر ، وأنّ بها ملكا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر ، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بها بجنوده من الجن والإنس ، فقتل ملكها وأصاب بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها ، فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها ، وكانت لا يرقأ دمعها حزنا على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها ، فكستها مثل كسوته وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهنّ في ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد ، فجلس عليه تائبا إلى اللّه متضرّعا ، وكانت له أمّ ولد يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها ، وكان ملكه في خاتمه ، فوضعه عندها يوما وأتاها الشيطان صاحب البحر - وهو الذي دلّ سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس واسمه صخر - على صورة سليمان فقال : يا أمينة خاتمي ، فتختم به وجلس على كرسي سليمان ، وعكفت عليه الطير والجنّ والإنس ، وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين ، فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان فقلنا : ما يدع امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة.

وقيل : بل نفذ حكمه في كل شيء إلا فيهنّ ، ثم طار الشيطان وقذف الخاتم في البحر ، فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان ، فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم ، فتختم به ووقع ساجدا ، ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر «2» فجعله فيها ، وسدّ عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر. وقيل : لما افتتنن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها ، فقال له آصف : إنك لمفتون بذنبك والخاتم لا يقرّ في يدك ، فتب إلى اللّه عز وجل. ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله وقالوا : هذا من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من مثل هذه الأفاعيل. وتسليط اللّه إياهم على عباده حتى يقعوا في تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهنّ: قبيح ، وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع. ألا ترى إلى قوله مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وأما السجود للصورة فلا يظن بنبىّ اللّه أن يأذن فيه ، وإذا كان بغير علمه فلا عليه. وقوله وَأَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ناب عن إفادة معنى إنابة الشيطان منابه نبوّا ظاهرا.

(1). أخرجه النسائي في التفسير من رواية المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وإسناده قوى وأخرجه ابن أبى حاتم من حديث ابن عباس قريبا مما أورده المصنف.
(2). قوله «و جاب صخرة لصخر» أى : خرق أو قطع أفاده الصحاح. (ع)

[سورة ص (38) : آية 35]

قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35)

قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جريا على عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم لا يَنْبَغِي لا يتسهل ولا يكون. ومعنى مِنْ بَعْدِي دوني. فإن قلت : اما يشبه الحسد والحرص على الاستبداد بالنعمة أن يستعطى اللّه ما لا يعطيه غيره؟ قلت : كان سليمان عليه السلام ناشئا في بيت الملك والنبوّة ووارثا لهما ، فأراد أن يطلب من ربه معجزة ، فطلب على حسب ألفه ملكا زائدا على الممالك زيادة خارقة للعادة بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلا على نبوّته قاهرا للمبعوث إليهم ، وأن يكون معجزة حتى يخرق العادات ، فذلك معنى قوله لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي وقيل : كان ملكا عظيما ، فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود اللّه فيه ، كما قالت الملائكة أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ وقيل : ملكا لا أسلبه ولا يقوم غيرى فيه مقامي ، كما سلبته مرّة وأقيم مقامي غيرى. ويجوز أن يقال : علم اللّه فيما اختصه به من ذلك الملك العظيم مصالح في الدين ، وعلم أنه لا يضطلع بأعبائه غيره ، وأوجبت الحكمة استيهابه ، فأمره أن يستوهبه إياه ، فاستوهبه بأمر من اللّه على الصفة التي علم اللّه أنه لا يضبطه عليها إلا هو وحده دون سائر عباده. أو أراد أن يقول ملكا عظيما فقال لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته، كما تقول : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال ، وربما كان للناس أمثال ذلك ، ولكنك تريد تعظيم ما عنده. وعن الحجاج أنه قيل له : إنك حسود ، فقال : أحسد منى من قال هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي وهذا من جرأته على اللّه وشيطنته ، كما حكى عنه : طاعتنا أوجب من طاعة اللّه ، لأنه شرط في طاعته فقال فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وأطلق طاعتنا فقال وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ.

[سورة ص (38) : الآيات 36 إلى 40]

فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (36) وَالشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40)

قرئ : الريح ، والرياح رُخاءً لينة طيبة لا تزعزع. وقيل : طيعة له لا تمتنع عليه حَيْثُ أَصابَ حيث قصد وأراد. حكى الأصمعى عن العرب : أصاب الصواب فأخطأ الجواب. وعن رؤبة أنّ رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما فقال : أين تصيبان؟

فقالا : هذه طلبتنا ورجعا ، ويقال : أصاب اللّه بك خيرا وَالشَّياطِينَ عطف على الريح كُلَّ بَنَّاءٍ بدل من الشياطين وَآخَرِينَ عطف على كل داخل في حكم البدل ، وهو بدل الكل من الكل : كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ، ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ ، وهو أوّل من استخرج الدرّ من البحر ، وكان يقرّن مردة الشياطين بعضهم مع بعض في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد. وعن السدى : كان يجمع أيديهم إلى أعناقهم مغللين في الجوامع «1». والصفد القيد ، وسمى به العطاء لأنه ارتباط للمنعم عليه. ومنه قول علىّ رضى اللّه عنه : من برّك فقد أسرك ، ومن جفاك فقد أطلقك. ومنه قول القائل : غل يدا مطلقها ، وأرقّ رقبة معتقها. وقال حبيب: إنّ العطاء إسار ، وتبعه من قال : ومن وجد الإحسان قيدا تقيّدا «2»

وفرقوا بين الفعلين فقالوا : صفده قيده ، وأصفده أعطاه ، كوعده وأوعده ، أى هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عَطاؤُنا بغير حساب ، يعنى : جما كثيرا لا يكاد يقدر على حسبه وحصره فَامْنُنْ من المنة وهي العطاء ، أى : فأعط منه ما شئت أَوْ أَمْسِكْ مفوّضا إليك التصرف فيه. وفي قراءة ابن مسعود : هذا فامنن أو أمسك عطاؤنا بغير حساب ، أو هذا التسخير عطاؤنا ، فامنن على من شئت من الشياطين بالإطلاق ، وأمسك من شئت منهم في الوثاق بغير حساب ، أى لا حساب عليك في ذلك.

[سورة ص (38) : الآيات 41 إلى 44]

وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44)

(1). قوله «في الجوامع» في الصحاح «الجامعة» : الغل ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق. (ع)
(2) وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا
للمتنبي ، يقول : تركت سير الليل وراء ظهري ، أى : بالغت في تركه لمن قل ماله ، لأنه لا زال يبتغيه ، واكتفيت بنعمتك العظمى ، وشبه الآمال التي امتدت إليه وبلغت مناها ، بأفراس منعلة بالذهب على طريق التصريحية والانعال ترشيح. ويجوز أن ذلك كناية عن عظم النعمة ، واستعار التقييد للمنع عن التطلع لغير الممدوح وقصر المدح عليه.

ويجوز أنه شبه نفسه بحيوان ، والتقييد : تخييل. والذرا - بالفتح - : كل ما ستر الشيء ، يقال : أنا في ظل الجبل وفي ذراه ، أو في ظل فلان وفي ذراه ، أى : في كنفه وحماه ، ومحبة : مفعول لأجله ، وشبه الإحسان بالقيد لأنه سبب استملاك النفس.

أَيُّوبَ عطف بيان. وإِذْ بدل اشتمال منه أَنِّي مَسَّنِيَ بأنى مسنى : حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ، ولو لم يحك لقال بأنه مسه : لأنه غائب. وقرئ بِنُصْبٍ بضم النون وفتحها مع سكون الصاد ، وبفتحهما ، وضمهما ، فالنصب والنصب : كالرشد والرشد ، والنصب : على أصل المصدر ، والنصب : تثقيل نصب ، والمعنى واحد، وهو التعب والمشقة. والعذاب : الألم ، يريد مرضه وما كان يقاسى فيه من أنواع الوصب «1». وقيل : الضرّ في البدن ، والعذاب في ذهاب الأهل والمال فإن قلت : لم نسبه إلى الشيطان ، ولا يجوز أن يسلطه اللّه على أنبيائه ليقضى من إتعابهم وتعذيبهم وطره ، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرّر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟ قلت : لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه اللّه به من النصب والعذاب ، نسبه إليه ، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى اللّه في دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو. وقيل : أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء ، ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى اللّه تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء ، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل. وروى أنه كان يعوده ثلاثة من المؤمنين ، فارتدّ أحدهم ، فسأل عنه فقيل ألقى إليه الشيطان : إن اللّه لا يبتلى الأنبياء والصالحين ، وذكر في سبب بلائه أنّ رجلا استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل : كانت مواشيه في ناحية ملك كافر ، فداهنه ولم يغزه. وقيل : أعجب بكثرة ماله ارْكُضْ بِرِجْلِكَ حكاية ما أجيب به أيوب ، أى : اضرب برجلك الأرض. وعن قتادة : هي أرض الجابية «2» فضربها ، فنبعت عين فقيل هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ أى هذا ماء تغتسل به وتشرب منه ، فيبرأ باطنك وظاهرك ، وتنقلب مآبك قلبة «3».

وقيل : نبعت له عينان ، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن اللّه ، وقيل : ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ، ثم باليسرى فنبعت باردة فشرب منها رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى مفعول لهما. والمعنى : أنّ الهبة كانت للرحمة له ولتذكير أولى الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه لصبره ،

(1). قوله «من أنواع الوصب» في الصحاح «الوصب» : المرض. (ع)
(2). قوله «هي أرض الجابية» مدينة بالشام كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و تنقلب ما بك قلبة» في الصحاح «القلاب» داء يأخذ البعير. وقولهم : ما به قلبة ، أى : ليست به علة. (ع)

رغبهم في الصبر على البلاء وعاقبة الصابرين وما يفعل اللّه بهم وَخُذْ معطوف على اركض. والضغث : الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك. وعن ابن عباس : قبضة من الشجر ، كان حلف في مرضه ليضربنّ امرأته مائة إذا برأ ، فحلل اللّه يمينه بأهون شيء عليه وعليها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وهذه الرخصة باقية. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه أتى بمخدج «1» قد خبث بأمة ، فقال : «خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها ضربة» «2» ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة ، إمّا أطرافها قائمة ، وإما أعراضها مبسوطة مع وجود صورة الضرب ، وكان السبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة فحرج صدره ، وقيل : باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب إذا قام. وقيل : قال لها الشيطان اسجدي لي سجدة فأردّ عليكم ما لكم وأولادكم ، فهمت بذلك فأدركتها العصمة ، فذكرت ذلك له ، فحلف. وقيل : أوهمها الشيطان أن أيوب إذا شرب الخمر برأ ، فعرضت له بذلك. وقيل : سألته أن يقرب للشيطان بعناق وَجَدْناهُ صابِراً علمناه صابرا. فإن قلت : كيف وجده صابرا وقد شكا إليه ما به واسترحمه؟ قلت : الشكوى إلى اللّه عز وعلا لا تسمى جزعا ، ولقد قال يعقوب عليه السلام : نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وكذلك شكوى العليل إلى الطبيب ، وذلك أن أصبر الناس على البلاء لا يخلو من تمنى العافية وطلبها ، فإذا صحّ أن يسمى صابرا مع تمنى العافية وطلب الشفاء ، فليسم صابرا مع اللجإ إلى اللّه تعالى ، والدعاء بكشف ما به ومع التعالج ومشاورة الأطباء ، على أن أيوب عليه السلام كان يطلب الشفاء خيفة على قومه من الفتنة.

حيث كان الشيطان بوسوس إليهم كما كان يوسوس اليه أنه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به ، وإرادة القوة على الطاعة ، فقد بلغ أمره إلى أن لم يبق منه إلا القلب واللسان. ويروى أنه قال في مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصرى ، ولم يهبني ما ملكت يمينى ، «3» ولم آكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان ، فكشف اللّه عنه.

(1). قوله «إنه أتى بمخدج» الخداج : النقصان ، وأخدجت الناقة : إذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة فهي مخدج ، والولد مخدج ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). أخرجه النسائي وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة والبزار والطبراني من رواية أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن عبادة. قال «كان بين أبياتنا رجل ضعيف مخدج ، فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمائهم يخبث بها - الحديث» قال البزار : لم يرد إلا هذا ،

(3). قوله «و لم يهبني ما ملكت يميني» أى لم ينشطنى ولم يهيجني ، من هبت الريح : أى هاجت ، وهب البعير : أى نشط ، كما في الصحاح. (ع)

[سورة ص (38) : الآيات 38 إلى 47]

وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (38) هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (40) وَاذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَعَذابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ (42) وَوَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ(47)

إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ عطف بيان لعبادنا. ومن قرأ : عبدنا ، جعل إبراهيم وحده عطف بيان له ، ثم عطف ذريته على عبدنا ، وهي إسحاق ويعقوب ، كقراءة ابن عباس : وإله أبيك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدى غلبت ، فقيل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم ، وإن كان عملا لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدى. أو كان العمال جذما لا أيدي لهم ، وعلى ذلك ورد قوله عز وعلا أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصارِ يريد: أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون في اللّه ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ولا يستبصرون في حكم الزمنى الذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال اللّه ، ولا من المستبصرين في دين اللّه ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكنين منهما. وقرئ : أولى الأيادى ، على جمع الجمع. وفي قراءة ابن مسعود : أولى الأيد ، على طرح الياء والاكتفاء بالكسرة. وتفسيره بالأيد - من التأييد - : قلق غير متمكن أَخْلَصْناهُمْ جعلناهم خالصين بِخالِصَةٍ بخصلة خالصة لا شوب فيها ، ثم فسرها بذكرى الدار ، شهادة لذكرى الدار بالخلوص والصفاء وانتفاء الكدورة عنها. وقرئ على الإضافة. والمعنى : بما خلص من ذكرى الدار ، على أنهم لا يشوبون ذكرى الدار بهمّ آخر ، إنما همهم ذكرى الدار لا غير. ومعنى ذِكْرَى الدَّارِ : ذكراهم الآخرة دائبا ، ونسيانهم اليها ذكر الدنيا. أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها ، وتزهيدهم في الدنيا ، كما هو شأن الأنبياء وديدنهم. وقيل. ذكرى الدار. الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم. فإن قلت : ما معنى أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ؟ قلت : معناه : أخلصناهم بسبب هذه الخصلة ، وبأنهم من أهلها. أو أخلصناهم بتوفيقهم لها ، واللطف بهم في اختيارها.

وتعضد الأوّل قراءة من قرأ : بخالصتهم الْمُصْطَفَيْنَ المختارين من أبناء جنسهم. والْأَخْيارِ جمع خير ، أو خير ، على التخفيف ، كالأموات في جمع ميت أو ميت.

[سورة ص (38) : آية 48]

وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (48)

وَالْيَسَعَ كأن حرف التعريف دخل على يسع. وقرئ : واللّيسع ، كأن حرف التعريف دخل على ليسع ، فيعل من اللسع. والتنوين في وَكُلٌّ عوض من المضاف اليه ، معناه : وكلهم من الأخيار.

[سورة ص (38) : الآيات 49 إلى 52]

هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (50) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرابٍ (51) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (52)

هذا ذِكْرٌ أى : هذا نوع من الذكر وهو القرآن ، لما أجرى ذكر الأنبياء وأتمه ، وهو باب من أبواب التنزيل ، ونوع من أنواعه ، وأراد أن يذكر على عقبه بابا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، «1» قال : هذا ذكر ، ثم قال وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع في باب آخر ، ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع في آخر : هذا وقد كان كيت وكيت ، والدليل عليه : أنه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار. قال : هذا وإن للطاغين. وقيل : معناه هذا شرف وذكر جميل يذكرون به أبدا. وعن ابن

أو كلاهما خبر مبتدإ محذوف ، أى : هو جنات عدن هي مفتحة لهم ، كأن اللدات سمين أترابا ، لأن التراب مسهن في وقت واحد ، وانما جعلن على سنّ واحدة ، لأن التحاب بين الأقران أثبت. وقيل : هنّ أتراب لأزواجهن ، أسنانهنّ كأسنانهم :

[سورة ص (38) : الآيات 53 إلى 54]

هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (53) إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (54)

قرئ : يوعدون ، بالتاء والياء لِيَوْمِ الْحِسابِ لأجل يوم الحساب ، كما تقول : هذا ما تدخرونه ليوم الحساب ، أى: ليوم تجزى كل نفس ما عملت.

(1). قال محمود : «إنما قال : هذا ذكر ليذكر عقبه ذكرا آخر ، وهو ذكر الجنة وأهلها ، كما يقول الجاحظ في كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع في باب آخر» قال أحمد : وكما ما يقول الفقيه إذا ذكر أدلة المسألة عند تمام الدليل الأول : هذا دليل ثان كذا وكذا إلى آخر ما في نفسه ، ويدل عليه أنه عند انقضاء ذكر أهل الجنة قال : هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ فذكر أهل النار.

[سورة ص (38) : الآيات 55 إلى 61]

هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (56) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (58) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (59) قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (60) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (61)

هذا أى الأمر هذا : أو هذا كما ذكر فَبِئْسَ الْمِهادُ كقوله لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم ، أى : هذا حميم فليذوقوه. أو العذاب هذا فليذوقوه ، ثم ابتدأ فقال : هو حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ أو : هذا فليذوقوه بمنزلة وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ أى ليذوقوا هذا فليذوقوه ، والغساق - بالتخفيف والتشديد - : ما يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت العين ، إذا سال دمعها. وقيل : الحميم يحرق بحرّه ، والغساق يحرق ببرده. وقيل : لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتنت أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتنت أهل المشرق. وعن الحسن رضى الله عنه. الغساق : عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى.

إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثوابا في قوله فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة وَآخَرُ ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق من مثله في الشدة والفظاعة أَزْواجٌ أجناس. وقرئ : وآخر ، أى : وعذاب آخر. أو مذوق آخر.

وأزواج : صفة لآخر ، لأنه يجوز أن يكون ضروبا. أو صفة للثلاثة وهي حميم وغساق وآخر من شكله. وقرئ: من شكله ، بالكسر «1» وهي لغة. وأما الغنج «2» فبالكسر لا غير هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، أى دخل النار في صحبتكم وقرانكم ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها. والقحمة : الشدة. وهذه حكاية كلام الطاغين بعضهم مع بعض ، أى : يقولون هذا. والمراد بالفوج : أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة ، فيقتحمون معهم العذاب لا مَرْحَباً بِهِمْ دعاء منهم على أتباعهم. تقول لمن تدعو له: مرحبا ، أى : أتيت رحبا من البلاد لا ضيقا : أو رحبت بلادك رحبا ، ثم تدخل عليه «لا» في دعاء السوء.

(1). قوله وقرئ «من شكله بالكسر وهي لغة» أى في الشكل بمعنى المثل. (ع)
(2). «و أما الغنج فبالكسر لا غير» في الصحاح : الغنج والغنج : الشكل ، وقد غنجت الجارية وتغنجت ، فهي غنجة. وفيه : الشكل - بالفتح - : المثل ، وبالكسر : الدل ، يقال : امرأة ذات شكل. (ع)

وبِهِمْ بيان للمدعو عليهم إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ تعليل لاستيجابهم للدعاء عليهم. ونحوه قوله تعالى كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها وقيل : هذا فوج مقتحم معكم : كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم. ولا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا

فإن قلت : فالذي جعل قوله لا مَرْحَباً بِهِمْ من كلام الخزنة ما يصنع بقوله بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ والمخاطبون - أعنى رؤساءهم - لم يتكلموا بما يكون هذا جوابا لهم؟ قلت : كأنه قيل : هذا الذي دعا به علينا الخزنة أنتم يا رؤساء أحق به منا لإغوائكم إيانا ونسببكم فيما نحن فيه من العذاب ، وهذا صحيح كما لو زين قوم لقوم بعض المساوى فارتكبوه فقيل للمزينين : أخزى الله هؤلاء ما أسوأ فعلهم؟ فقال المزين لهم للمزينين : بل أنتم أولى بالخزي منا ، فلولا أنتم لم نرتكب ذلك قالُوا هم الأتباع أيضا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً أى مضاعفا ، ومعناه : ذا ضعف: ونحوه قوله تعالى رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً وهو أن يزيد على عذابه مثله فيصير ضعفين ، كقوله عز وجل رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ «1» وجاء في التفسير عَذاباً ضِعْفاً : حيات وأفاعى «2».

[سورة ص (38) : الآيات 62 إلى 63]

وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (62) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (63)

وَقالُوا الضمير للطاغين رِجالًا يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه لهم مِنَ الْأَشْرارِ من الأراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى ، ولأنهم كانوا على خلاف دينهم ، فكانوا عندهم أشرارا أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة لرجالا ،

(1). قوله تعالى قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً وقال في موضع آخر آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً والقصة واحدة. قال أحمد : وفيه دليل على أن الضعفين اثنان من شيء واحد ، خلافا لمن قال غير ذلك ، لأنه في موضع قال فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً والمراد : مثل عذابه ، فيكونا عذابين. وقال في موضعين ضِعْفَيْنِ والمراد : ذا عذابين. [.....]
(2). قوله «و جاء في التفسير ... الخ» عبارة الخازن : قال ابن عباس : حيات وأفاعى (ع)

مثل قوله كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ وبهمزة الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها «1» في الاستسخار منهم.

وقوله أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ له وجهان من الاتصال ، أحدهما : أن يتصل بقوله ما لَنا أى : مالنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها بل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها : قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة ، وبين أن يكونوا من أهل النار. إلا أنه خفى عليهم مكانهم.

والوجه الثاني : أن يتصل باتخذناهم سخريا ، إما أن تكون أم متصلة على معنى : أى الفعلين فعلنا بهم الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعا على أنفسهم ، وعن الحسن : كل ذلك قد فعلوا ، اتخذوهم سخريا وزاغت عنهم أبصارهم محقرة لهم. وإما أن تكون منقطعة بعد مضى اتخذناهم سخريا على الخبر أو الاستفهام ، كقولك : إنها إبل أم شاء ، وأزيد عندك أم عندك عمرو : ولك أن تقدّر همزة الاستفهام محذوفة فيمن قرأ بغير همزته ، لأنّ «أم» تدل عليها ، فلا تفترق القراءتان : إثبات همزة الاستفهام وحذفها. وقيل : الضمير في وَقالُوا لصناديد قريش كأبى جهل والوليد وأضرابهما ، والرجال : عمار وصهيب وبلال وأشباههم. وقرئ : سخريا ، بالضم والكسر.

[سورة ص (38) : آية 64]

إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64)

إِنَّ ذلِكَ أى الذي حكينا عنهم لَحَقٌّ لا بد أن يتكلموا به ، ثم بين ما هو فقال هو تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ وقرئ بالنصب على أنه صفة لذلك ، لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس. فإن قلت : لم سمى ذلك تخاصما؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك «2» ولأنّ قول

[سورة ص (38) : الآيات 65 إلى 66]

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66)

(1). قوله «و تأنيب لها» أى : تعنيف ولوم. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «إن قلت لم سمي ذلك تخاصما؟ قلت : شبه تقاولهم وما يجرى بينهم من السؤال والجواب بما يجرى بين المتخاصمين من نحو ذلك ، ولأن قول الرؤساء : لا مرحبا بهم ، وقول أتباعهم : بل أنتم لا مرحبا بكم ، من باب الخصومة» قال أحمد : هذا يحقق أن ما تقدم من قوله لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ من قول المتكبرين الكفار ، وقوله تعالى بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ من قول الأتباع ، فالخصومة على هذا التأويل حصلت من الجهتين ، فيتحقق التخاصم ، خلافا لمن قال : إن الأول من كلام خزنة جهنم ، والثاني : من كلام الأتباع ، فانه على هذا التقدير إنما تكون الخصومة من أحد الفريقين فالتفسير الأول أمكن وأثبت.

قُلْ يا محمد لمشركي مكة : ما أنا إلا رسول مُنْذِرٌ أنذركم عذاب اللّه للمشركين ، وأقول لكم : إنّ دين الحق توحيد اللّه ، وأن يعتقد أن لا إله إلا اللّه الْواحِدُ بلا ندّ ولا شريك الْقَهَّارُ لكل شيء ، وأنّ الملك والربوبية له في العالم كله وهو الْعَزِيزُ الذي لا يغلب إذا عاقب العصاة ، وهو مع ذلك الْغَفَّارُ لذنوب من التجأ إليه. أو قل لهم ما أنا إلا منذر لكم ما أعلم ، وأنا أنذركم عقوبة من هذه صفته ، فإنّ مثله حقيق بأن يخاف عقابه كما هو حقيق بأن يرجى ثوابه.

[سورة ص (38) : الآيات 67 إلى 70]

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (70)

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أى هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولا منذرا وأن اللّه واحد لا شريك له : نبأ عظيم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة. ثم احتج لصحة نبوّته بأنّ ما ينبئ به عن الملإ الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط ، ثم علمه ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ من أهل العلم وقراءة الكتب ، فعلم أنّ ذلك لم يحصل إلا بالوحي من اللّه إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ أى لأنما أنا نذير. ومعناه : ما يوحى إلىّ إلا للإنذار ، فحذف اللام وانتصب بإفضاء الفعل إليه. ويجوز أن يرتفع على معنى : ما يوحى إلىّ إلا هذا ، وهو أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك ، أى ما أو مر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس إلىّ غير ذلك. وقرئ إنما بالكسر على الحكاية ، أى : إلا هذا القول ، وهو أن أقول لكم : إنما أنا نذير مبين ولا أدعى شيئا آخر. وقيل : النبأ العظيم : قصص آدم عليه السلام والإنباء به من غير سماع من أحد. وعن ابن عباس : القرآن. وعن الحسن : يوم القيامة. فإن قلت : بم يتعلق إِذْ يَخْتَصِمُونَ؟ قلت : بمحذوف ، لأن المعنى : ما كان لي من علم بكلام الملإ الأعلى وقت اختصامهم ، وإِذْ قالَ بدل من إِذْ يَخْتَصِمُونَ. فإن قلت : ما المراد بالملإ الأعلى؟ قلت : أصحاب القصة الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا في السماء وكان التقاول بينهم : فإن قلت : ما كان التقاول بينهم إنما كان بين اللّه تعالى وبينهم ، لأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي قال لهم وقالوا له ، فأنت بين أمرين : إما أن تقول الملأ الأعلى هؤلاء ، وكان التقاول بينهم ولم يكن التفاؤل بينهم وإما أن تقول : التقاول كان بين اللّه وبينهم ، فقد جعلته من الملإ الأعلى. قلت : كانت مقاولة اللّه سبحانه بواسطة ملك ، فكان المقاول في الحقيقة هو الملك المتوسط ، فصح أن التقاول كان بين الملائكة وآدم وإبليس ، وهم الملأ الأعلى. والمراد بالاختصام : التقاول على ما سبق.

[سورة ص (38) : الآيات 71 إلى 74]

إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ (71) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ (74)

فإن قلت : كيف صح أن يقول لهم إِنِّي خالِقٌ بَشَراً وما عرفوا ما البشر ولا عهدوا به قبل؟ قلت : وجهه أن يكون قد قال لهم : إني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ، ولكنه حين حكاه اقتصر على الاسم فَإِذا سَوَّيْتُهُ فإذا أتممت خلقه وعدلته وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وأحييته وجعلته حساسا متنفسا فَقَعُوا فخروا ، كل : للإحاطة. وأجمعون : للاجتماع ، فأفادا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا في وقت واحد

[سورة ص (38) : الآيات 75 إلى 76]

قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ (75) قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76)

فإن قلت : ما وجه قوله خَلَقْتُ بِيَدَيَّ : قلت : قد سبق لنا أنّ ذا اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه ، فغلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب : هو مما عملت يداك ، وحتى قيل ممن لا يدي له : يداك أوكتا «1» وفوك نفخ ، وحتى لم يبق فرق بين قولك : هذا مما عملته ، وهذا مما عملته يداك. ومنه قوله تعالى مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا ولِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.

(1). قوله «يداك أوكتا» في الصحاح : أوكى على ما في سقائه : إذا شده بالوكاء. (ع)

فإن قلت : فما معنى قوله ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ؟ قلت : الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم ، واستنكف منه أنه سجود لمخلوق ، فذهب بنفسه ، وتكبر أن يكون سجوده لغير الخالق ، وانضم إلى ذلك أنّ آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار. ورأى للنار فضلا على الطين فاستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب ، وزلّ عنه أنّ الله سبحانه حين أمر به أعزّ عباده عليه «1» وأقربهم منه زلفى وهم الملائكة ، وهم أحق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التواضع للبشر الضئيل ، ويستنكفوا من السجود له من غيرهم ، ثم لم يفعلوا وتبعوا امر الله وجعلوه قدّام أعينهم ، ولم يلتفتوا إلى التفاوت بين الساجد والمسجود له ، تعظيما لأمر ربهم وإجلالا لخطابه : كان هو مع انحطاطه عن مراتبهم حرى بأن يقتدى بهم ويقتفى أثرهم ، ويعلم أنهم في السجود لمن هو دونهم بأمر الله ، أو غل في عبادته منهم في السجود له ، لما فيه من طرح الكبرياء وخفض الجناح ، فقيل له : ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدىّ ، أى : ما منعك من السجود لشيء هو كما تقول مخلوق خلقته بيدي - لا شكّ في كونه مخلوقا - امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له ما تركه من السجود مع ذكر العلة التي تشبث بها في تركه ، وقيل له : لم تركته مع وجود هذه العلة ، وقد أمرك الله به ، يعنى : كان عليك أن تعتبر أمر الله ولا تعتبر هذه العلة ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع اعتبارا لسقوطه ، فيقول له : ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علىّ سقوطه «2» ، يريد : هلا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه ،

(1). قوله «حين أمر به أعز عباده» مبنى على مذهب المعتزلة : أن الملك أفضل من البشر. وعند أهل السنة : البشر أفضل من الملك. (ع)

(2). قال محمود : «لما كان ذو اليدين يباشر أكثر أعماله بيديه : غلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بغير اليدين ، حتى قيل في عمل القلب : هذا مما عملت يداك. قال ومعناه أن الوجه الذي استنكر له إبليس السجود لآدم واستنكف بسببه : أنه سجود لمخلوق ، مع أنه دون الساجد ، لأن آدم من طين ، وإبليس من نار ، فرأى للنار فضلا على الطين ، وزل عنه أن الله سبحانه حين أمر أعز عباده عليه وأقربهم منه وهم الملائكة أن يسجدوا لهذا البشر :

لم يمتنعوا ولم يذهبوا بأنفسهم إلى التكبر ، مع انحطاطه عن مراتبهم ، فقيل له : ما منعك أن تسجد لهذا الذي هو مخلوق بيدي كما وقع لك ، مع أنه لا شك أن في ذلك امتثالا لأمرى وإعظاما لخطابى كما فعلت الملائكة ، فذكر له العلة التي منعته من السجود ، وقيل له : ما حملك على اعتبار هذه العلة دون اعتبار أمرى ، ومثاله : أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم ، فيمتنع اعتبارا لسقوطه. فيقول له : ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى على سقوطه ، يريد : علا اعتبرت أمرى وخطابي وتركت اعتبار سقوطه ، انتهى المقصود من الآية بعد تطويل وإطناب وإكثار وإسهاب. قال أحمد : إنما أطال القول هنا ليفر من معتقدين لأهل السنة تشتمل عليهما هذه الآية :

أحدهما : أن اليدين من صفات الذات أثبتهما السمع ، هذا مذهب أبى الحسن والقاضي ، بعد إبطالهما حمل اليدين على القدرة ، فان قدرة الله تعالى واحدة ، واليدان مذكورتان بصيغة التثنية ، وأبطلا حملهما على النعمة بأن نعم الله لا تحصى ، فكيف تحصر بالتثنية. وغيرهما من أهل السنة كامام الحرمين وغيره يجوز حملهما على القدرة والنعمة ، ويجيب عما ذكراه بأن المراد نعمة الدنيا والآخرة ، وهذا مما يحقق تفضيله على إبليس ، إذ لم يخلق إبليس لنعمة الآخرة ، وعلى أن المراد القدرة ، فالتثنية تعظيم ، ومثل ذلك يوجد في اللغة كثيرا. المعتقد الثاني : أن النبي أفضل من الملك ، والزمخشري شديد العصبية في هذه المسألة والإنكار على من قال بذلك من أهل السنة ، لا جرم أنه أجرم في بسط كلامه على آدم عليه السلام ، فمثل قصته في انحطاط مرتبته على زعمه عن مرتبة الملائكة بقول الملك لوزيره.

زر بعض سقاط الحشم ، فجعل سقاط حشم الملك مثالا لآدم الذي هو عنصر الأنبياء عليهم السلام ، وأقام لإبليس عذره وصوب اعتقاده. أنه أفضل من آدم لكونه من نار وآدم من طين ، وإنما غلطه من جهة أخرى. وهو أنه لم يقس نفسه على الملائكة إذ سجدوا له ، على علمهم أنه بالنسبة إليهم محطوط الرتبة ساقط المنزلة ، وجعل قوله تعالى لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ إنما ذكر تقريرا للعلة التي منعت إبليس من السجود ، وهو كونه دونه ، وهذا - نسأل اللّه العصمة - المراد منه ضد ما فهم الزمخشري ، وإنما ذكر ذلك تعظيما لمعصية إبليس ، إذ امتنع من تعظيم من عظمه اللّه إذ خلقه بيده ، وذلك تعظيم لآدم لا تحقير منه. ويدل عليه الحديث الوارد في الشفاعة ، إذ يقول له الناس عند ما يقصدونه فيها : أنت آدم أبو البشر خلقك اللّه بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ، فإنما يذكرون ذلك في سياق تعديد كراماته وخصائصه ، لا فيما يحط منه ، معاذ اللّه وإياه نسأل أن يعصمنا من مهاوي الهوى ومهالكه ، وأن يرشدنا إلى سبيل الحق ومسالكه ، إنه ولى التوفيق ، وبالاجابة حقيق.

وفيه : أنى خلقته بيدي ، فأنا أعلم بحاله ، ومع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمة دعاني إليه : من إنعام عليه بالتكرمة السنية وابتلاء للملائكة ، فمن أنت حتى يصرفك عن السجود له ، ما لم يصرفني عن الأمر بالسجود له. وقيل : معنى لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ لما خلقت بغير واسطة. وقرئ : بيدىّ ، كما قرئ : بمصرخىّ. وقرئ: بيدي ، على التوحيد مِنَ الْعالِينَ ممن علوت وفقت ، فأجاب بأنه من العالين حيث قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ وقيل : استكبرت الآن ، أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين. ومعنى الهمزة : التقرير.

وقرئ : استكبرت بحذف حرف الاستفهام ، لأنّ أم تدل عليه. أو بمعنى الإخبار. هذا على سبيل الأولى ، أى : لو كان مخلوقا من نار لما سجدت له ، لأنه مخلوق مثلي ، فكيف أسجد لمن هو دوني لأنه من طين والنار تغلب الطين وتأكله ، وقد جرت الجملة الثانية من الأولى وهي خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان والإيضاح.

[سورة ص (38) : الآيات 77 إلى 78]

قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ (78)

مِنْها من الجنة ، وقيل : من السماوات. وقيل : من الخلقة التي أنت فيها ، لأنه كان يفتخر بخلقته فغير اللّه خلقته، فاسودّ بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا ، وأظلم بعد ما كان نورانيا. والرجيم : المرجوم. ومعناه : المطرود ، كما قيل له : المدحور والملعون ، لأنّ من طرد رمى بالحجارة على أثره. والرجم : الرمي بالحجارة. أو لأنّ الشياطين يرجمون بالشهب.

فإن قلت : قوله لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ كأن لعنة إبليس غايتها يوم الدين ثم تنقطع؟ قلت : كيف تنقطع وقد قال اللّه تعالى فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ولكن المعنى : أن عليه اللعنة في الدنيا ، فإذا كان يوم الدين اقترن له باللعنة ما ينسى عنده اللعنة ، فكأنها انقطعت.

[سورة ص (38) : الآيات 79 إلى 81]

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81)

فإن قلت : ما الوقت المعلوم الذي أضيف إليه اليوم؟ قلت : الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى. ويومه : اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه. ومعنى المعلوم : أنه معلوم عند اللّه معين ، لا يستقدم ولا يستأخر.

[سورة ص (38) : الآيات 82 إلى 83]
قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)

فَبِعِزَّتِكَ إقسام بعزة اللّه تعالى وهي سلطانه وقهره.

[سورة ص (38) : الآيات 84 إلى 85]

قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85)

قرئ : فالحق والحق ، منصوبين على أن الأول مقسم به كاللّه في إن عليك اللّه أن تبايعا.

وجوابه لَأَمْلَأَنَّ والحق أقول : اعتراض بين المقسم به والمقسم عليه ، ومعناه : ولا أقول إلا الحق. والمراد بالحق : إمّا اسمه عزّ وعلا الذي في قوله أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ أو الحق الذي هو نقيض الباطل : عظمه اللّه بإقسامه به. ومرفوعين على أن الأوّل مبتدأ محذوف الخبر ، كقوله لَعَمْرُكَ أى : فالحق قسمي لأملأنّ. والحق أقول ، أى : أقوله كقوله كله لم أصنع ، ومجرورين : على أن الأوّل مقسم به قد أضمر حرف قسمه ، كقولك : اللّه لأفعلنّ.

والحق أقول ، أى : ولا أقول إلا الحق على حكاية لفظ المقسم به. ومعناه : التوكيد والتشديد.

وهذا الوجه جائز في المنصوب والمرفوع أيضا. وهو وجه دقيق حسن. وقرئ برفع الأوّل وجرّه مع نصب الثاني ، وتخريجه على ما ذكرنا مِنْكَ من جنسك وهم الشياطين وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ من ذرّية آدم. فإن قلت : أَجْمَعِينَ تأكيد لما ذا؟ قلت : لا يخلو أن يؤكد به الضمير في منهم ، أو الكاف في منك مع من تبعك. ومعناه : لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين ، لا أترك منهم أحدا. أو لأملأنها من الشياطين وممن تبعهم من جميع الناس ، لا تفاوت في ذلك بين ناس وناس بعد وجود الأتباع منهم من أولاد الأنبياء وغيرهم.

[سورة ص (38) : الآيات 86 إلى 88]

قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ(88)

عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ الضمير للقرآن أو للوحى وَما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ من الذين يتصنعون ويتحلون بما ليسوا من أهله ، وما عرفتمونى قط متصنعا ولا مدّعيا ما ليس عندي ، حتى أنتحل النبوّة وأتقوّل القرآن إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ من اللّه لِلْعالَمِينَ للثقلين. أوحى إلىّ فأنا أبلغه. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم : «للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم «1»» وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ أى ما يأتيكم عند الموت، أو يوم القيامة ، أو عند ظهور الإسلام وفشوه ، من صحة خبره ، وأنه الحق والصدق. وفيه تهديد.
عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره اللّه لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير» «2».

(1). أخرجه الثعلبي من طريق محمد بن عون حدثنا محمد بن المصلى حدثنا حيوة بن شريح عن أرطاة بن المنذر عن ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل مرفوعا به. ورواه البيهقي في الشعب في الثالث والثلاثين من رواية بقية عن أرطاة قوله ورواه أبو نعيم عن وهب بن منبه قوله.
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى رضى اللّه عنه.

سورة الزمر

مكية ، إلا قوله قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ... الآية وتسمى سورة الغرف وهي خمس وسبعون آية. وقيل ثنتان وسبعون آية [نزلت بعد سورة سبإ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزمر (39) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (2) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (4)

تَنْزِيلُ الْكِتابِ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف. أو خبر مبتدإ محذوف والجار صلة التنزيل ، كما تقول : نزل من عند اللّه. أو غير صلة ، كقولك : هذا الكتاب من فلان إلى فلان ، فهو على هذا خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : هذا تنزيل الكتاب ، هذا من اللّه ، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة ، وبالنصب على إضمار فعل ، نحو : اقرأ ، والزم. فإن قلت : ما المراد بالكتاب؟ قلت : الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن ، وعلى الثاني : أنه السورة مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ممحضا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر. وقرئ : الدين ، بالرفع. وحق من رفعه أن يقرأ مخلصا - بفتح اللام - كقوله تعالى وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ حتى يطابق قوله أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ والخالص والمخلص : واحد ، إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازى ، كقولهم : شعر شاعر. وأما من جعل مُخْلِصاً حالا من العابد ، ولَهُ الدِّينَ مبتدأ وخبرا ، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك : للّه الدين أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ أى : هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر ، لاطلاعه على الغيوب والأسرار ، ولأنه الحقيق بذلك ، لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها. وعن قتادة : الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا اللّه. وعن الحسن : الإسلام وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا يحتمل المتخذين وهم الكفرة ، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى : عن ابن عباس رضى اللّه عنهما ، فالضمير في اتَّخَذُوا على الأوّل راجع إلى الذين ، وعلى الثاني إلى المشركين ، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوما ، والراجع إلى الذين محذوف والمعنى : والذين اتخذهم المشركون أولياء ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا في موضع الرفع على الابتداء. فإن قلت : فالخبر ما هو؟ قلت : هو على الأوّل إما إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ أو ما أضمر من القول قبل قوله ما نَعْبُدُهُمْ. وعلى الثاني : أن اللّه يحكم بينهم. فإن قلت : فإذا كان إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ الخبر ، فما موضع القول المضمر؟ قلت : يجوز أن يكون في موضع الحال ، أى : قائلين ذلك. ويجوز أن يكون بدلا من الصلة فلا يكون له محل ، كما أنّ المبدل منه كذلك. وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا ما نَعْبُدُهُمْ وفي قراءة أبىّ : ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب ، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم. وقرئ : نعبدهم ، بضم النون اتباعا للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر ، والتنوين في عَذابٍ ارْكُضْ والضمير في بَيْنَهُمْ لهم ولأوليائهم. والمعنى : أن اللّه يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون اللّه يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم ، واختلافهم : أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون ، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم ، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى اللّه زلفى.

وقيل : كان المسلمون إذا قالوا لهم : من خلق السماوات والأرض ، أقروا وقالوا : اللّه ، فإذا قالوا لهم : فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى ، فالضمير في بَيْنَهُمْ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى : أن اللّه يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين.

والمراد بمنع الهداية : منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا لطف لهم ، وأنهم في علم اللّه من الهالكين «1». وقرئ: كذاب وكذوب. وكذبهم : قولهم في بعض من اتخذوا من دون اللّه أولياء : بنات اللّه ، ولذلك عقبه محتجا عليهم بقوله لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ.

(1). قال محمود : «المراد بمنع الهدآية منع اللطف تسجيلا عليهم بأن لا يلطف بهم ، وأنه في علمه من الهالكين» قال أحمد : مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر ، فان معتقدهم أن معنى هداية اللّه تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه ، ومعنى إضلاله

يعنى : لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح ، لكونه محالا ، ولم يتأت إلا أن يصطفى من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم ، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم ، فزعمتم أنهم أولاده ، جهلا منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض ، كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة ، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادا، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات ، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء «1» على اللّه وملائكته ، غالبين «2» في الكفر ، ثم قال سُبْحانَهُ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافيه ، وهو أنه واحد ، فلا يجوز أن يكون له صاحبة ، لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له : وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد ، وهو معنى قوله أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ. وقهار غلاب لكل شيء ، ومن الأشياء آلهتهم ، فهو يغلبهم ، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟

[سورة الزمر (39) : آية 5]

خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (5)

ثم دلّ بخلق السماوات والأرض ، وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر ، وتسخير النيرين ، وجريهما لأجل مسمى ، وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة ، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك ، قهار لا يغالب. والتكوير : اللف واللىّ ، يقال : كار العمامة على رأسه وكوّرها. وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا ، وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه والف عليه كما يلف اللباس على اللابس. ومنه قول ذى الرمة في وصف السراب : تلوى الثّنايا بأحقيها حواشيه لىّ الملاء بأبواب التّفاريج «3»

(1). قوله «متبالغين في الافتراء» لعله : مبالغين. (ع)
(2). قوله «غالبين في الكفر» لعله : غالين. (ع)
(3) وراكد الشمس أجاج نصب له قواضب القوم بالمهرية العوج
إذا تنازع حالا مجهل قذف أطراف مطره بالخز منسوج
تلوى الثنايا بحقويها حواشيه لي الملاء بأبواب التفاريج
كأنه والرهاة الموت يركضه أعراف أزهر تحت الريخ منتوج
لذي الرمة يصف السراب. وراكد الشمس : ما يتساقط منها على الأرض. والأجاج : صفة مبالغة ، أى : كثير الأجيج ، يقال : أجت النار أجيجا : اشتعلت ، والحر : اشتد. وأج الظليم أجا : أسرع وله حفيف. وأج الأمر : اختلط. والأج : طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام. ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير ، فيجوز أنه من الأولين. ويجوز أنه منسوب للأخير ، لأنه يشبهه ، وللام للتوقيت ، وللقواضب : السيوف النواطع.
والمهرية : الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبى قبيلة من اليمن ، خيلها أنجب الخيل. والعوج : جمع عوجاء نوع جيد منها أيضا. والحالان : ارتفاع الأرض وانخفاضها. والمجهل : الموضع الذي يجهله المسافر. والقذف - كسبب - : الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه. والمطرد : السراب المستوى ، شبه بالخز المنسوج في الاستواء والبياض. والثنايا : العقبات. والحقو : الخصر والإزار ، وشده عليه استعارة لجانب العقبة ، وحواشي السراب : جوانبه. والملاء بالضم والمد : اسم جمع ملاءة وهي الجلباب. والتفراج : الباب الصغير والثوب من الديباج. والرهاة - جمع رهو - : المكان المرتفع ، ويطلق على المنخفض أيضا. وقيل : اسم موضع. والموت : القفر. والركض : ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقا، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية. والأعراف : جمع عرف. وعرف الديك والفرس : أعلى شعر العنق وأعرف البحر والسيل : إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف ، والأزهر : السحاب الأبيض والماء الأبيض ، وهو الأنسب بكونه تحت الريح ، لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى أَقَلَّتْ سَحاباً والمنتوج : الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر ، يقول : ورب راكد من الشمس ، يعنى السراب شديد الحر أو السير ، نصبت مستقبلا لوقته سيوف قومي مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو السراب ، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلىّ الجلباب في أبواب التفاريج ، وتلوى : يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرد وجوابها ، دل عليه ما قبلها وأسند اللى للثنايا لأنها سبب الالتواء ، ولى الملا: مفعول مطلق ، وأعراف : خبر كأنه ، والرهاة : جملة حالية ، وفاعل يركض إما ضمير الآل ، أو ضمير الرهاة ، لأنهما كأنهما يتضاربان. وروى : تطرده ، وفاعله ضمير الرهاة جزما ، لأن الآل هو المطرود ، وبيت الكشاف : يلوى الثنايا بأحقيها. والحقو : جمعه أحق ، وأصل وزنه : أفعل.

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه ، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار. ومنها : أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الغالب القادر على عقاب المصرين الْغَفَّارُ لذنوب التائبين «1». أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ، فسمى الحلم عنهم : مغفرة.

[سورة الزمر (39) : آية 6]

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6)

فإن قلت : ما وجه قوله ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت : هما آيتان «2» من جملة الآيات التي عدّدها دالا على وحدانيته وقدرته : تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم ،

(1). قال محمود : «أى لذنوب التائبين» قال أحمد : الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على ما دون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى. ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى.
(2). قال محمود : «فان قلت : ما وجه العطف بثم في قوله ثُمَّ جَعَلَ وأجاب بأتهما آيتان ... الخ» قال أحمد إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم ، وخلق حواء منه ، وهو متقدم على الذرية فضلا عن كونه متراخيا عن خلق الذرية ، فلم يستقم حملها على تراخى الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة ، على تقدير : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، يعنى : شفعها بزوجها ، فكانت هاهنا على بابها لتراخى الوجود ، والله سبحانه وتعالى أعلم. [.....]

وخلق حواء من قصيراه ، إلا أن إحداهما جعلها اللّه عادة مستمرّة ، والأخرى لم تجربها العادة ، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل ، فكانت أدخل في كونها آية ، وأجلب لعجب السامع ، فعطفها بثم على الآية الأولى ، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزية ، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية ، فهو من التراخي في الحال والمنزلة ، لا من التراخي في الوجود. وقيل : ثم متعلق بمعنى واحدة ، كأنه قيل : خلقكم من نفس وحدت ، ثم شفعها اللّه بزوج. وقيل : أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ، ثم خلق بعد ذلك حواء وَأَنْزَلَ لَكُمْ وقضى لكم وقسم ، لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول «1» من السماء ، حيث كتب في اللوح : كل كائن يكون. وقيل : لا تعيش الأنعام إلا بالنبات ، والنبات لا يقوم إلا بالماء. وقد أنزل الماء ، فكأنه أنزلها. وقيل : خلقها في الجنة ثم أنزلها. ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ذكرا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزوج : اسم لواحد معه آخر ، فإذا انفرد فهو فرد ووتر. قال اللّه تعالى : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى . خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ حيوانا سويا ، من بعد عظام مكسوة لحما ، من بعد عظام عارية ، من بعد مضغ ، من بعد علق ، من بعد نطف. والظلمات الثلاث : البطن والرحم والمشيمة. وقيل : الصلب والرحم والبطن ذلِكُمُ الذي هذه أفعاله هو اللَّهُ رَبُّكُمْ ..... فَأَنَّى تُصْرَفُونَ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟

[سورة الزمر (39) : آية 7]

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (7)

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه ، لاسضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ رحمة لهم ، لأنه يوقعهم في الهلكة وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ أى يرض الشكر لكم ، لأنه سبب فوزكم وفلاحكم ،

(1). قال محمود : «إنما جعلها منزلة لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول ... الخ» قال أحمد : ومن هذا النمط بعينه قول الراجز :
أسنمة الآبال في سحابة

فإذن ما كره كفركم ولا رضى شكركم إلا لكم ولصلاحكم «1» ، لا لأنّ منفعة ترجع إليه ، لأنه الغنى الذي لا يجوز عليه الحاجة. ولقد نمحل بعض الغواة ليثبت للّه تعالى «2» ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال : هذا من العام الذي أريد به الخاص ، وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ يريد المعصومين ، كقوله تعالى عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون وقرئ «برضه» بضم الهاء بوصل وبغير وصل ، وبسكونها خَوَّلَهُ أعطاه. قال أبو النجم : أعطى فلم يبخل ولم يبخّل كوم الذّرى من خول المخول «3» وفي حقيقته وجهان ، أحدهما : جعله خائل مال ، من قولهم : هو خائل مال ، وخال مال : إذا كان متعهدا له حسن القيام به.

(1). حمل الزمخشري الرضا على الارادة ، والعباد على العموم ... الخ» قال أحمد : إن المصر على هذا المعتقد على قلبه رين ، أو في ميزان عقله غين ، أليس يدعى أو يدعى له أنه الخريت في مغاثر العبارات ، وبديع الزمان في صناعة البديع ، فكيف نبا عن جادة الا جادة فهما ، وأعار منادى الحذاقة أذنا صما ، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقا ، وغطى سنى مكشوف العبارة

(2). قوله «ليثبت الله تعالى ... الخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الارادة ، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة : هو غيرها ، فكفر الكافر مراد غير مرضى ، وعند المعتزلة : غير مراد ولا مرضى. (ع)
(3) الحمد لله الوهوب المجزل أعطى فلم يبخل ولم يبخل
كوم الذرى من خول المخول
الوهوب : الوهاب. والمجزل : المكثر العطاء ، وبينه بقوله : أعطى السائلين فلم يبخل عليهم ، ولم يبخل : مشدد مبنى للمجهول ، أى : لم يتهم بالبخل. وقيل : هو توكيد. ويروى بناؤه للفاعل ، أى لم يجعل من أعطاهم بخلاء ، بل جعلهم كرماء. وكوم الذرى : نصب بأعطى ، أى : نوقا عظيمات السنام. والكوم : جمع كوماء. والذرى : جمع ذروة. والمخول بالتشديد المعطي ، وهو الله عز وجل.

ومنه : ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة «1» والثاني : جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر ، وفي معناه قول العرب : إنّ الغنىّ طويل الذّيل ميّاس

[سورة الزمر (39) : آية 8]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (8)

ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ أى نسى الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل : نسى ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه ، وما بمعنى من ، كقوله تعالى وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى وقرئ : ليضل ، بفتح الباء وضمها ، بمعنى أنّ نتيجة جعله لله أندادا ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله.

والنتيجة : قد تكون غرضا في الفعل ، وقد تكون غير غرض. وقوله تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ من باب الخذلان والتخلية ، كأنه قليل له : إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة ، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك ، وتؤمر بتركه : مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه. لأنه لا مبالغة في الخذلان ، لأن أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به. ونظيره في المعنى قوله مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ.

[سورة الزمر (39) : آية 9]

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (9)

قرئ. أمن هو قانت بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من ، وبالتشديد على إدخال «أم» عليه. ومن مبتدأ خبره محذوف ، تقديره : أمن هو قانت كغيره ، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه ، وهو جرى ذكر الكافر قبله. وقوله بعده قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ وقيل : معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر. أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «أفضل الصلاة طول القنوت» «2» وهو القيام فيها.

(1). متفق عليه من حديث ابن مسعود وأتم منه.
(2). أخرجه مسلم من طريق أبى الزبير عن جابر. ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر بلفظ «سئل أى الصلاة أفضل؟ قال : طول القيام».

ومنه القنوت في الوتر ، لأنه دعاء المصلى قائما ساجِداً حال. وقرئ : ساجد وقائم ، على أنه خبر بعد خبر ، والواو للجمع بين الصفتين.

وقرئ : ويحذر عذاب الآخرة. وأراد بالذين يعلمون : العاملين من علماء الديانة ، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ، ثم لا يقتنون ويفتنون ، ثم يفتنون بالدنيا ، فهم عند اللّه جهلة ، حيث جعل القانتين هم العلماء ، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه ، أى : كما لا يستوي العالمون والجاهلون ، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون. وقيل نزلت في عمار بن ياسر رضى اللّه عنه وأبى حذيفة بن المغيرة المخزومي. وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو «1» ، فقال : هذا تمنّ ، وإنما الرجاء قوله : وتلا هذه الاية.

وقرى : إنما يذكر ، بالإدغام.

[سورة الزمر (39) : آية 10]

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (10)

فِي هذِهِ الدُّنْيا متعلق بأحسنوا لا بحسنة ، معناه : الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة. وهي دخول الجنة ، أى : حسنة غير مكتنهة بالوصف. وقد علقه السدى بحسنة ، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت : إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر ، فما معنى تعليقه بحسنة؟ ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت : هو صفة لها إذا تأخر ، فإذا تقدم كان بيانا لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق ، وإن لم يكن التعلق وصفا ومعنى وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة ، حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم ، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان ، وصرف الهمم إليه قيل لهم : فإن أرض اللّه واسعة وبلاده كثيرة ، فلا تجتمعوا مع العجز ، وتحوّلوا إلى بلاد أخر ، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم.

وقيل : هو الذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه ، كقوله تعالى أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها وقيل : هي أرض الجنة. والصَّابِرُونَ الذين صبروا على مفارقة

(1). قال محمود : «سئل الحسن عمن يتمادى على المعاصي ويرجو ... الخ» قال أحمد : كلام الحسن رضى اللّه عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله ، فان الحسن أراد أن المتمادى على المعصية مصرا عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنيا ، لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاؤه ، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة اللّه تعالى وحاشاه ، وأما قرينة حال الزمخشري فإنها تم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة ، فان معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحدا يجب خلوده في نار جهنم، ولا معنى لرجائه ، ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالتزام إلى تتميم هذه النزعة ، وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

أوطانهم وعشائرهم ، وعلى غيرها. من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة اللّه وازدياد الخير بِغَيْرِ حِسابٍ لا يحاسبون عليه. وقيل : بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفا ، وهو تمثيل للتكثير. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا يهتدى إليه حساب الحساب ولا يعرف.

وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم : «ينصب اللّه الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين. ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صبا ، قال اللّه تعالى إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» «1».

[سورة الزمر (39) : الآيات 11 إلى 15]

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (12) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (14) فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (15)

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ بإخلاص الدين وَأُمِرْتُ بذلك لأجل لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أى مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة. ولمعنى : أنّ الإخلاص له السبقة في الدين ، فمن أخلص كان سابقا. فإن قلت : كيف عطف أُمِرْتُ

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه ، من حديث أنس رضى الله عنه. وإسناده ضعيف جدا. وأورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني. وهو في معجمه بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهما مختصرا.
(2). قال محمود : «فان قلت : كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد ، وأجاب بأنه ليس بتكرير ... الخ» قال أحمد : ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية بقوله فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دونه فان مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر ، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى لفظاعة خسرانهم فقال :
استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدإ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين ، وبين في تسمية الشيطان طاغوتا وجوها ثلاثة من المبالغة ، أحدها : تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان ، الثاني : بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت ، وهي الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه. الثالث : تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح ، كأنها زيدت عوضا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه ، كما عوّض السين في اسطاع عوضا من ترك الأصل الذي هو أطوع ، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وفي معناه أوجه : أن أكون أوّل من أسلم في زماني ومن قومي ، لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها. وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما. وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره ، لأكون مقتدى بى في قولي وفعلى جميعا ، ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعنى : أن الله أمرنى أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب ، بدليل العقل والوحى.

فإن عصيت ربى بمخالفة الدليلين ، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم ، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه. فإن قلت : ما معنى التكرير في قوله قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وقوله قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي قلت : ليس بتكرير ، لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني : إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصا له دينه ، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأوّل فالكلام أوّلا واقع في الفعل نفسه وإيجاده ، وثانيا فيمن يفعل الفعل لأجله ، ولذلك رتب عليه قوله فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير : المبالغة في الخذلان والتخلية ، على ما حققت فيه القول مرتين. قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه : هم الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها وَخسروا أَهْلِيهِمْ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده إليهم. وقيل : وخسروهم «1» لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة ، يعنى : وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه ، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر ، وعرف الخسران ونعته بالمبين.

[سورة الزمر (39) : آية 16]

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (16)

(1). قوله «و خسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو. (ع)

وَمِنْ تَحْتِهِمْ أطباق من النار هي ظُلَلٌ لآخرين ذلِكَ العذاب هو الذي يتوعد اللّه بِهِ عِبادَهُ ويخوّفهم ، ليجتنبوا ما يوقعهم فيه يا عِبادِ فَاتَّقُونِ ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطى ، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة. وقرئ : يا عبادي.

[سورة الزمر (39) : الآيات 17 إلى 18]

وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (17) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (18)

الطَّاغُوتَ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت ، إلا أن فيها قلبا بتقديم اللام على العين ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين ، لكونها مصدرا وفيها مبالغات ، وهي التسمية بالمصدر ، كأن عين الشيطان طغيان ،

اللّه عزّ وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله ، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين ، وحين يحشرون. قال اللّه تعالى يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ وأراد بعباده الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة ، فوضع الظاهر موضع الضمير ، وأراد أن يكونوا نقادا في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران : واجب وندب ، اختاروا الواجب ، وكذلك المباح والندب ، حرّاصا على ما هو أقرب عند اللّه وأكثر ثوابا ، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر «1» ، وأبينها دليلا أو أمارة ، وأن لا تكون في مذهبك ، كما قال القائل : ولا تكن مثل عير قيد فانقادا «2»

(1). قال محمود : «يدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر ... الخ» قال أحمد : لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة ، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكنا من فؤاده الصميم ، فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم.

(2) شمر وكن في أمور الدين مجتهدا ولا تكن مثل عير قيد فانقادا

للزمخشري. تشمير الثياب عن الساعد : كناية عن ترك الكسل ، ثم قال : واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك ، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه. ويحتمل أن المعنى : اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان.

يريد المقلد ، وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل : يستمعون أوامر اللّه فيتبعون أحسنها ، نحو القصاص والعفو ، والانتصار والإغضاء ، والإبداء والإخفاء لقوله تعالى وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو ، فيحدّث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه. ومن الوقفة من يقف على : فبشر عبادي ، ويبتدئ : الذين يستمعون ، يرفعه على الابتداء ، وخبره أُولئِكَ.

[سورة الزمر (39) : آية 19]

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

أصل الكلام : أمّن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب ، تقديره : أأنت مالك أمرهم ، فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه ، والهمزة الثانية هي الأولى ، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد ، ووضع مَنْ فِي النَّارِ موضع الضمير ، فالآية على هذا جملة واحدة. ووجه آخر : وهو أن تكون الآية جملتين : أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه؟ أفأنت تنقذ من في النار؟ وإنما جاز حذف : فأنت تخلصه ، لأن أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ يدل عليه : نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار ، حتى نزل اجتهاد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان : منزلة إنقاذهم من النار. وقوله أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ يفيد أنّ اللّه تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده ، لا يقدر على ذلك أحد غيره ، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار ، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

[سورة الزمر (39) : آية 20]

لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ(20)

غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ علالي بعضها فوق بعض. فإن قلت : ما معنى قوله مَبْنِيَّةٌ؟

قلت : معناه - واللّه أعلم - : أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كما تجرى من تحت المنازل ، من غير تفاوت بين العلوّ والسفل وَعْدَ اللَّهِ مصدر مؤكد ، لأنّ قوله لهم غرف في معنى ، وعدهم اللّه ذلك.

[سورة الزمر (39) : آية 21]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (21)

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً هو المطر. وقيل : كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ، ثم يقسمه اللّه فَسَلَكَهُ فأدخله ونظمه يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ عيونا ومسالك ومجارى كالعروق في الأجساد مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك ، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها يَهِيجُ يتم جفافه ، عن الأصمعى ، لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب حُطاماً فتاتا ودرينا «1» إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لتذكيرا وتنبيها ، على أنه لا بدّ من صانع حكيم ، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير ، لا عن تعطيل وإهمال.
ويجوز أن يكون مثلا للدنيا ، كقوله تعالى إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا ، وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا. وقرئ : مصفارّا.

[سورة الزمر (39) : آية 22]

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(22)

أَفَمَنْ عرف اللّه أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسى القلب ، ونور اللّه : هو لطفه ، وقرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هذه الآية فقيل يا رسول اللّه : كيف انشراح الصدر؟ قال «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح «2» فقيل : يا رسول اللّه ، فما علامة ذلك؟ قال «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» وهو نظير قوله : أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ في حذف الخبر مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر اللّه عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله تعالى فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وقرئ : عن ذكر اللّه.

فإن قلت : ما الفرق بين من وعن في هذا؟ «قلت» : إذا قلت : قسا قلبه من ذكر اللّه ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه ، وإذا قلت : عن ذكر اللّه ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره: سقاه من العيمة ، أى من أجل عطشه ، وسقاه عن العيمة : إذا أرواه حتى أبعده عن العطش.

[سورة الزمر (39) : آية 23]

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (23)

(1). قوله «فتاتا ودرينا» في الصحاح «الدرين» : خطام المرعى إذا قدم ، وهو ما يلي من الحشيش. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود. وفيه أبو فروة الرهاوي فيه كلام.
ورواه الترمذي الحكيم في النوادر في الأصل السادس والثمانين. وفي إسناده إبراهيم بن [بياض بالأصل.] وهو ضعيف. [.....]

عن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أنّ أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ملوا ملة ، فقالوا له : حدثنا فنزلت، وإيقاع اسم اللّه مبتدأ وبناء نَزَّلَ عليه : فيه تفخيم لأحسن الحديث ، ورفع منه ، واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى اللّه وأنه من عنده ، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث. وكِتاباً بدل من أحسن الحديث. ويحتمل أن يكون حالا منه ومُتَشابِهاً مطلق في مشابهة بعضه بعضا ، فكان متناولا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام ، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق ، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة ، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ، ويجوز أن يكون مَثانِيَ بيانا لكونه متشابها ، لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة. والمثاني جمع مثنى بمعنى مردّد ومكرّر ، ولما ثنى من قصصه وأنبائه ، وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه. وقيل : لأنه يثنى في التلاوة ، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان «1» ولا يخلق على كثرة الرّد. ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل ، من التثنية بمعنى التكرير. والإعادة كما كان قوله تعالى ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ بمعنى كرّة بعد كرّة ، وكذلك : لبيك وسعديك ، وحنانيك. فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت : إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير.

ألا تراك تقول : القرآن أسباع وأخماس ، وسور وآيات ، وكذلك تقول : أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ، ونظيره قولك : الإنسان عظام وعروق وأعصاب ، إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة ، وأصله : كتابا متشابها فصولا مثاني. ويجوز أن يكون كقولك : برمة أعشار ، وثوب أخلاق. ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ، ويكون منتصبا على التمييز من متشابها ، كما تقول : رأيت رجلا حسنا شمائل ، والمعنى : متشابهة مثانيه. فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت ، النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعا ، «2» ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم.

(1). قوله «لا يتفه ولا يتشان» في الصحاح «التافه» : الحقير اليسير : وفيه تشانت القربة : أخلقت ، وتشان الجلد : يبس وتشنج. (ع)
(2). لم أجده. وفي البخاري عن أنس رضى اللّه عنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا - الحديث» وزاد أحمد «و كان يستأذن ثلاثا».

اقشعر الجلد : إذا تقبض تقبضا شديدا ، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس ، مضموما إليها حرف رابع وهو الراء ، ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد. يقال : اقشعر جلده من الخوف وقف شعره ، «1» وهو مثل في شدّة الخوف ، فيجوز أن يريد به اللّه سبحانه التمثيل ، تصويرا لإفراط خشيتهم ، وأن يريد التحقيق. والمعنى : أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده : أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم ، ثم إذا ذكروا اللّه ورحمته وجوده بالمغفرة : لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فإن قلت : ما وجه تعدية «لان» بإلى؟ قلت : ضمن معنى فعل متعدّ بإلى ، كأنه قيل : سكنت. أو اطمأنت إلى ذكر اللّه لينة غير متقبضة ، راجية غير خاشية. فإن قلت : لم اقتصر على ذكر اللّه من غير ذكر الرحمة؟ قلت : لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة ، ورحمته هي سابقة غضبه ، فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رءوفا رحيما. فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أوّلا ، ثم قرنت بها القلوب ثانيا؟ قلت : إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب ، فقد ذكرت القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم من آيات الوعيد ، وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة ، فإذا ذكروا اللّه ومبنى أمره على الرأفة والمرحمة : استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم ، وبالقشعريرة لينا في جلودهم ذلِكَ إشارة إلى الكتاب ، وهو هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ يوفق به من يشاء ، يعنى: عباده المتقين ، حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء ، كما قال : هدى لِلمتقين وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذله من الفساق «2» والفجرة فَما لَهُ مِنْ هادٍ أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى اللّه ، أى : أثر هداه وهو لطفه ، فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى يَهْدِي بِهِ بهذا الأثر من يشاء من عباده ، يعنى : من صحب أولئك ورءاهم خاشين راجين ، فكان ذلك مرغبا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ : ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره ، فَما لَهُ مِنْ هادٍ من مؤثر فيه بشيء قط.

[سورة الزمر (39) : الآيات 24 إلى 26]

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (25) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (26)

(1). قوله «وقف شعره» أى : قام من الفزع ، كذا في الصحاح. (ع)
(2). قوله «و من يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبنى على مذهب المعتزلة أن اللّه لا يخلق الشر. وعند أهل السنة : أنه يخلقه كالخير ، فالاضلال : خلق الضلال في القلب. (ع)

يقال : اتقاه بدرقته : استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده. وتقديره : أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ كمن أمن العذاب «1» ، فحذف الخبر كما حذف في نظائره : وسوء العذاب : شدّته. ومعناه : أن الإنسان إذا لقى مخوفا من المخاوف استقبله بيده ، وطلب أن يقي بها وجهه ، لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه ، فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقى المخاوف بغيره ، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل : المراد بالوجه الجملة ، وقيل : نزلت في أبى جهل. وقال لهم خزنة النار ذُوقُوا وبال ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .....

مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ من الجهة التي لا يحتسبون ، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها ، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم. والخزي : الذل والصغار ، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء ، وما أشبه ذلك من نكال اللّه.

[سورة الزمر (39) : الآيات 27 إلى 28]

وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(28)

قُرْآناً عَرَبِيًّا حال مؤكدة كقولك : جاءني زيد رجلا صالحا وإنسانا عاقلا. ويجوز أن ينتصب على المدح غَيْرَ ذِي عِوَجٍ مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف. فإن قلت : فهلا قيل : مستقيما : أو غير معوج؟ قلت : فيه فائدتان ، إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان. وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس. وأنشد :

وقد أتاك يقين غير ذى عوج من الإله وقول غير مكذوب «2»

[سورة الزمر (39) : آية 29]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (29)

واضرب لقومك مثلا ، وقل لهم : ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع :

(1). قال محمود : «معناه كمن هو آمن ، فحذف الخبر أسوة أمثله ... الخ» قال أحمد : الملقى في النار والعياذ بالله ، لم يقصد الاتقاء بوجهه ، ولكنه لم يجد ما يتقى به النار غير وجهه ، ولو وجد لفعل ، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقى بوجهه ، فعبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلى ، والله أعلم.
(2). الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد باليقين والقول : القرآن. أو اليقين : الأسرار ، والقول : القرآن. أو اليقين : القرآن ، والقول : ما عداه من الأوامر والنواهي ، و«من الاله» متعلق بأتاك. والمعنى :
أن ذاك من الشك واللبس ، ومن الكذب ، فالعوج : استعارة تصريحية.

كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشاده ، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير في أمره سادر ، «1» قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته. وفي آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته ، معتمد عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن حالا وأجمل شأنا؟ والمراد : تمثيل حال من يثبت آلهة شتى ، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته ، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا ، كما قال تعالى وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ ويبقى هو متحيرا ضائعا لا يدرى أيهم يعبد؟

وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع ، «2» وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بما كلفه ، عارف بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه في عاجله ، مؤمل للثواب في آجله. وفِيهِ صلة شركاء ، كما تقول : اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس : الاختلاف ، تقول : تشاكست أحواله ، وتشاخست أسنانه سَلَماً لِرَجُلٍ خالصا. وقرئ : سلما ، بفتح الفاء والعين ، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين ، وهي مصادر سلم. والمعنى : ذا سلامة لرجل ، أى : ذا خلوص له من الشركة ، من قولهم : سلمت له الضيعة.

وقرئ بالرفع على الابتداء ، أى : وهناك رجل سالم لرجل ، وإنما جعله رجلا ليكون أفطن لما شقى به أو سعد، فإن المرأة والصبى قد يغفلان عن ذلك هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا هل يستويان : صفة على التمييز. والمعنى : هل يستوي صفتاهما وحالاهما ، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ : مثلين ، كقوله تعالى وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً مع قوله أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ويجوز فيمن قرأ : مثلين ، أن يكون الضمير في يَسْتَوِيانِ للمثلين ، لأن التقدير : مثل رجل ومثل رجل. والمعنى : هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية ، كما تقول : كفى بهما رجلين الْحَمْدُ لِلَّهِ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه ، أى : يجب أن يكون الحمد متوجها إليه وحده والعبادة ، فقد ثبت أنه لا إله إلا هو بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ فيشركون به غيره.

[سورة الزمر (39) : الآيات 30 إلى 33]

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (32) وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)

(1). قوله «في أمره سادر» في الصحاح «السادر» : المتحير. (ع)
(2). قوله «فهمه شعاع ... الخ» بالفتح أى متفرق. وقولهم : بها أوزاع من الناس ، أى : جماعات كذا في الصحاح. (ع)

كانوا يتربصون برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم موته ، فأخبر أن الموت يعمهم ، فلا معنى للتربص ، وشماتة الباقي بالفاني. وعن قتادة : نعى إلى نبيه نفسه ، ونعى إليكم أنفسكم : «1» وقرئ : مائت ومائتون «2». والفرق بين الميت والمائت : أن الميت صفة لازمة كالسيد.

وأما المائت ، فصفة حادثة. تقول : زيد مائت غدا ، كما تقول : سائد غدا ، أى سيموت وسيسود.

وإذا قلت : زيد ميت ، فكما تقول : حى في نقيضه ، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت. والمعنى في قوله إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ إنك وإياهم ، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى ، لأن ما هو كائن فكأن قد كان ثُمَّ إِنَّكُمْ ثم إنك وإياهم ، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب تَخْتَصِمُونَ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا ، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ، ويعتذرون بما لا طائل تحته ، تقول الأتباع : أطعنا سادتنا وكبراءنا ، وتقول السادات : أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون ، وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضا، حتى يقال لهم : لا تختصموا لدىّ ، والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج ، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام. قال عبد اللّه بن عمر : لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب؟ قلنا : كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد؟

حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف ، فعرفت أنها نزلت فينا «3» وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد ، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف ، قلنا : نعم هو هذا «4». وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة : ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضى اللّه عنه قالوا : هذه خصومتنا «5».

وعن أبى العالية : نزلت في أهل القبلة. والوجه الذي يدل عليه كلام اللّه هو ما قدمت أولا.

ألا ترى إلى قوله تعالى فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وقوله تعالى وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة كَذَبَ عَلَى اللَّهِ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ بالأمر الذي هو الصدق بعينه ،

(1). قوله «و نعى إليكم أنفسكم» لعله : إليهم أنفسهم. (ع)
(2). قال محمود : «قرئ : إنك ميت ومائت ... الخ» قال أحمد : فاستعمال ميت مجاز ، إذ الخطاب مع الأحياء واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطى اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها يعنى : توفى الموت وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها أى يتوفاها حين المنام ، تشبيها للنوم بالموت ، كقوله وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي ، أى : لا يردها في وقتها حية وَيُرْسِلُ الْأُخْرى أى النائمة إلى الأجل الذي سماه ، أى قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية ، واللّه أعلم.
(3). أخرجه الحاكم من رواية القاسم بن عوف عن ابن عمر رضى اللّه عنهما.
(4). ذكره الثعلبي. قال : وروى خلف بن خليفة عن أبى هاشم عن الخدري.
(5). أخرجه عبد الرزاق والطبري والثعلبي من رواية عبد اللّه بن عوف عن إبراهيم بهذا.

وهو ما جاء به محمد صلى اللّه عليه وسلم إِذْ جاءَهُ فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة ، لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل ، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون مَثْوىً لِلْكافِرِينَ أى لهؤلاء الذين كذبوا على اللّه وكذبوا بالصدق ، واللام في لِلْكافِرِينَ إشارة إليهم.

[سورة الزمر (39) : الآيات 33 إلى 35]

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (35)

وَالَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : جاء بالصدق وآمن به ، وأراد به إياه ومن تبعه ، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فلذلك قال أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم. ويجوز أن يريد : والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به ، وهم الرسول الذي جاء بالصدق ، وصحابته الذين صدقوا به. وفي قراءة ابن مسعود : والذين جاءوا بالصدق وصدقوا به. وقرئ : وصدق به. بالتخفيف ، أى : صدق به الناس ولم بكذبهم به ، يعنى : أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل : صار صادقا به ، أى : بسببه ، لأنّ القرآن معجزة ، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ، ولا يجوز أن يصدق إلا الصادق ، فيصير لذلك صادقا بالمعجزة ، وقرئ : وصدّق به. فإن قلت : ما معنى إضافة الأسوإ والأحسن إلى الذي عملوا ، وما معنى التفضيل فيهما؟ قلت : أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل ، كقولك : الأشج أعدل بنى مروان. وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذي يعملونه هو عند اللّه الأحسن ، لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر سيئهم بالأسوإ وحسنهم بالأحسن. وقرئ : أسواء الذي عملوا جمع سوء.

[سورة الزمر (39) : الآيات 36 إلى 37]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (36) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (37)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي ، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها. وقرئ : بكاف عبده ، وهو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وبكاف عباده وهم الأنبياء ، وذلك أن قريشا قالت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، وإنا نخشى عليك معرّتها «1» لعيبك إياها. ويروى : أنه بعث خالدا إلى العزى ليكسرها ، فقال له سادنها : أحذركها يا خالد ، إن لها لشدّة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إليها فهشم أنفها. فقال اللّه عز وجل : أليس اللّه بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم ، لأنهم خوّفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر. أو أليس اللّه بكاف أنبياءه ولقد قالت أممهم نحو ذلك ، فكفاهم اللّه وذلك قول قوم هود إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ويجوز أن يريد : العبد والعباد على الإطلاق ، لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم. وقرئ : بكافى عباده ، على الإضافة. ويكافي عباده ، ويكافي : يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية ، كقولك : يجازى في يجزى ، وهو أبلغ من كفى ، لبنائه على لفظ المبالغة. والمباراة : أن يكون مهموزا ، من المكافأة وهي المجازاة ، لما تقدم من قوله وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ، بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ أراد : الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه بِعَزِيزٍ بغالب منيع ذِي انْتِقامٍ ينتقم من أعدائه ، وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم ، وينصرهم عليهم.

[سورة الزمر (39) : آية 38]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

قرئ : كاشفات ضرّه ، وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل ، وبالإضافة للتخفيف.

فإن قلت : لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قلت : لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقرّرهم أوّلا بأنّ خالق العالم هو اللّه وحده. ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل. أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما ، هل هؤلاء اللاتي خوّفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره أو ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة قال حَسْبِيَ اللَّهُ كافيا لمعرّة أوثانكم عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ وفيه تهكم. ويروى أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم سألهم فسكتوا ، فنزل قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ

(1). قوله «معرتها» أى : إثمها. أفاده الصحاح. (ع) [.....]

فإن قلت. لم قيل : كاشفات ، وممسكات ، على التأنيث بعد قوله تعالى وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ قلت : أنثهن وكن إناثا وهن اللات والعزى ومناة. قال اللّه تعالى أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ

[سورة الزمر (39) : الآيات 39 إلى 40]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (39) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ(40)

عَلى مَكانَتِكُمْ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها. والمكانة بمعنى المكان ، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا. وحيث للزمان ، وهما للمكان. فإن قلت : حق الكلام : فإنى عامل على مكانتى. فلم حذف؟ قلت : للاختصار ، ولما فيه من زيادة الوعيد ، والإيذان بأنّ حاله لا تقف ، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة ، لأنّ اللّه ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله. ألا ترى إلى قوله فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ كيف توعدهم بكونه منصورا عليهم غالبا عليهم في الدنيا والآخرة ، لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته ، من حيث أن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه ، وبذل ذليل من أعدائه يُخْزِيهِ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب ، أى : عذاب مخز له ، وهو يوم بدر ، وعذاب دائم وهو عذاب النار. وقرئ : مكاناتكم.

[سورة الزمر (39) : آية 41]

إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

لِلنَّاسِ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ، ليبشروا وينذروا ، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغنى ، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ، ومن اختار الضلالة فقد ضرها. وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى ، فإنّ التكليف مبنى على الاختيار دون الإجبار.

[سورة الزمر (39) : آية 42]

اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

الْأَنْفُسَ الجمل كما هي. وتوفيها : إماتتها ، وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة درّاكة : من صحة أجزائها وسلامتها ، لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، أى : يتوفاها حين تنام ، تشبيها للنائمين بالموتى.

ومنه قوله تعالى وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ حيث لا يميزون ولا يتصرفون ، كما أنّ الموتى كذلك فَيُمْسِكُ الأنفس الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ الحقيقي ، أى : لا يردّها في وقتها حية وَيُرْسِلُ الْأُخْرى النائمة إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إلى وقت ضربه لموتها. وقيل : يتوفى الأنفس يستوفيها ويقضيها ، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها ، وهي أنفس التمييز. قالوا : فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة ، لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس ، والنائم يتنفس. ورووا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما في ابن آدم «نفس وروح» بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التي بها العقل والتمييز والروح التي بها النفس والتحرك ، فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه ولم يقبض روحه» «1» والصحيح ما ذكرت أوّلا ، لأنّ اللّه عز وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعا بالأنفس ، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم ، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام إِنَّ فِي ذلِكَ إن في توفى الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة اللّه وعلمه ، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرئ : قضى عليها الموت ، على البناء للمفعول.

[سورة الزمر (39) : الآيات 43 إلى 44]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ (43) قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

أَم اتَّخَذُوا بل اتخذ قريش ، والهمزة للإنكار مِنْ دُونِ اللَّهِ من دون إذنه شُفَعاءَ حين قالوا : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ألا ترى إلى قوله تعالى قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً أى هو مالكها ، فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين : أن يكون المشفوع له مرتضى ، وأن يكون الشفيع مأذونا له. وهاهنا الشرطان مفقودان جميعا أَوَ لَوْ كانُوا معناه : أيشفعون ولو كانوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلا يَعْقِلُونَ أى : ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيأ قط ، حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

(1). لم أجده.

تقرير لقوله تعالى لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك ، كان مالكا لها. فإن قلت : بم يتصل قوله ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ؟ قلت : بما يليه ، معناه : له ملك السماوات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة ، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له. فله ملك الدنيا والآخرة.

[سورة الزمر (39) : آية 45]

وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)

مدار المعنى على قوله وحده ، أى : إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا ، أى : نفروا وانقبضوا وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا ، لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هو أهم فيها. وقيل : إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا ، لأن فيه نفيا لآلهتهم. وقيل : أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر آلهتهم حين قرأ «و النجم» عند باب الكعبة ، فسجدوا معه لفرحهم ، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز ، إذ كل واحد منهما غاية في بابه ، لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل. والاشمئزاز : أن يمتلئ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت : ما العامل في إِذا ذُكِرَ؟ قلت : العامل في إذا المفاجأة ، تقديره وقت ذكر الذين من دونه ، فاجئوا وقت الاستبشار.

[سورة الزمر (39) : آية 46]

قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (46)

بعل «1» رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، وبشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد ، فقيل له : ادع الله بأسمائه العظمى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ووعيد لهم. وعن الربيع بن خثيم «2» وكان قليل الكلام. أنه أخبر بقتل الحسين - رضى الله عنه ، وسخط على قاتله - وقالوا : الآن يتكلم ، فما زاد على أن قال : آه أوقد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروى أنه قال على أثره : قتل من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

(1). قوله «بعل رسول الله» في الصحاح : «بعل الرجل» بالكسر ، أى : دهش. (ع)
(2). قوله «و عن الربيع بن خثيم» في النسفي : خيثم. (ع)

[سورة الزمر (39) : الآيات 47 إلى 48]

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (47) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (48)

وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته ، وهو نظير قوله تعالى في الوعد فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ والمعنى : وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدءوا به نفوسهم. وقيل : عملوا أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال : ويل لأهل الرياء ، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له ، فقال : أخشى آية من كتاب الله ، وتلاها ، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا أى سيئات أعمالهم التي كسبوها. أو سيئات كسبهم ، حين تعرض صحائفهم ، وكانت خافية عليهم ، كقوله تعالى أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ أو أراد بالسيآت : أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا ، فسماها سيئات ، كما قال وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

وَحاقَ بِهِمْ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

[سورة الزمر (39) : آية 49]

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(49)

التخويل : مختص بالتفضل. يقال : خولني ، إذا أعطاك على غير جزاء عَلى عِلْمٍ أى على علم منى أنى سأعطاه، لما فىّ من فضل واستحقاق. أو على علم من اللّه بى وباستحقاقى «1» أو على علم منى بوجوه الكسب، كما قال قارون عَلى عِلْمٍ عِنْدِي. فإن قلت : لم ذكر الضمير في أُوتِيتُهُ وهو للنعمة؟ قلت : ذهابا به إلى المعنى ، لأنّ قوله نِعْمَةً مِنَّا شيئًا من النعم وقسما منها. ويحتمل أن تكون «ما» في إنما موصولة لا كافة ، فيرجع إليها الضمير. على معنى : أن الذي أوتيته على علم بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ إنكار لقوله كأنه قال : ما خوّلناك ما خولناك من النعمة لما تقول ،

(1). قال محمود : «معناه على علم من اللّه بى وباستحقاقى ... الخ» قال أحمد : كذلك يقول على قدرى تمنى على اللّه أن يثيبه في الآخرة : أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد ، لأنه على نعمة متفضل بها ، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه ، لأنه على نعمة واجبة على اللّه عز وجل ، ولقد صدق اللّه إذ يقول : وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة ، إذ يعتقدون أن الثواب بفضل اللّه وبرحمته لا باستحقاق ، ويتبعون في ذلك قول سيد البشر صلى اللّه عليه وسلم : لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني اللّه برحمته ، فما أحمق من منى نفسه وركب رأسه ، وطمع أنه يستحق على اللّه الجنة.

بل هي فتنة ، أى : ابتلاء وامتحان لك ، أتشكر أم تكفر؟ فإن قلت : كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ قلت : حملا على المعنى أوّلا ، وعلى اللفظ آخرا ، ولأن الخبر لما كان مؤنثا أعنى فِتْنَةٌ ساغ تأنيث المبتدإ لأجله لأنه في معناه ، كقولهم : ما جاءت حاجتك. وقرئ : بل هو فتنة على وفق إِنَّما أُوتِيتُهُ. فإن قلت : ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ قلت : السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله وَإِذا ذُكِرَ اللَّهُ «1» وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر اللّه ويستبشرون بذكر الآلهة ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من ذكره ، دون من استبشر بذكره ، وما بينهما من الاى اعتراض. فإن قلت : حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه «2». قلت : ما في الاعتراض من دعاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ربه بأمر منه وقوله أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ ثم ما عقبه من الوعيد العظيم : تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى اللّه في الشدائد دون آلهتهم ، كأنه قيل : قل يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترءون عليك مثل هذه الجرأة ، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت. وقوله وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقا. أو إياهم خاصة إن عنيتهم به ، كأنه قيل : ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به. حين أحكم عليهم بسوء العذاب ، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم ، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو ، كقولك : قام زيد وقعد عمرو. فإن قلت : من أى وجه وقعت مسببة؟ والاشمئزاز عن ذكر اللّه ليس بمقتض لالتجائهم إليه ، بل هو مقتض لصدوفهم «3» عنه. قلت : في هذا التسبيب لطف ، وبيانه أنك تقول : زيد مؤمن باللّه ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر باللّه ، فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأنّ الكافر حين التجأ إلى اللّه التجاء المؤمن إليه ، مقيم كفره مقام الإيمان ، ومجريه مجراه في جعله سببا في الالتجاء ، فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر. ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله؟

(1). قال محمود : «فان قلت : لم عطفت هذه الآية على التي قبلها بالفاء ، والآية التي قبلها في أول السورة بالواو؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله وإذا ذكر اللّه ... الخ» قال أحمد : كلام جليل فافهمه ، فضلا عن مشبه قليل.
(2). قوله «المعترض بينه وبينه» لعل قوله «و بينه» مزيد من بعض الناسخين. (ع)
(3). قوله «لصدوفهم عنه» أى : إعراضهم. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الزمر (39) : الآيات 50 إلى 52]

قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (50) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (51) أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52)

الضمير في قالَهَا راجع إلى قوله إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ لأنها كلمة أو جملة من القول.

وقرئ : قد قاله على معنى القول والكلام ، وذلك والذين من قبلهم : هم قارون وقومه ، حيث قال : إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها ، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ من متاع الدنيا ويجمعون منه مِنْ هؤُلاءِ من مشركي قومك سَيُصِيبُهُمْ مثل ما أصاب أولئك ، فقتل صناديدهم ببدر ، وحبس عنهم الرزق ، فقحطوا سبع سنين ، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين ، فقيل لهم أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أنه لا قابض ولا باسط إلا اللّه عزّ وجلّ.

[سورة الزمر (39) : آية 53]

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(53)

أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها لا تَقْنَطُوا قرئ بفتح النون وكسرها وضمها إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً يعنى بشرط التوبة ، «1» وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكرا له فيما لم يذكر فيه ، لأنّ القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود : يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ، والمراد بمن يشاء : من تاب ، لأنّ مشيئة اللّه تابعة لحكمته وعدله ، لا لملكه وجبروته. وقيل في قراءة النبىّ صلى اللّه عليه وسلم وفاطمة رضى اللّه عنها : يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى. ونظير نفى المبالاة نفى الخوف في قوله تعالى وَلا يَخافُ عُقْباها وقيل : قال أهل مكة : يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرّم اللّه لم يغفر له ، فكيف ولم نهاجر وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم اللّه فنزلت. وروى أنه أسلم عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ، ثم فتنوا وعذبوا ، فافتتنوا ، فكنا نقول : لا يقبل اللّه لهم صرفا ولا عدلا أبدا ، فنزلت. فكتب بها عمر رضى اللّه عنه إليهم ، فأسلموا وهاجروا. وقيل نزلت في وحشى قاتل حمزة رضى اللّه عنه.

(1). قوله «يعنى بشرط التوبة» عند التوبة فالعموم شامل للشرك ، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة. ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ كما تقرر في علم التوحيد : فارجع إليه. (ع)

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل : يا رسول اللّه ، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال : «ألا ومن أشرك» «1» ثلاث مرّات.

[سورة الزمر (39) : الآيات 54 إلى 59]

وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (54) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (59)

وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وتوبوا إليه وَأَسْلِمُوا لَهُ وأخلصوا له العمل ، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة ، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مثل قوله الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ. وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أى يفجؤكم وأنتم غافلون ، كأنكم لا تخشون شيئا لفرط غفلتكم وسهوكم أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ كراهة أن تقوّل. فإن قلت : لم نكرت؟ قلت : لأنّ المراد بها بعض الأنفس ، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد : نفس متميزة من الأنفس : إما بلجاج في الكفر شديد. أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التكسير ، كما قال الأعشى : وربّ بقيع لو هتفت بحوه أتانى كريم ينفض الرّأس مغضبا «2»

(1). أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان. وفيه ابن لهيعة عن أبى قبيل وهما ضعيفان.

(2) دعا قومه حولي فجاءوا لنصره وناديت قوما بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بحوه أتانى كريم ينفض الرأس مغضبا
للأعشى وقيل : لأبى عمرو بن العلاء ، يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون ، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنيت الشيء سهلته ، أى : منعمة مملسة. أو بالية مفتتة. ويجوز أن أصله مسننة ، فقلبت النون الثانية ألفا. وسننت الحجر حددته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجبن ، بل هم دون تلك الأموات ، فرب بقيع : أى موضع فيه أروم الشجر من

وهو بريد : أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا. ونظيره : ربّ بلد قطعت ، ورب بطل قارعت. وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلا التكسير. وقرئ : يا حسرتى ، على الأصل.

ويا حسرتاى ، على الجمع بين العوض والمعوّض منه. والجنب : الجانب ، يقال : أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته ، وفلان لين الجنب والجانب ، ثم قالوا : فرّط في جنبه وفي جانبه ، يريدون في حقه. قال سابق البربري : أما تتّقين الله في جنب وامق له كبد حرّى عليك تقطّع «1»

وهذا من باب الكناية ، لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه ، فقد أثبته فيه. ألا ترى إلى قوله : إنّ السّماحة والمروءة والنّدى في قبّة ضربت على ابن الحشرج «2»

ومنه قول الناس : لمكانك فعلت كذا ، يريدون : لأجلك. وفي الحديث : «من الشرك الخفىّ أن يصلى الرجل لمكان الرجل» «3» وكذلك : فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه : قيل فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ على معنى : فرطت في ذات الله. فإن قلت : فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها ، فكأنه قيل : فرّطت في الله. فما معنى فرّطت في الله؟ قلت : لا بدّ من تقدير مضاف محذوف ، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر : والمعنى : فرّطت في طاعة الله وعبادة الله ،

(1) أما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بادكاركم وكل غريب الدار بالشوق مولع
لجميل بن معمر يستعطف صاحبته بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها ، أى : أما تخافين الله في جنب وامق ، أى : في حقه الواجب عليك ، فالجنب : كناية عن ذلك. والوامق : الشديد المحبة ، يعنى نفسه. وحرى : أى ذات حر واحتراق.
وتقطع : أصله تتقطع ، والادكار : أصله الاذتكار ، قلبت تاؤه دالا مهملة ، وأدغمت الذال المعجمة فيها ، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيما. وفي البيت رد العجز على الصدر ، وهو من بديع الكلام.
(2). لزيادة الأعجم يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور ، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة ، يعنى أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره ، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلا.
(3). أخرجه أحمد وإسحاق والبزار والحاكم والبيهقي. من رواية ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن جده قال» خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما. ونحن نتذاكر الدجال. فقال غير الدجال أخوف عليكم :
الشرك الخفي : أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم.

وما أشبه ذلك. وفي حرف عبد الله وحفصة : في ذكر الله. وما في ما فرّطت مصدرية مثلها في بما رَحُبَتْ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ قال قتادة : لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ، ومحل وَإِنْ كُنْتُ النصب على الحال ، كأنه قالَ : فرّطت وأنا ساخر ، أى : فرّطت في حال سخريتي. وروى أنه كان في بنى إسرائيل عالم ترك علمه وفسق. وأتاه إبليس وقال له : تمتع من الدنيا ثم تب ، فأطاعه ، وكان له مال فأنفقه في الفجور ، فأتاه ملك الموت في ألذ ما كان فقال : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ، ذهب عمرى في طاعة الشيطان، وأسخطت ربى فندم حين لم ينفعه الندم ، فأنزل الله خبره في القرآن لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لا يخلو : إما أن يريد الهداية «1» بالإلجاء أو بالألطاف أو بالوحي ، فالإلجاء خارج عن الحكمة ، ولم يكن من أهل الألطاف فيلطف به. وأما الوحى فقد كان ، ولكنه عرض ولم يتبعه حتى يهتدى ، وإنما يقول هذا تحيرا في أمره وتعللا بما لا يجدى عليه ، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين ونحو ذلك ونحوه لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ وقوله بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي ردّ من الله عليه ، معناه : بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله ، وآثرت الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى.

وقرئ بكسر التاء «2» على مخاطبة النفس. فإن قلت : هلا قرن الجواب بما هو جواب له ، وهو قوله لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت : لأنه لا يخلو : إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثاني فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب. فإن قلت : كيف صح أن تقع بلى جوابا لغير منفي؟ قلت : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي فيه معنى : ما هديت.

[سورة الزمر (39) : آية 60]

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (60)

كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى ، وهو متعال «3» عنه ، فأضافوا إليه الولد والشريك ،

(1). قوله «لا يخلو إما أن يريد به الهداية» تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة ، ولكن خلق الهداية لا يصل إلى حد الإلجاء ، لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة ، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية ، لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو اللّه تعالى ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع) [.....]
(2). قوله «و قرئ بكسر التاء» لعل من كسرها كسر الكاف أيضا. (ع)
(3). قال محمود : «يعنى الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه ... الخ» قال أحمد : قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذي حرمه ، ولا يعافيه منه إلا الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه ، وسنقيم عليه حد الرد ، لأنه قد أبدى صفحته ، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحا ولوينا عن الالتفات إليه كشحا ، وباللّه التوفيق فنقول : أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل اللّه تعالى ، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أما الزمخشري وإخوانه القدرية ، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون : ليس خالق كل شيء ، لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له.
فاعتقدوا أنهم نزهوا ، وإنما أشركوا. وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقا لا لغرض ، فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل ، لأنه الفعال لما يشاء. وعند القدرية ليس فعالا لما يشاء لأن الفعل إما منطو على حكمة ومصلحة ، فيجب عليه أن يفعله عندهم ، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذا. وأما اعتقاده أن في تكليف مالا يطاق تظليما للّه تعالى ، فاعتقاد باطل ، لأن ذلك إنما ثبت لازما لاعتقادهم أن اللّه تعالى خالق أفعال عبيده ، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقا لهم ، والقاعدة الأولى حق ، ولازم الحق حق ، ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه ، والعباد ملك اللّه تعالى ، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض ، فيقال له : ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال ، ولا أعواض لها ، وليس مرتبا على استحقاق سابق خلافا للقدرية إذ يقولون : لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض.
وأما اعتقاده أن تجويز رؤية اللّه تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية ، فانه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك ، مع البراءة من اعتقاد الجسمية ، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبى الهدى عليه الصلاة والسلام : «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل. وأما قوله إنهم يتسترون بالبلكفة ، فيعنى به قولهم «بلا كيف» أجل إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء ، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء. وأما تعريضه بأنهم يجعلون للّه أندادا باثباتهم معه قدماء ، فنفى لاثباتهم صفات الكمال ، كلا واللّه ، إنما جعل للّه أندادا القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم. حتى قالوا : إن ما شاءوه كان وما شاء اللّه لا يكون.
وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن للّه تعالى علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا وكلاما وحياة ، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع وأى مخلص للقدرى إذا سمع قوله تعالى وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً إلا اعتقاد أن للّه تعالى علما أو جحد آيات اللّه وإطفاء نوره، ويأبى اللّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وأما قوله : إنهم يثبتون للّه تعالى يدا وقدما ووجها ، فذلك فرية ما فيها مرية ، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة. وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن : اليدان والعينان والوجه ، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب اللّه العزيز ، على أن غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة والنعمة ، والوجه على الذات ، وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب ، فقد اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حتفه ، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه ، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب للّه تعالى ولرسوله صلى اللّه عليه وسلم وأهل سنته ، فانه قد أسناء عليهم الأدب ، ونسيهم بكذبه إلى الكذب ، واللّه الموفق.

وقالوا : هؤلاء شفعاؤنا ، وقالوا : لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ، وقالوا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح «1» ، وتجويز أن يخلق خلقا لا لغرض ، ويؤلم لا لعوض ،

(1). قوله «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصى ، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة ، وإيلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضا ، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما في علم الأصول ، وجوزوا عليه الرؤية وهي غير مختصة بالأجسام عندهم ، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها ، لكن لا كالأيدى. وأراد بالقدماء صفات المعاني : كالقدرة والارادة ، حيث قال أهل السنة : إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات ، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول ، فانظره. والبلكفة :
قولهم «بلا كيف». (ع)

ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ، ويجسمونه بكونه مرئيا معاينا مدركا بالحاسة ، ويثبتون له يدا وقدما وجنبا متسترين بالبلكفة ، ويجعلون له أندادا بإثباتهم معه قدماء وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ، ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب.

[سورة الزمر (39) : آية 61]

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (61)

قرئ : ينجى وينجي بِمَفازَتِهِمْ بفلاحهم ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه. وتفسير المفازة قوله لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ كأنه قيل : ما مفازتهم؟ فقيل : لا يمسهم السوء ، أى ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو بسبب منجاتهم ، من قوله تعالى فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ أى بمنجاة منه ، لأنّ النجاة من أعظم الفلاح ، وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضى اللّه عنهما المفازة بالأعمال الحسنة ، ويجوز: بسبب فلاحهم ، لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه : مفازة ، لأنه سببها. وقرئ : بمفازاتهم ، على أن لكل متق مفازة. فإن قلت : لا يَمَسُّهُمُ ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قلت : أما على التفسير الأوّل فلا محل له ، لأنه كلام مستأنف. وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

[سورة الزمر (39) : الآيات 62 إلى 63]

اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (63)

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أى هو مالك أمرها وحافظها ، وهو من باب الكناية ، لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها. وقيل : مقليد. ويقال : إقليد ، وأقاليد ، والكلمة أصلها فارسية. فإن قلت. ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟ قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملا. فإن قلت : بما اتصل قوله وَالَّذِينَ كَفَرُوا قلت : بقوله وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا أى ينجى اللّه المتقين بمفازتهم ، والذين كفروا هم الخاسرون.

واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها ، وهو مهيمن عليها ، فلا يخفي عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء ، وقد جعل متصلا بما يليه على أن كل شيء في السماوات والأرض فاللّه خالقه وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل : سأل عثمان رضى اللّه عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فقال : «يا عثمان» ما سألني عنها أحد قبلك ، تفسيرها : لا إله إلا اللّه واللّه أكبر ، وسبحان اللّه وبحمده ، وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوّة إلا باللّه ، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير» «1» وتأويله على هذا ، أن للّه هذه الكلمات يوحد بها ويمجد ، وهي مفاتيح خير السماوات والأرض : من تكلم بها من المتقين أصابه ، والذين كفروا بآيات اللّه وكلمات توحيده وتمجيده ، أولئك هم الخاسرون.

[سورة الزمر (39) : آية 64]

قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (64)

أَفَغَيْرَ اللَّهِ منصوب بأعبد. وتَأْمُرُونِّي اعتراض. ومعناه ، أفغير اللّه أعبد بأمركم ، وذلك حين قال له المشركون : استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك. أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ لأنه في معنى تعبدوننى وتقولون لي : اعبد ، والأصل : تأمروننى أن أعبد ، فحذف «أن» ورفع الفعل ، كما في قوله : ألا أيهذا الزّاجرى أحضر الوغى «2»

ألا تراك تقول : أفغير اللّه تقولون لي اعبده ، وأ فغير اللّه تقولون لي أعبد ، فكذلك أفغير اللّه تأمروننى أن أعبده. وأ فغير اللّه تأمروننى أن أعبد ، والدليل على صحة هذا الوجه : قراءة من قرأ أَعْبُدُ بالنصب. وقرئ : تأمروننى، على الأصل. وتأمرونى ، على إدغام النون أو حذفها.

[سورة الزمر (39) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

قرئ : ليحبطنّ عملك ، وليحبطنّ : على البناء للمفعول. ولنحبطنّ ، بالنون والياء ، أى : ليحبطنّ اللّه. أو الشرك. فإن قلت : الموحى إليهم جماعة ، فكيف قال لَئِنْ أَشْرَكْتَ على التوحيد؟ قلت : معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله ، أو أوحى إليك وإلى كل واحد منهم : لئن أشركت كما تقول

(1). أخرجه أبو يعلى وابن أبى حاتم والعقيلي والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بنى تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم. وعبد الرحمن بن عدى عن عبد اللّه بن عمر به ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. وله وجه آخر عند ابن مردويه. من طريق كلب بن وائل عن عمر ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى ابن عباس «أن عثمان - فذكره» وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 159 فراجعه إن شئت اه مصححه.

قلت : هو على سبيل الفرض ، والمحالات يصح فرضها لأغراض ، فكيف بما ليس بمحال. ألا ترى إلى قوله وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً يعني على سبيل الإلجاء ، ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه. فإن قلت : ما معنى قوله وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ؟ قلت : يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل. ويحتمل : ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة. ويجوز أن يكون غضب اللّه على الرسول أشدّ ، فلا يمهله بعد الردة : ألا ترى إلى قوله تعالى إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَضِعْفَ الْمَماتِ ، بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم ، كأنه قال : لا تعبد ما أمروك بعبادته ، بل إن كنت عاقلا فاعبد اللّه ، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا منه «1» وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ على ما أنعم به عليك ، من أن جعلك سيد ولد آدم. وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه ، تقديره : بل اللّه أعبد فاعبد.

[سورة الزمر (39) : آية 67]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وقرئ بالتشديد على معنى : وما عظموه كنه تعظيمه ، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين «2»

(1). قال محمود : «أصل الكلام : إن كنت عابدا فاعبد اللّه ، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضا منه.
اه كلامه» قال أحمد : مقتضى كلام سيبويه في أمثال هذه الآية : أن الأصل فيه فاعبد اللّه ، ثم حذفوا الفعل الأول اختصارا ، فلما وقعت الفاء أولا استنكروا الابتداء بها ، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه ، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظا ودالة على أن ثم محذوفا اقتضى وجودها ، ولتعطف عليه ما بعدها وينضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر ، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص.
(2). قال محمود : «الغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أن حبرا جاء إليه فقال : يا أبا القاسم ، إن اللّه يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتعجب مما قال الحبر ثم قرأ هذه الآية تصديقا له ، فإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخييل ، ثم قال : وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخييل قد زلت فيه الأقدام قديما. اه كلامه» قال أحمد: إنما عنى بما أجراه هاهنا من لفظ التخييل التمثيل ، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام لا تليق به بوجه من الوجوه ، واللّه أعلم.

إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل «1» جاء إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا أبا القاسم ، إن اللّه يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ، ثم يهزهنّ فيقول أنا الملك «2» فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تعجبا مما قال ثم قرأ تصديقا له وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... الآية وإنما ضحك أفصح العرب صلى اللّه عليه وسلم وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه ، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق

(1). قوله «أن جبريل جاء إلى رسول اللّه» قيل : الصواب أنه حبر من أحبار اليهود لا جبريل. ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي ، كذا بهامش. ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في ندائه صلى اللّه عليه وسلم. (ع)
(2). متفق عليه من حديث ابن مسعود. «تنبيه» وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف. والذي في الصحيح «جاء حبر من اليهود» وفي رواية «أن يهوديا» وفي رواية «أن رجلا من أهل الكتاب».
(3). قوله «و عليته» أى معظمه. (ع)
(4). قوله «و ما أتى الزالون» أى أجيبوا (ع)
(5). قوله «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع ، وتكون خبزته غليظة شبيهة يخبز الملة. (ع)
(6). قوله «قبيلا منه من دبير» في الصحاح «القبيل» : ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله. وفيه «الدبير» : ما تدبره به المرأة من غزلها حين تفتله. ومنه قيل : فلان ما يعرف قبيلا من دبير. (ع)

فهو مقتض للمبالغة ، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر ، ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة ، ولكن عن الأراضى كلهن. والقبضة : المرة من القبض فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ والقبضة - بالضم - : المقدار المقبوض بالكف ، ويقال أيضا : أعطنى قبضة من كذا : تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر ، كما روى : «1» أنه نهى عن خطفة السبع ، «2» وكلا المعنيين محتمل. والمعنى : والأرضون جميعا قبضته ، أى : ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة ، يعنى أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته ، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة ، كما تقول : الجزور أكلة لقمان ، والقلة جرعته ، أى : ذات أكلته وذات جرعته ، تريد : أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته ، وجرعة فردة من جرعاته.

وإذا أريد معنى القبضة فظاهر ، لأن المعنى : أن الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة.

فإن قلت. ما وجه قراءة من قرأ قَبْضَتُهُ بالنصب؟ قلت : جعلها ظرفا مشبها للمؤقت بالمبهم : مَطْوِيَّاتٌ من الطى الذي هو ضدّ النشر ، كما قال تعالى يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه. وقيل : قبضته : ملكه بلا مدافع ولا منازع ، وبيمينه : بقدرته. وقيل : مطويات بيمينه مفنيات بقسمه ، لأنه أقسم أن يفنيها ، ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله ، ثم يبكى حمية لكلام اللّه المعجز بفصاحته ، وما منى «3» به من أمثاله ، وأثقل منه على الروح ، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله ، واستحسانهم له ، وحكايته على فروع المنابر ، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين. وقرئ : مطويات على نظم السماوات في حكم الأرض ، ودخولها تحت القبضة ، ونصب مطويات على الحال سُبْحانَهُ وَتَعالى ما أبعد من هذه قدرته وعظمته ، وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

[سورة الزمر (39) : آية 68]

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (68)

(1). لم أجده هكذا. وروى أحمد وإسحاق وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد اللّه بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد ابن المسيب أنه سمع أبا الدرداء يقول «نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أكل كل خطفة ونهبة والمجثمة وكل ذى ناب من السباع» ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبى أوس عن الزهري عن أبى إدريس عن أبى ثعلبة ، بلفظ «نهي عن الخطفة والمجثمة والنهبة ، وكل ذى ناب من السباع». [.....]
(2). قوله «نهى عن خطفة السبع» أى : والمراد مخطوفه. (ع)
(3). قوله «و ما منى به» أى ابتلى. (ع)

فإن قلت : أُخْرى ما محلها من الإعراب؟ قلت : يحتمل الرفع والنصب : أما الرفع فعلى قوله فَإِذا نُفِخَ «1» فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ والمعنى : ونفخ في الصور نفخة واحدة ، ثم

[سورة الزمر (39) : الآيات 69 إلى 70]

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (70)

قد استعار اللّه عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل ، وهذا من ذاك. والمعنى وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات ، وينادى عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه ، لأنه هو الحق العدل. وإضافة اسمه إلى الأرض ، لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله ، وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها ، وإنما يجوز فيها غير ربها ، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور. وترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك ، وأضاءت الدنيا بقسطك ، كما تقول : أظلمت البلاد بجور فلان. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : الظلم ظلمات يوم القيامة» «2» وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفي الظلم. وقرئ : وأشرقت على البناء للمفعول ، من شرقت بالضوء تشرق : إذا امتلأت به واغتصت. وأشرقها اللّه ، كما تقول : ملأ الأرض عدلا وطبقها عدلا.

والْكِتابُ صحائف الأعمال ، ولكنه اكتفى باسم الجنس ، وقيل : اللوح المحفوظ الشُّهَداءِ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار. وقيل : المستشهدون في سبيل اللّه

(1). قوله «أما الرفع فعلى قوله فإذا نفخ» أى في الحافة. وقوله «من قرأ» أى : هناك. وقوله «حذفت» أى هنا. (ع)
(2). متفق عليه من حديث ابن عمر. ولمسلم عن جابر والنسائي وأبى داود من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص

[سورة الزمر (39) : الآيات 71 إلى 72]

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)

الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض ، وقد تزمروا «1» : قال : حتّي احزألّت زمر بعد زمر «2» وقيل في زمر الذين اتقوا : هي الطبقات المختلفة : الشهداء ، والزهاد ، والعلماء ، والقرّاء وغيرهم وقرئ : نذر منكم. فإن قلت : لم أضيف إليهم اليوم؟ قلت : أرادوا لقاء وقتكم هذا ، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضا في أوقات الشدّة قالُوا بَلى أتونا وتلوا علينا ، ولكن وجبت علينا كلمة اللّه لأملأنّ جهنم ، لسوء أعمالنا ، كما قالوا : غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال. واللام في المتكبرين للجنس ، لأنّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ فاعل بئس ، وبئس فاعلها : اسم معرف بلام الجنس. أو مضاف إلى مثله ، والمخصوص بالذم محذوف ، تقديره : فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

[سورة الزمر (39) : الآيات 73 إلى 74]

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (73) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (74)

(1). قوله «و قد تزمروا» وفي نسخة أخرى : تزامروا. وفي الصحاح : احزألت الإبل في السير : ارتفعت. (ع)
(2) إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمر بعد زمر
«السيوب» في الأصل : السيول ، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية. والغمر : ترشيح ، أى : أن طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا. واحزألت : ارتفعت سائرة من عنده «زمر» : أى أفواج بعد أفواج.

ويروى : زمرا ، على الحال ، أى : احزألت العفاة حال كونها أفواجا متتابعة. وعلى الأول ففيه إظهار في موضع الإضمار ، دلالة على التكثير.

حَتَّى هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية ، إلا أنّ جزاءها محذوف ، وإنما حذف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف ، وحق موقعه ما بعد خالدين. وقيل : حتى إذا جاؤها ، جاؤها وفتحت أبوابها ، أى مع فتح أبوابها.

وقيل : أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها. وأما أبواب الجنة فمتقدّم فتحها ، بدليل قوله جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ فلذلك جيء بالواو ، كأنه قيل : حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعا بلفظ السوق؟ قلت : المراد بسوق أهل النار : طردهم إليها بالهوان والعنف ، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة : سوق مراكبهم ، لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، وحثها إسراعا بهم إلى دار الكرامة والرضوان ، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك ، فشتان ما بين السوقين طِبْتُمْ من دنس المعاصي ، وطهرتم من خبث الخطايا فَادْخُلُوها جعل دخول الجنة مسببا عن الطيب والطهارة ، فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين ، لأنها دار طهرها اللّه من كل دنس ، وطيبها من كل قذر ، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها ، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة ، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة ، إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحا ، تنقى أنفسنا من درن الذنوب ، وتميط وضر هذه القلوب خالِدِينَ مقدرين الخلود الْأَرْضَ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرا ومتبوّأ ، وقد أورثوها : أى ملكوها وجعلوا ملوكها ، وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن ، تشبيها بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه ، وذهابه في إنفاقه طولا وعرضا. فإن قلت : ما معنى قوله حَيْثُ نَشاءُ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت : يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة ، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

[سورة الزمر (39) : آية 75]

وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ(75)

حَافِّينَ محدقين من حوله يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ يقولون : سبحان اللّه والحمد للّه ، متلذذين لا متعبدين. فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله بَيْنَهُمْ؟ قلت : يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم ، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل ، وأن يرجع إلى الملائكة ، على أن ثوابهم - وإن كانوا معصومين جميعا - لا يكون على سنن واحد ، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم ، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت : قوله وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ من القائل ذلك؟ قلت : المقضى بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة ، كأنه قيل : وقضى بينهم بالحق ، وقالوا الحمد للّه على قضائه بيننا بالحق ، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه.
عن عائشة رضى اللّه عنها : أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر «1»

سورة المؤمن

مكية. قال الحسن : إلا قوله وسبح بحمد ربك ، لأن الصلوات نزلت بالمدينة وقد قيل في الحواميم كلها : أنها مكيات : عن ابن عباس وابن الحنفية وهي خمس وثمانون آية ، وقيل ثنتان وثمانون [نزلت بعد الزمر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة غافر (40) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3)

قرئ بإمالة ألف «حا» وتفخيمها ، وبتسكين الميم وفتحها. ووجه الفتح : التحريك لالتقاء الساكنين ، وإيثار أخف الحركات ، نحو أين وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنة أعجمى نحو قابيل وهابيل. التوب والثوب والأوب : أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزياد. يقال : لفلان على فلان طول ، والإفضال. يقال : طال عليه وتطوّل ، إذا تفضل. فإن قلت : كيف اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا ، والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف؟ قلت : أمّا غافر الذنب وقابل التوب فمعرفتان ، لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين ، وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن. أو غدا حتى يكونا في

(1). أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبى أمامة عن عائشة في أثناء حديث ، وأخرجه أحمد وإسحاق وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه.

تقدير الانفصال ، فتكون إضافتهما غير حقيقية ، وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه ، فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش. وأما شديد العقاب فأمره مشكل ، لأنه في تقدير : شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير ، وقد جعله الزجاج بدلا. وفي كونه بدلا وحده بين الصفات نبوّ ظاهر. والوجه أن يقال : لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة ، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف ، ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن ، فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز ، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل «1» ولقائل أن يقول : هي صفات ، وإنما حذف الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظا ، فقد غيروا كثيرا من كلامهم عن قوانينه لأجل الازدواج ، حتى قالوا : ما يعرف سحادليه من عنادليه ، فثنوا ما هو وتر لأجل ما هو شفع ، على أنّ الخليل قال في قولهم ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك ، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف.

ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره ، وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. ويجوز أن يقال : هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال. فإن قلت : ما بال الواو في قوله وَقابِلِ التَّوْبِ؟ قلت : فيها نكتة جليلة ، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات. وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأن لم يذنب ، كأنه قال : جامع المغفرة والقبول.

وروى أنّ عمر رضى اللّه عنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام ، فقيل له : تتابع في هذا الشراب ، فقال عمر لكاتبه : اكتب ، من عمر إلى فلان : سلام عليك ، وأنا أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو : بسم اللّه الرحمن الرحيم : حم إلى قوله إليه المصير. وختم الكتاب وقال لرسوله : لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول :

(1). قال محمود : «فان قلت لما اختلفت هذه الصفات تعريفا وتنكيرا والموصوف معرفة يقتضى أن يكون مثله معارف؟ وأجاب بأن غافر الذنب وقابل التوب معرفان ، لأنهما صفتان لازمتان ، وليستا لحدوث الفعل حتى يكونا حالا أو استقبالا ، بل إضافتهما حقيقة. وأما شديد العقاب فلا شك في أن إضافته غير حقيقية ، يريد :
لأنه من الصفات المشبهة ، ولا تكون إضافتها محضة أبدا. عاد كلامه قال : وجعله الزجاج بدلا وحده ، وانفراد البدل من بين الصفات فيه نبو ظاهر. والوجه أن يقال : إن جميعها أبدال غير أوصاف ، لوقوع هذه النكرة التي لا يصح أن تكون صفة كما لو جاءت قصيدة

قد وعدني اللّه أن يغفر لي ، وحذرني عقابه ، فلم يبرح يردّدها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال : هكذا فاصنعوا ، إذا رأيتم أخاكم قد زلّ زلة فسدّدوه ووقفوه ، وادعوا له اللّه أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه «1».

[سورة غافر (40) : آية 4]

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (4)

سجل على المجادلين في آيات اللّه بالكفر : والمراد : الجدال بالباطل ، من الطعن فيها ، والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور اللّه ، وقد دلّ على ذلك وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فأما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ، ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها ، فأعظم جهاد في سبيل اللّه ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ جدالا في القرآن كفر» «2» وإيراده منكرا ، وإن لم يقل : إنّ الجدال ، تمييز منه بين جدال وجدال. فإن قلت : من أين تسبب لقوله فَلا يَغْرُرْكَ ما قبله؟ قلت : من حيث إنهم لما كانوا مشهودا عليهم من قبل اللّه بالكفر ، والكافر لا أحد أشقى منه عند اللّه : وجب على من تحقق ذلك أن لا نرجح أحوالهم في عينه ، ولا يغره إقبالهم في دنياهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة ، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ، ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون ، فانّ مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ، ووراءه شقاوة الأبد. ثم ضرب لتكذيبهم وعداوتهم للرسل وجدالهم بالباطل وما ادّخر لهم من سوء العاقبة مثلا : ما كان من نحو ذلك من الأمم ، وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه. وقرئ : فلا يغرّك.

[سورة غافر (40) : آية 5]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (5)

الْأَحْزابُ الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

(1). أخرجه أبو نعيم في ترجمة يزيد الأصم من روآية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان عن يزيد الأصم «أن رجلا كان ذا بأس - فذكره بتمامه» ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن كثير بن هشام باختصار. وكذا ابن أبي حاتم والثعلبي.
(2). أخرجه الطيالسي. ومن طريقه البيهقي في الشعب في التاسع عشر من حديث عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما بلفظ «لا تجادلوا في القرآن فان جدالا فيه كفر» وفي الباب عن أبى هريرة بلفظ «مراه في القرآن كفر» في الصحيح والسنن

من هذه الأمم التي هي قوم نوح والأحزاب بِرَسُولِهِمْ وقرئ برسولها لِيَأْخُذُوهُ ليتمكنوا منه ، ومن الإيقاع به وإصابته بما أرادوا من تعذيب أو قتل. ويقال للأسير : أخيذ فَأَخَذْتُهُمْ يعنى أنهم قصدوا أخذه ، فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه أن أخذتهم فَكَيْفَ كانَ عِقابِ فإنكم تمرون على بلادهم ومساكنهم فتعاينون أثر ذلك. وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

[سورة غافر (40) : آية 6]

وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (6)

أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ في محل الرفع بدل من كَلِمَةُ رَبِّكَ أى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار. ومعناه : كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل ، كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة ، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل. والذين كفروا : قريش ، ومعناه. كما وجب إهلاك أولئك الأمم ، كذلك وجب إهلاك هؤلاء ، لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار. قرئ : كلمات.

[سورة غافر (40) : الآيات 7 إلى 9]

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (7) رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (8) وَقِهِمُ السَّيِّئاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (9)

روى أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق اللّه من الملائكة» «1» فإن خلقا من الملائكة يقال له إسرافيل : زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه في الأرض السفلى ، وقد مرق رأسه من سبع سماوات ، وإنه ليتضاءل من عظمة اللّه حتى يصير كأنه الوصع «2». وفي الحديث : إن اللّه تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا

(1). أخرجه الثعلبي. وروى شهر بن حوشب : أن ابن عباس رفعه بهذا تعليقا ، وهو في كتاب العظمة لأبى الفتح.
(2). قوله «كأنه الوصع» طائر أصغر من العصفور. (ع)

ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة «1». وقيل : خلق اللّه العرش من جوهرة خضراء ، وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام. وقيل حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة ، يطوفون به مهللين مكبرين ، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام ، قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ومن ورائهم مائه ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ، ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر. وقرأ ابن عباس : العرش بضم العين. فإن قلت : ما فائدة قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ولا يخفى على أحد أنّ حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون؟ «2» قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فأبان بذلك فضل الإيمان. وفائدة أخرى : وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة «3» ، لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معاينين ، ولما وصفوا بالإيمان ، لأنه إنما يوصف بالإيمان : الغائب ، فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم ، علم أنّ إيمانهم وإيمان من في الأرض وكل من غاب عن ذلك المقام سواء : في أنّ إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير ، إلا هذا ، وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا ، وأنه منزه عن صفات الأجرام. وقد روعي التناسب في قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا كأنه قيل : ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة ، وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن.

(1). لم أجده.
(2). قال محمود : «إن قلت. ما فائدة قوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ولا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة مؤمنون باللّه تعالى ... الخ» قال أحمد : كلام حسن إلا استدلاله بقوله وَيُؤْمِنُونَ بِهِ على أنهم ليسوا مشاهدين ، فهذا لا يدل ، لأن الايمان هو التصديق غير مشروط فيه غيبة المصدق به ، بدليل صحة إطلاق الايمان بالآيات مع أنها مشاهدة ، كانشقاق القمر وقلب العصاحية. وإنما نقب الزمخشري بهذا التكلف عما في قلبه من مرض ، لكنه طاح بعيدا عن الغرض ، فقرر أن حملة العرش غير مشاهدين ، بدليل قوله تعالى وَيُؤْمِنُونَ لأن معنى الايمان عنده التصديق بالغائب. ثم يأخذ من كونهم غير مشاهدين : أن الباري عز وجل لو صحت رؤيته لرأوه ، فحيث لم يروه لزم أن تكون رؤيته تعالى مما لا يصححه العقل ، وقد أبطلنا ما ادعاه من أن الايمان مستلزم عدم الرؤية ، ولو سلمناه فلا نسلم أنه يلزم من كون حملة العرش غير مشاهدين له تعالى أن تكون رؤيته غير صحيحة ، وقوله : ولو كانت صحيحة لرأوه :
شرطية عقيمة الانتاج ، لأن الرؤية عبارة عن إدراك : يخلق اللّه تعالى هذا الإدراك لحملة العرش ، إلا أن يذهب بالزمخشرى الوهم إلى أن مصححى الرؤية يعتقدون الجسمية والاستقرار على العرش ، فيلزمهم رؤية حملة العرش له تعالى اللّه عن ذلك ، وحاشى أهل السنة ومصححى الرؤية من ذلك. [.....]
(3). قوله «كما تقول المجسمة» يريد أهل السنة ، لأنهم لما جوزوا رؤيته تعالى معاينة : لزمهم القول بأنه تعالى جسم ، ولكن الرؤية لا تستلزم الجسمية ، خلافا للمعتزلة ، كما بين في علم التوحيد. (ع)

فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ، ولا بين سماوي وأرضى قط ، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلى والتناسب الحقيقي ، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض. قال اللّه تعالى وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ. أى يقولون رَبَّنا وهذا المضمر يحتمل أن يكون بيانا ليستغفرون مرفوع المحل مثله ، وأن يكون حالا. فإن قلت : تعالى اللّه عن المكان ، فكيف صحّ أن يقال : وسع كل شي ء؟ قلت : الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى. والأصل : وسع كل شيء رحمتك وعلمك ، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم ، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم ، كأن ذاته

(1). قال محمود : «فان قلت قد ذكر أولا الرحمة والعلم ، ثم ذكر ما توجبه الرحمة وهو الغفران ، فأين موجب العلم؟ وأجاب بأن معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك ... الخ» قال أحمد : كلامه هاهنا محشو بأنواع الاعتزال : منها اعتقاد وجوب مراعاة المصلحة ودواعي الحكم على اللّه تعالى. ومنها اعتقاد أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر وجوبا وإن لم يكن توبة. ومنها اعتقاد امتناع غفران اللّه تعالى للكبائر التي لم يتب عنها. ومنها اعتقاد وجوب قبول التوبة على اللّه تعالى. ومنها جحد الشفاعة ، واعتقاد أهل السنة أن اللّه تعالى لا يجب عليه مراعاة المصلحة ، وأنه يجوز أن يعذب على الصغائر وإن اجتنب الكبائر ، وأنه يجوز أن يغفر الكبائر ما عدا الشرك وإن لم يتب منها ، وأن قبول التوبة بفضله ورحمته ، لا بالوجوب عليه ، وأنها تنال أهل الكبائر المصرين من الموحدين ، فهذه جواهر خمسة نسأل اللّه تعالى أن يقلد عقائل عقائدنا بها إلى الخاتمة ، وأن لا يحرمنا ألطافه ومراحمه آمين. وجميع ما يحتاج إلى تزييفه مما ذكره على قواعد الاعتزال في هذا الموضع قد تقدم ، غير أنه جدد هاهنا قوله : إن فائدة الاستغفار كفائدة الشفاعة ، وذلك مزيد الكرامة لا غير ، يريد : أن المغفرة للتائب واجبة على اللّه فلا تسئل ، وهذا الذي قاله مما يجعل لنفسه فيه الفضيحة ، زادت على بطلانه هذه الآية بالألسن الفصيحة ، كيف يجعل المسئول مزيدة الكرامة لا غير. ونص الآية : فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، فهي ناطقة بأنهم يسألون من اللّه تعالى المغفرة للتائب ووقاية عذاب الجحيم ، وهو الذي أنكر الزمخشري كونه مسؤلا.
(2). قوله «التي نهجها» أى : أبانها وأوضحها. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة غافر (40) : الآيات 10 إلى 12]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (10) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (12)

أى ينادون يوم القيامة ، فيقال لهم : لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ والتقدير : لمقت اللّه أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم ، فاستغنى بذكرها مرة. وإِذْ تُدْعَوْنَ منصوب بالمقت الأوّل. والمعنى : أنه يقال لهم يوم القيامة : كان اللّه يمقت أنفسكم الأمارة بالسوء والكفر ، حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان ، فتأبون قبوله وتختارون عليه الكفر أشدّ مما تمقتونهن اليوم وأنتم في النار إذا أوقعتكم فيها باتباعكم هواهنّ. وعن الحسن : لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم ، فنودوا لمقت اللّه. وقيل : معناه لمقت اللّه إياكم الآن أكبر من مقت بعضكم لبعض ، كقوله تعالى يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وإِذْ تُدْعَوْنَ : تعليل. والمقت : أشدّ البغض ، فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشدّه اثْنَتَيْنِ إماتتين وإحياءتين. أو موتتين وحياتين.

وأراد بالإماتتين : خلقهم أمواتا أوّلا ، وإماتتهم عند انقضاء آجالهم ، وبالإحياءة الإحياءة الأولى وإحياءة البعث. وناهيك تفسيرا لذلك قوله تعالى وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ وكذا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما. فإن قلت : كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتا : إماتة؟ قلت : كما صح أن تقول : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل! وقولك للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ، ولا من ضيق إلى سعة ، ولا من سعة إلى ضيق. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معا على المصنوع الواحد ، من غير ترجح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة. فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما «1» على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه ،

(1). قال محمود : «إحدى الإماتتين خلقهم أمواتا أولا ، والأخرى إماتتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم قال : فان قلت كيف سمى خلقه لهم أمواتا إماته ، وأجاب بأنه كما يقال : سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل ، وكما يقال للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس ثم نقل من صغر إلى كبر ولا عكسه ، ولا من ضيق إلى سعة ولا عكسه. وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات. والسبب في صحته أن الكبر والصغر جائزان معا على المصنوع الواحد ، وكذلك الضيق والسعة ، فإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن من الآخر ، جعل صرفا عن الآخر وهو متمكن منه» قال أحمد : ما أسد كلامه هاهنا حيث صادق التمسك بأذيال نظر مالك رحمه اللّه في مسألة ما إذا باعه إحدى وزنتين معينتين على اللزوم لإحداهما والخيرة في عينها ، فانه منع من ذلك ، لأن المشترى لما كان متمكنا من تعيين كل واحدة منهما على سواء ، فإذا عين واحدة منهما بالاختيار نزل عدوله عن الأخرى ، وقد كان

ومن جعل الإماتتين التي بعد حياة حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياآت ، وهو خلاف ما في القرآن ، إلا أن يتمحل فيجعل إحداها غير معتدّ بها. أو يزعم أن اللّه تعالى يحييهم في القبور ، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها ، ويعدّهم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ. فإن قلت : كيف تسبب هذا لقوله تعالى فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا؟ قلت : قد أنكروا البعث فكفروا ، وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى ، لأن من لم يخش العاقبة تخرق «1» في المعاصي ، فلما رأوا الإماتة والإحياء قد تكرّرا عليهم ، علموا بأن اللّه قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء ، فاعترفوا بذنوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ أى إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء مِنْ سَبِيلٍ قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه. وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط. وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله ذلِكُمْ أى ذلكم الذي أنتم فيه ، وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد اللّه وإيمانكم بالإشراك «2» به فَالْحُكْمُ لِلَّهِ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد : وقوله الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ دلالة على الكبرياء والعظمة ، وعلى أن عقاب مثله لا يكون إلا كذلك ، وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته. وقيل : كأن الحرورية «3» أخذوا قولهم : لا حكم إلا للّه ، من هذا.

(1). قوله «تخرق في المعاصي» في الصحاح : يقال : هو يتخرق في السخاء ، إذا توسع فيه. (ع)
(2). قال محمود : «أى إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء من سبيل قط ، أم اليأس واقع دون ذلك ، فلا خروج ولا سبيل إليه ، وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط ، وإنما يقولون ذلك تعللا وتحيرا ، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك ، وهو قوله ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ معناه : أن اعتياض السبيل إلى خروجكم من النار سببه كفركم بتوحيد اللّه تعالى ، وإيمانكم بالاشراك» قال أحمد : وعلى هذا النمط بنى الشعراء مثل قولهم :
هل إلى نجد وصول وعلى الخيف نزول
وإنما قصدهم أن هذا أمر غالب فيه اليأس على الطمع.
(3). قوله «الحرورية» في الصحاح : أنها طائفة من الخوارج تنسب إلى «حرور» اسم قرية ، وكأنه يريد أهل السنة ، فإنهم الذين اشتهر عنهم هذا القول ، خلافا للمعتزلة في قولهم : إن الفعل قد يدرك الحكم قبل ورود الشرع ، كما بين في الأصول. (ع)

[سورة غافر (40) : الآيات 13 إلى 16]

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آياتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ (13) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (14) رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (16)

يُرِيكُمْ آياتِهِ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها. والرزق : المطر ، لأنه سببه وَما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ وما يتعظ وما يعتبر بآيات اللّه إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى اللّه ، فإن المعاند لا سبيل إلى تذكره واتعاظه ، ثم قال للمنيبين فَادْعُوا اللَّهَ أى اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من الشرك. وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم. رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ ثلاثة أخبار ، لقوله «هو» مترتبة على قوله الَّذِي يُرِيكُمْ أو أخبار مبتدإ محذوف ، وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا. وقرئ : رفيع الدرجات بالنصب على المدح. ورفيع الدرجات ، كقوله تعالى ذِي الْمَعارِجِ وهي مصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش ، وهي دليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير : سماء فوق سماء. والعرش فوقهن. ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلوّ سلطانه ، كما أنّ ذا العرش عبارة عن ملكه. وقيل : هي درجات ثوابه التي ينزلها أولياءه في الجنة الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ الذي هو سبب الحياة من أمره ، يريد : الوحى الذي هو أمر بالخير وبعث عليه ، فاستعار له الروح ، كما قال تعالى أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ لِيُنْذِرَ اللّه. أو الملقى عليه : وهو الرسول أو الروح. وقرئ : لتنذر ، أى : لتنذر الروح لأنها تؤنث ، أو على خطاب الرسول. وقرئ : لينذر يوم التلاق ، على البناء للمفعول وَيَوْمَ التَّلاقِ يوم القيامة ، لأن الخلائق تلتقي فيه. وقيل : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقيل : المعبود والعابد يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء ، لأنّ الأرض بارزة قاع صفصف ، ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء في الحديث «يحشرون عراة حفاة غرلا» «1» لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ أى من أعمالهم وأحوالهم. وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : لا يخفى عليه منهم شيء. فإن قلت : قوله لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ : بيان وتقرير لبروزهم ، واللّه تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا ، فما معناه؟ قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب : أنّ اللّه لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه. قال اللّه تعالى : ولكن ظننتم أنّ اللّه لا يعلم كثيرا مما تعملون. وقال تعالى :

(1). متفق عليه من حديث عائشة رضى اللّه عنها.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ

وذلك لعلمهم أنّ الناس يبصرونهم ، وظنهم أن اللّه لا يبصرهم ، وهو معنى قوله وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به. ومعناه : أنه ينادى مناد فيقول : لمن الملك اليوم؟ فيجيبه أهل المحشر : للّه الواحد القهار. وقيل : يجمع اللّه الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص اللّه فيها قط «فأوّل ما يتكلم به أن ينادى مناد : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ ... الآية فهذا يقتضى أن يكون المنادى هو المجيب.

[سورة غافر (40) : آية 17]

الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (17)

لما قرّر أن الملك للّه وحده في ذلك اليوم عدّد نتائج ذلك ، وهي أنّ كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون ، لأن اللّه ليس بظلام للعبيد ، وأن الحساب لا يبطئ ، لأن اللّه لا يشغله حساب عن حساب ، فيحاسب الخلق كله في وقت واحد وهو أسرع الحاسبين. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إذا أخذ في حسابهم لم يقل «1» أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

[سورة غافر (40) : آية 18]

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ (18)

الآزفة : القيامة ، سميت بذلك لأزوفها ، أى : لقربها. ويجوز أن يريد بيوم الآزفة : وقت الخطة الآزفة ، وهي مشارفتهم دخول النار ، فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها فتلصق بحناجرهم ، فلا هي تخرج فيموتوا ، ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفسوا ويتروّحوا ، ولكنها معترضة كالشجا ، كما قال تعالى فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا. فإن قلت : كاظِمِينَ بم انتصب؟

قلت : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها. ويجوز أن يكون حالا عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر ، وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال تعالى رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ وقال فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ وتعضده قراءة من قرأ : كاظمون. ويجوز أن يكون حالا عن قوله : وأنذرهم ، أى : وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ الحميم : المحب المشفق. والمطاع : مجاز في المشفع ، لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فوقك. فإن قلت : ما معنى قوله تعالى:

(1). قوله «لم يقل أهل الجنة إلا فيها» من قال يقيل قيلولة. (ع)

وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ؟ قلت : يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معا ، وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة ، «1» كما تقول : ما عندي كتاب يباع ، فهو محتمل نفى البيع وحده ، وأن عندك كتابا إلا أنك لا تبيعه ، ونفيهما جميعا، وأن لا كتاب عندك ، ولا كونه مبيعا. ونحوه : ولا ترى الضّبّ بها ينجحر «2»

يريد : نفى الضب وانجحاره. فإن قلت : فعلى أى الاحتمالين يجب حمله؟ قلت : على نفى الأمرين جميعا ، من قبل أن الشفعاء هم أولياء اللّه ، وأولياء اللّه لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه اللّه ورضيه ، وأن اللّه لا يحب الظالمين ، فلا يحبونهم ، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم.

قال اللّه تعالى وَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ وقال : وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل ، «3» وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب ، بدليل قوله تعالى وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وعن الحسن رضى اللّه عنه : واللّه ما يكون لهم شفيع البتة ، فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قلت : في ذكرها فائدة جليلة ، وهي أنها ضمت إليه ، ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد

(1). قال محمود : «يحتمل أن يكون المنفي الشفيع الذي هو الموصوف وصفته وهي الطاعة ، ويحتمل أن يكون المنفي الصفة وهي الطاعة والشفيع ثابت» قال أحمد : إنما جاء الاحتمال من حيث دخول النفي على مجموع الموصوف والصفة. ونفى المجموع ، كما يكون بنفي كل واحد من جزئيه ، وكذلك يكون بنفي أحدهما ، على أن المراد هنا - كما قال - : نفى الأمرين جميعا. قال : وفائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفى الصفة ، لأنه إذا انتفى الموصوف انتفت الصفة قطعا ، قلت : فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 426 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «لا تكون إلا في زيادة التفضل» هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتكون في الخروج من النار أيضا ، كما تقرر في التوحيد. وحديث الشفاعة مشهور ، نعم الكفار لا خروج لهم من النار. (ع)
(4). قوله «موضع الأمر المعروف» أى الذي يعرفه السامع ويسلمه ، كما هو شأن الشاهد على الدعوى ، وإذا كان انتفاء الشفيع معروفا فلا ينتفي أن يتوهم وجوده ، وبهذا يتبين قوله فيما سبق ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف. (ع)

[سورة غافر (40) : آية 19]

يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ (19)

الخائنة : صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب ، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله وَما تُخْفِي الصُّدُورُ لا يساعد عليه «1». فإن قلت : بم اتصل قوله يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ؟

قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ مثل يُلْقِي الرُّوحَ ولكن يُلْقِي الرُّوحَ قد علل بقوله لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ فبعد لذلك عن أخواته.

[سورة غافر (40) : آية 20]

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (20)

وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ يعنى : والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل.

لاستغنائه عن الظلم. وآلهتكم لا يقضون بشيء ، وهذا تهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه : يقضى، أو لا يقضى إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ تقرير لقوله يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَما تُخْفِي الصُّدُورُ ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون اللّه ، وأنها لا تسمع ولا تبصر. وقرئ : يدعون ، بالتاء والياء.

[سورة غافر (40) : الآيات 21 إلى 22]

أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (21) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (22)

هُمْ في كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ فصل. فإن قلت : من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين ، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشدّ منهم. قلت : قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام ، فأجرى مجراها. وقرئ : منكم ، وهي في مصاحف أهل الشأم وَآثاراً

(1). قال محمود : «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال : «و لا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى وَما تُخْفِي الصُّدُورُ قال أحمد : إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة ، وإنما يقابل الأعين الصدور ، لا ما تخفيه الصدور ، بخلاف التأويل الأول ، فان المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور. [.....]

يريد حصونهم وقصورهم وعددهم ، وما يوصف بالشدة من آثارهم. أو أرادوا : أكثر آثارا ، كقوله : متقلدا سيفا ورمحا «1»

[سورة غافر (40) : الآيات 23 إلى 25]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (23) إِلى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَقارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (24) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ(25)

وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وحجة ظاهرة وهي المعجزات ، فقالوا : هو ساحر كذاب ، فسموا السلطان المبين سحرا وكذابا فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ : بالنبوّة : فإن قلت : أما كان قتل الأبناء واستحياء النساء من قبل خيفة أن يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قلت : قد كان ذلك القتل حينئذ ، وهذا قتل آخر. وعن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله قالُوا اقْتُلُوا أعيدوا عليهم القتل كالذي كان أولا ، يريد أن هذا قتل غير القتل الأول في ضَلالٍ في ضياع وذهاب ، باطلا لم يجد عليهم ، يعنى. أنهم باشروا قتلهم أولا فما أغنى عنهم ، ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه ، فما يغنى عنهم هذا القتل الثاني ، وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان ، فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع : أعاده عليهم غيظا وحنقا ، وظنا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى ، وما علم أنّ كيده ضائع في الكرتين جميعا.

[سورة غافر (40) : آية 26]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (26)

ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى كانوا إذا همّ بقتله كفوه بقولهم : ليس بالذي تخافه ، وهو أقل من ذلك وأضعف ، وما هو إلا بعض السحرة ، ومثله لا يقاوم إلا ساحرا مثله ، ويقولون : إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة ، والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبىّ ، وأنّ ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان فيه خب وجربزة ، وكان قتالا سفاكا الدماء في أهون شيء ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه ، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك.

(1) ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سيفا ورمحا
الوغى : الحرب. ورمحا : نصب بمحذوف يناسبه ، أى : متقلدا سيفا وحاملا رمحا. وروى بدل الشطر الأول :
يا ليت زوجك قد غدا
أى ذهب إلى الحرب غدوة لابسا سلاحه.

وقوله وَلْيَدْعُ رَبَّهُ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه ، وكان قوله ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى تمويها «1» على قومه ، وإيهاما أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أن يغير ما أنتم عليه ، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام ، بدليل قوله وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ والفساد في الأرض : التفاتن والتهارج الذي يذهب معه الأمن وتتعطل المزارع والمكاسب والمعايش ، ويهلك الناس قتلا وضياعا ، كأنه قال: إنى أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه. أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه. وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو ، ومعناه. إنى أخاف فساد دينكم ودنياكم معا. وقرئ : يظهر ، من أظهر «2» ، والفساد منصوب ، أى : يظهر موسى الفساد. وقرئ يظهر ، بتشديد الظاء والهاء ، من تظهر بمعنى تظاهر ، أى : تتابع وتعاون.

[سورة غافر (40) : آية 27]

وَقالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (27)

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله : قال لقومه إِنِّي عُذْتُ بالله الذي هو ربى وربكم ، وقوله وَرَبِّكُمْ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال

[سورة غافر (40) : آية 28]

وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)

(1). قال محمود : «كانوا إذا هم بقتله كفوه عنه بقولهم : ليس هذا ممن يخاف ، وإنما هو ساحر لا يقاومه إلا مثله ، وقتله يوقع الشبهة عند الناس أنك إنما قتلته خوفا ، وكان فرعون لعنه اللّه في ظاهر أمره - واللّه أعلم - عالما أنه نبى خائفا من قتله مع رغبته في ذلك لولا الجزع ، وأراد أن يكتم خوفه من قتله بأن يقول لهم : ذروني أقتله ، ليكفوه عنه فينسب الانكفاف عن قتله إليهم ، لا إلى جزعه وخوفه. ويدل على خوفه منه لكونه نبيا قوله وَلْيَدْعُ رَبَّهُ وهذا من تمويهاته المعروفة» قال أحمد : هو من جنس قوله إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ فقد تقدم أن مراده بذلك أن يظهر لقومه قلة احتفاله بهم ، ويوهمهم أن قتله لهم ليس خوفا منهم ، ولكن غيظا عليهم ، وكان من عادته الحذر والتحصن وحماية الذريعة في المحافظة على حوزة المملكة ، لا أن ذلك خوف وهلع ، ولقد كذب ، إنما كان فؤاده مملوءا رعبا.
(2). قوله «و قرئ يظهر من أظهر» يفيد أن القراءة المشهورة : يظهر من ظهر ، والفساد مرفوع. (ع)

رَجُلٌ مُؤْمِنٌ وقرئ : رجل ، بسكون الجيم كما يقال : عضد ، في عضد وكان قبطيا ابن عم لفرعون : آمن بموسى سرا وقيل كان إسرائيليا ومِنْ آلِ فِرْعَوْنَ صفة لرجل. أو صلة ليكتم ، أى : يكتم إيمانه من آل فرعون ، واسمه : سمعان أو حبيب. وقيل : خربيل ، أو حزبيل. والظاهر : أنه كان من آل فرعون ، فإنّ المؤمنين من بنى إسرائيل لم يقلوا ولم يعزوا. والدليل عليه قول فرعون : أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ. وقول المؤمن فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا دليل ظاهر على أنه ينتصح لقومه أَنْ يَقُولَ لأن يقول. وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة ، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله رَبِّيَ اللَّهُ مع أنه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة ، ولكن بينات عدّة من عند من نسب إليه الربوبية ، وهو ربكم لا ربه وحده ، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به ، وليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم «1» ، ولك أن تقدر مضافا محذوفا ، أى : وقت أن تقول. والمعنى. أتقتلونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره. وقوله بِالْبَيِّناتِ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال : لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ أى يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ، وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ما يعدكم إن تعرّضتم له. فإن قلت : لم قال : بعض الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو نبىّ صادق ، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟

(1). قال محمود : «الظاهر أن الرجل من آل فرعون ، وقيل : إنه من بنى إسرائيل. ومن آل فرعون : متعلق بيكتم ، تقديره : يكتم إيمانه من آل فرعون ، وهو بعيد ، لأن بنى إسرائيل كان إيمانهم ظاهرا فاشيا ، ولقد استدرجهم هذا المؤمن في الايمان باستشهاده على صدق موسى بإحضاره عليه السلام من عند من تنسب إليه الربوبية ببينات عدة لا بينة واحدة ، وأتى بها معرفة ، معناه : البينات العظيمة التي شهدتموها وعرفتموها على ذلك ، ليلين بذلك جماحهم ويكسر من سورتهم ... الخ» قال أحمد : لقد أحسن الفهم والتفطن لأسرار هذا القول ، ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف دونها ، لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالا بأن الحق معه ، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة.
وقريب من هذا التصرف لابعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه ، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، حتى قيل :
إنه لما انتهى إليه قال : اللهم ما سرق هذا ولا هو بوجه سارق ، فاطمأنت أنفسهم وانزاحت التهمة عن يوسف أن يكون قصد ذلك ، فقالوا : واللّه لنفتشنه ، فاستخرجها من وعائه.

قلت : لأنه احتاج في مقاولة خصوم موسى ومنا كريه إلى أن يلاوصهم «1» ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ، ويأتيهم من وجهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردّوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا أن يتعصب له ، أو يرمى بالحصا من ورائه ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا من هذا القبيل ، وكذلك قوله إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. فإن قلت : فعن أبى عبيدة أنه فسر البعض بالكل ، وأنشد بيت لبيد :

ترّاك امكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها «2»

قلت : إن صحت الرواية عنه. فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقى : كان أجفى من أن يفقه ما أقول له إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ يحتمل أنه كان مسرفا كذابا خذله اللّه وأهلكه ولم يستقم له أمر ، فيتخلصون منه. وأنه لو كان مسرفا كذاباً لما هداه اللّه للنبوّة ، ولما عضده بالبينات. وقيل : ما تولى أبو بكر من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان أشدّ من ذلك طاف صلى اللّه عليه وسلم بالبيت ، فلقوه حين فرغ ، فأخذوا بمجامع ردائه فقالوا له : أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آباؤنا ، فقال : أنا ذاك ، فقام أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه فالتزمه من ورائه وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى اللّه ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، رافعا صوته بذلك ، وعيناه تسفحان ، حتى أرسلوه «3». وعن جعفر الصادق : أنّ مؤمن آل فرعون قال ذلك سرا ، وأبو بكر قاله ظاهرا.

[سورة غافر (40) : آية 29]

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشادِ (29)

ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ في أرض مصر عالين فيها على بنى إسرائيل ، يعنى : أنّ لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم ،

(1). قوله «إلى أن يلاوصهم ويداريهم» في الصحاح : فلان يلاوص الشجر ، أى : ينظر كيف يأتيها لقلعها. (ع)
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 641 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). أخرجه النسائي من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص. وابن حبان من طريق يحيى ابن عروة عن عروة عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أتم منه. قلت : علقه البخاري نحوهما.

فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ، ولا تتعرّضوا لبأس اللّه وعذابه ، فإنه لا قبل لكم به إن جاءكم ، ولا يمنعكم منه أحد. وقال يَنْصُرُنا وجاءنا ، لأنه منهم في القرابة ، وليعلمهم بأنّ الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى أى : ما أشير عليكم برأى إلا بما أرى من قتله ، يعنى : لا أستصوب إلا قتله ، وهذا الذي تقولونه غير صواب وَما أَهْدِيكُمْ بهذا الرأى إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ يريد : سبيل الصواب والصلاح.

أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، ولا أدّخر منه شيئا ، ولا أسرّ عنكم خلاف ما أظهر يعنى أنّ لسانه وقلبه متواطنان على ما يقول ، وقد كذب ، فقد كان مستشعرا للخوف الشديد من جهة موسى ، ولكنه كان يتجلد ، ولولا استشعاره لم يستشر أحدا ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ : الرشاد ، فعال من رشد بالكسر ، كعلام. أو من رشد بالفتح ، كعباد. وقيل : هو من أرشد كجبار من أجبر ، وليس بذلك ، لأنّ فعالا من أفعل لم يجئ إلا في عدّة أحرف ، نحو : درّاك وسارّ وقصار وحبار ، ولا يصح القياس على القليل. ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشد ، كعوّاج وبتات «1» ، غير منظور فيه إلى فعل.

[سورة غافر (40) : الآيات 30 إلى 31]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (31)

مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مثل أيامهم ، لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، ولم يلبس أنّ كلّ حزب منهم كان له يوم دمار ، اقتصر على الواحد من الجمع ، لأنّ المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله : كلوا في بعض بطنكمو تعفوا «2»

وقال الزجاج : مثل يوم حزب حزب ، ودأب هؤلاء : دؤوبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي ، وكون ذلك دائبا دائما منهم لا يفترون عنه ، ولا بدّ من حذف مضاف ، يريد : مثل جزاء دأبهم. فإن قلت : بم انتصب مثل الثاني؟ قلت : بأنه عطف بيان لمثل الأوّل لأنّ آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ،

(1). قوله «كعواج وبتات» أى : صاحب العاج ، والعاج : عظم الفيل. والبتات : الذي يبيع البتوت ، او يعملها. والبت : الطيلسان من الخز ، كذا في الصحاح. (ع)
(2) كلوا في بعض بطنكم تعفوا فان زمانكم زمن خميص

أى كلوا في بعض بطونكم. وأفرد البطن لأمن اللبس ، أى : لا تملؤوها ، فان أطعتمونى عففتم عن الطعام. وعف يعف - بكسر عين المضارع ، من باب ضرب يضرب ، ثم قال : فان زمانكم ، أى أمرتكم بذلك لأن زمانكم مجدب.
والخميص : الضامر البطن ، فشبه الزمان المجدب بالرجل الجائع على طريق الكناية ، ووصفه بالخمص تخييل لذلك.

ولو قلت أهلك اللّه الأحزاب : قوم نوح وعاد وثمود ، لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام ، فسرى ذلك الحكم إلى أوّل ما تناولته الإضافة وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ يعنى أن تدميرهم كان عدلا وقسطا ، لأنهم استوجبوه بأعمالهم ، وهو أبلغ من قوله تعالى وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ حيث جعل المنفي إرادة الظلم ، لأنّ من كان عن إرادة الظلم بعيدا ، كان عن الظلم أبعد. وحيث نكر الظلم ، كأنه نفى أن يريد ظلما مّا لعباده «1». ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله تعالى وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ أى لا يريد لهم أن يظلموا ، يعنى أنه دمّرهم لأنهم كانوا ظالمين «2».

[سورة غافر (40) : الآيات 32 إلى 33]

وَيا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (33)

التنادى. ما حكى اللّه تعالى في سورة الأعراف من قوله وَنادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ ، وَنادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد : وهو أن يندّ بعضهم من بعض، كقوله تعالى يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وعن الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفا ، فبيناهم يموج بعضهم في بعض : إذ سمعوا مناديا : أقبلوا إلى الحساب تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار. وعن مجاهد : فارّين عن النار غير معجزين.

[سورة غافر (40) : الآيات 34 إلى 35]

وَلَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (34) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (35)

(1). قوله «كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده» هذا على مذهب المعتزلة من أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريده ، وأن الارادة بمعنى الرضا. وعند أهل السنة أنه تعالى يخلق الشر ويريده كالخير ولا يرضى الشر ، فالرضا غير الارادة عندهم ، كما تقرر في التوحيد. (ع)
(2). قال محمود : «يجوز أن يكون معناه معنى : وما ربك بظلام للعبيد. وهذا أبلغ ، لأنه إذا لم يرد الظلم كان عن فعله الظلم أبعد ، وحيث نكر الظلم أيضا ، كأنه نفى أن يريد ظلما ما لعباده. قال : ويجوز أن يكون معناه كمعنى قوله وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ فيكون المعنى : أن اللّه لا يريد لعباده أن يظلموا ، لأنه ذمهم على كونهم ظالمين» قال أحمد : هذا من الطراز الأول ، وقد تقدم مذهب أهل السنة فيما يتعلق بارادة اللّه تعالى خلافا لهذا وأشياعه.

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام. وقيل : هو يوسف بن إبراهيم «1» بن يوسف بن يعقوب : أقام فيهم نبيا عشرين سنة. وقيل : إن فرعون موسى هو فرعون يوسف ، عمر إلى زمنه.

وقيل : هو فرعون آخر. وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات فشككتم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين حَتَّى إِذا قبض قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا حكما من عند أنفسكم من غير برهان وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل ، فإذا جاءكم رسول جحدتم وكذبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه ، وليس قولهم لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا بتصديق لرسالة يوسف ، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها ، وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته. وقرئ : ألن يبعث اللّه ، على إدخال همزة الاستفهام على حرف النفي ، كأن بعضهم يقرّر بعضا بنفي البعث. ثم قال كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ أى مثل هذا الخذلان المبين «2» يخذل اللّه كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه الَّذِينَ يُجادِلُونَ بدل من مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ فإن قلت : كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذاك موحد؟ قلت : لأنه لا يريد مسرفا واحدا ، فكأنه قال : كل مسرف. فإن قلت : فما فاعل كَبُرَ؟ قلت : ضمير من هو مسرف. فإن قلت : أما قلت هو جمع ، ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون؟ قلت : بلى هو جمع في المعنى. وأما اللفظ فموحد ، فحمل البدل على معناه ، والضمير الراجع إليه على لفظه ، وليس ببدع «3» أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى ،

(1). قوله «و قيل هو يوسف بن إبراهيم» عبارة النسفي : أفراثيم. (ع)

(2). قوله «أى مثل هذا الخذلان المبين» المعتزلة يؤولون الإضلال بالخذلان والترك ، بناء على مذهبهم : أن الله لا يخلق الشر. وأهل السنة يفسرونه بخلق الضلال في القلب ، بناء على أنه تعالى يخلق الشر كالخير كما بين في التوحيد. (ع)
(3). قال محمود : «الذين يجادلون بدل من من هو مسرف ، لأن المراد كل مسرف. وجاز إبداله على معنى من ، لا على لفظها. قال: فان قلت ما فاعل كبر؟ وأجاب بأنه ضمير من هو مسرف ، فحمل البدل على المعنى ، والضمير على اللفظ ، وليس ببدع» اه كلامه. قال أحمد : فيما ذكره معاملة لفظ من بعد معاملة معناها ، وهذا مما قدمت أن أهل العربية يستغربونه ، والأولى أن يجتنب في إعراب القرآن ، فان فيه إبهاما بعد إيضاح ، والمعهود في قراءة البلاغة عكسه ، والصواب أن يجعل الضمير في قوله كَبُرَ راجعا إلى مصدر الفعل المتقدم ، وهو قوله يُجادِلُونَ تقديره : كبر جدالهم مقتا ، ويجعل الَّذِينَ مبتدأ ، على تأويل حذف المضاف ، تقديره : جدال الذين يجادلون في آيات الله ، والضمير في قوله كَبُرَ مَقْتاً عائد إلى الجدال المحذوف ، والجملة مبتدأ وخبر. ومثله في حذف المصدر المضاف وبناء الكلام عليه : قوله تعالى أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ على أحد تأويله ، ومثله كثير. وفيه سوى ذلك من الوجوه السالمة عما ينطرق إلى الوجه المتقدم. فالوجه العدول عنه [.....]

وله نظائر ، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ، ولا بدّ في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر ، تقديره : جدال الذين يجادلون كبر مقتا ، ويحتمل أن يكون الَّذِينَ يُجادِلُونَ مبتدأ ، وبِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ خبرا ، وفاعل كبر قوله كَذلِكَ أى كبر مقتا مثل ذلك الجدال ، ويَطْبَعُ اللَّهُ كلام مستأنف ، ومن قال : كبر مقتا عند الله جدالهم ، فقد حذف الفاعل ، والفاعل لا يصح حذفه. وفي كَبُرَ مَقْتاً ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكبائر.

وقرئ : سلطان بضم اللام. وقرئ : قلب ، بالتنوين. ووصف القلب بالتكبر والتجبر ، لأنه مركزهما ومنبعهما ، كما تقول : رأت العين ، وسمعت الأذن. ونحوه قوله عز وجل فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف. أى : على كل ذى قلب متكبر ، تجعل الصفة لصاحب القلب.

[سورة غافر (40) : الآيات 36 إلى 37]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (36) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبابٍ (37)

قيل : الصرح : البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد ، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر ، وأَسْبابَ السَّماواتِ طرقها وأبوابها وما يؤدى إليها ، وكل ما أداك إلى شيء فهو سبب إليه ، كالرشاء ونحوه ، فإن قلت : ما فائدة هذا التكرير؟ ولو قيل : لعلى أبلغ أسباب السماوات لأجزأ؟ قلت : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السماوات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ، ليعطيه السامع حقه من التعجب ، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان، ثم أوضحه. وقرئ : فأطلع بالنصب «1» على جواب الترجي ، تشبيها للترجى بالتمني. ومثل ذلك التزيين وذلك الصدّ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ والمزين : إما الشيطان بوسوسته ، كقوله تعالى وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ أو الله تعالى على وجه التسبيب ، لأنه مكن»

الشيطان وأمهله. ومثله زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ وقرئ : وزين له سوء عمله «3» ،

(1). «و قرئ فأطلع بالنصب» يفيد أن القراءة المشهورة بالرفع على العطف. (ع)
(2). قوله «على وجه التسبيب لأنه مكن» أول بهذا ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلقه كالخير فلا حاجة إلى هذا التأويل ، والآية على ظاهرها. (ع)
(3). قوله «و قرئ وزين له سوء عمله» أى بدل قوله تعالى وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ. (ع)

على البناء للفاعل والفعل لله عزّ وجلّ ، دلّ عليه قوله إِلى إِلهِ مُوسى وصدّ ، بفتح الصاد وضمها وكسرها ، على نقل حركة العين إلى الفاء ، كما قيل : قيل. والتباب الخسران والهلاك.

وصدّ : مصدر معطوف على سوء عمله. وصدّوا هو وقومه.

[سورة غافر (40) : الآيات 38 إلى 39]

وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (38) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (39)

قال أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ فأجمل لهم ، ثم فسر فافتتح بذم لدنيا وتصغير شأنها ، لأنّ الإخلاد إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب جميع ما يؤدى إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة. وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها ، وأنها هي الوطن والمستقر ، وذكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ، ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ، ثم وازن بين الدعوتين : دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار ، وحذر ، وأنذر ، واجتهد في ذلك واحتشد ، لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون ، وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين ، وهو قوله تعالى فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ وفي هذا أيضا دليل بين على أنّ الرجل كان من آل فرعون. والرشاد نقيض الغى. وفيه تعريض شبيه بالتصريح أنّ ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى.

[سورة غافر (40) : آية 40]

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (40)

فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها لأنّ الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة ، لأنها ظلم. وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة ، لأنها فضل. قرئ : يدخلون ويدخلون بِغَيْرِ حِسابٍ واقع في مقابلة إلا مثلها ، يعنى : أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير ، لئلا يزيد على الاستحقاق ، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب ، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة

[سورة غافر (40) : الآيات 41 إلى 42]

وَيا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (41) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (42)

فإن قلت : لم كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ قلت : أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة. وفيه : أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم ، وهو يعلم وجه خلاصهم ، ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ، ويستدعى بذلك أن لا يتهموه ، فإنّ سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وينزلوا على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه : يا أبت. وأما المجيء بالواو العاطفة ، فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له ، فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو ، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال : دعاه إلى كذا ودعاه له ، كما تقول : هداه إلى الطريق وهداه له ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ أى بربوبيته ، والمراد بنفي العلم : نفى المعلوم ، كأنه قال : وأشرك به ما ليس بإله ، وما ليس بإله كيف يصح أن يعلم إلها «1»

[سورة غافر (40) : الآيات 43 إلى 44]

لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَلا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (43) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (44)

لا جَرَمَ سياقه على مذهب البصريين : أن يجعل لا ردّا لما دعاه إليه قومه. وجرم : فعل بمعنى حق ، وأنّ مع ما في حيزه فاعله ، أى : حق ووجب بطلان دعوته. أو بمعنى : كسب ، من قوله تعالى وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا أى : كسب ذلك الدعاء إليه بطلان دعوته ، على معنى أنه ما حصل من ذلك إلا ظهور بطلان دعوته.

ويجوز أن يقال : أن لا جرم ، نظير : لا بدّ ، فعل من الجرم ، وهو القطع ، كما أن بدّا فعل من التبديد وهو التفريق ، فكما أن معنى : لا بد أنك تفعل كذا ، بمعنى : لا بعد لك من فعله ، فكذلك لا جرم أن لهم النار ، أى : لا قطع لذلك ، بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع ، لبطلان دعوة الأصنام ، أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقا. وروى عن العرب : لا جرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء ، بزنة بد، وفعل وفعل : أخوان. كرشد ورشد ، وعدم وعدم لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ معناه : أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة إلى نفسه قط ، أى : من حق المعبود بالحق أن يدعو العباد إلى طاعته ، ثم يدعو العباد إليها إظهارا لدعوة ربهم وما

(1). قال محمود : المراد بنفي العلم نفى المعلوم ، كأنه قال : وأشرك به ما ليس باله ، وما ليس باله كيف يصح أن يعلم إلها» قال أحمد : وهذا من قبيل
على لا حب لا يهتدى بمناره
أى : لا منار له فيهتدى به ، وكلام الزمخشري هاهنا أشد من كلامه على قوله تعالى حكاية عن فرعون ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي.

وفي الآخرة : إذا أنشأه اللّه حيوانا ، تبرأ من الدعاة إليه ومن عبدته. وقيل معناه ليس له استجابة دعوة تنفع في الدنيا ولا في الآخرة. أو دعوة مستجابة ، جعلت الدعوة التي لا استجابة لها ولا منفعة فيها كلا دعوة ، أو سميت الاستجابة باسم الدعوة ، كما سمى الفعل المجازى عليه باسم الجزاء في قولهم : كما تدين تدان. قال اللّه تعالى لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ. الْمُسْرِفِينَ عن قتادة : المشركين. وعن مجاهد : السفاكين الدماء بغير حلها. وقيل : الذين غلب شرهم خيرهم هم المسرفون. وقرئ : فستذكرون ، أى : فسيذكر بعضكم بعضا وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ لأنهم توعدوه.

[سورة غافر (40) : الآيات 45 إلى 46]

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (46)

فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا شدائد مكرهم وما هموا به من إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم. وقيل : نجا مع موسى وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ما هموا به من تعذيب المسلمين. ورجع عليهم كيدهم النَّارُ بدل من سوء العذاب. أو خبر مبتدإ محذوف ، كأن قائلا قال : ما سوء العذاب؟ فقيل : هو النار. أو مبتدأ خبره يُعْرَضُونَ عَلَيْها وفي هذا الوجه تعظيم للنار وتهويل من عذابها ، وعرضهم عليها : إحراقهم بها. يقال : عرض الإمام الأسارى على السيف إذا قتلهم به ، وقرئ : النار ، بالنصب ، وهي تعضد الوجه الأخير. وتقديره : يدخلون النار يعرضون عليها. ويجوز أن ينتصب على الاختصاص غُدُوًّا وَعَشِيًّا في هذين الوقتين يعذبون بالنار ، وفيما بين ذلك اللّه أعلم بحالهم ، فإمّا أن يعذبوا بجنس آخر من العذاب ، أو ينفس عنهم.

ويجوز أن يكون غُدُوًّا وَعَشِيًّا : عبارة عن الدوام. هذا ما دامت الدنيا ، فإذا قامت الساعة قيل لهم أَدْخِلُوا يا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ عذاب جهنم. وقرئ : أدخلوا آل فرعون ، أى : يقال لخزنه جهنم : أدخلوهم. فإن قلت : قوله وَحاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ معناه : أنه رجع عليهم ما هموا به من المكر بالمسلمين ، كقول العرب : من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا ، فإذا فسر سوء العذاب بنار جهنم : لم يكن مكرهم راجعا عليهم ، لأنهم لا يعذبون بجهنم. قلت : يجوز أن بهم الإنسان بأن يغرق قوما فيحرق بالنار ، ويسمى ذلك حيقا لأنه همّ بسوء فأصابه ما يقع عليه اسم السوء. ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه ، ويجوز أن بهمّ فرعون - لما سمع إنذار المسلمين بالنار ، وقول المؤمن وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ - فيفعل نحو ما فعل نمروذ ويعذبهم بالنار ، فحاق به مثل ما أضمره وهمّ بفعله. ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر.

[سورة غافر (40) : آية 47]

وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (47)
واذكر وقت يتحاجون تَبَعاً تباعا ، كخدم في جمع خادم. أو ذوى تبع ، أى : أتباع ، أو وصفا بالمصدر.

[سورة غافر (40) : آية 48]

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (48)

وقرئ. كلا ، على التأكيد لاسم إن ، وهو معرفة ، والتنوين عوض من المضاف إليه ، يريد : إنا كلنا. أو كلنا فيها. فإن قلت : هل يجوز أن يكون «كلا» حالا قد عمل فِيها فيها؟ قلت : لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمه كما يعمل في الظرف متقدما تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول قائما في الدار زيد قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

[سورة غافر (40) : الآيات 49 إلى 50]

وَقالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (49) قالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (50)

لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ للقوّام بتعذيب أهلها. فإن قلت : هلا قيل : الذين في النار لخزنتها؟ قلت : لأن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرا ، من قولهم : بئر جهنام بعيدة القعر «1» ، وقولهم في النابغة : جهنام ، تسمية بها ، لزعمهم أنه يلقى الشعر على لسان المنتسب إليه ، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر «2» ، كما قال أبو نواس في خلف الأحمر : قليذم من العياليم الخسف «3»

(1). قوله «بئر جهنام بعيدة القعر ... الخ» في الصحاح : بكسر الجيم والهاء. (ع)
(2). قال محمود : «فان قلت : فهلا قيل لخزنتها ، وأجاب أن في ذكر جهنم تهويلا وتفظيعا ، ويحتمل أن جهنم هي أبعد النار قعرا من قولهم : بئر جهنام ، أى : بعيدة القعر ، وكان النابغة يسمى الجهنام لبعد غوره في الشعر» قال أحمد : الأول أظهر ، والتفخيم فيه من وجهين ، أحدهما : وضع الظاهر موضع المضمر ، وهو الذي أشار إليه والثاني : ذكره وهو شيء واحد بظاهر غير الأول أفظع منه ، لأن جهنم أفظع من النار ، إذ النار مطلقة ، وجهنم أشدها.
(3) أو دى جميع العلم مذ أودى خلف من لا يعد العلم إلا ما عرف
راوية لا يجتنى من الصحف قليذم من العياليم الخسف
لأبى نواس يرثى خلف الأحمر بن أحمد. وأودى ملك ومن لا يعد العلم صفة خلف ، أى : لا يعتبر من العلم إلا بما عرفه حق اليقين وتلقاه بالتلقين. أو عرفه بالاستنباط من قواعد السابقين ، فهو راوية ، أى : كثير الرواية لا يأخذ من الكتب ، شبهها بالروضة المثمرة على طريق المكنية ، والاجتناء تخييل. وقليذم : البئر الغزيرة الماء.
والعيلم : الحفرة الكثيرة الماء. والخف : البعيدة الغور العميقة ، شبهه بذلك تشبيها بليغا ، لكثرة علمه ومعرفته للمعاني البعيدة الخفية.

وفيها أعتى الكفار وأطغاهم ، فلعل الملائكة الوكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من اللّه تعالى ، فلهذا تعمدهم أهل النار بطلب الدعوة منهم أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ إلزام للحجة وتوبيخ ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع ، وعطلوا الأسباب التي يستجيب اللّه لها الدعوات قالُوا فَادْعُوا أنتم ، فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين : كون المشفوع له غير ظالم ، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها ، وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين ، وليس قولهم فَادْعُوا لرجاء المنفعة ، ولكن للدلالة على الخيبة ، فإنّ الملك المقرّب إذا لم يسمع دعاؤه ، فكيف يسمع دعاء الكافر.

[سورة غافر (40) : الآيات 51 إلى 52]

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (51) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ أى في الدنيا والآخرة ، يعنى أنه يغلبهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على مخالفيهم ، وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحايين امتحانا من اللّه ، فالعاقبة لهم ، ويتيح اللّه من يقتص «1» من أعدائهم ولو بعد حين : والأشهاد. جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، يريد : الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد صلى اللّه عليه وسلم لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ. واليوم الثاني بدل من الأوّل ، يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة ولكنها لا تنفع لأنها باطلة ، وأنهم لو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة «2» لقوله تعالى وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ البعد من رحمة اللّه وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ أى سوء دار الآخرة وهو عذابها. وقرئ : تقوم. ولا تنفع ، بالتاء والياء.

(1). قوله «من يقتص» أى : يقدر. (ع)
(2). قال محمود : «يحتمل أنهم يعتذرون بمعذرة لكنها لا تنفعهم ، لأنها باطلة. ويحتمل أنهم لا يعتذرون ، ولو جاءوا بمعذرة لم تكن مقبولة قال أحمد : «هما الاحتمالان في قوله تعالى وَلا شَفِيعٍ يُطاعُ ولكن بين الموضعين فرقا يصير أحدهما معه عكس الآخر ، وذلك أنه هنا على تقدير أن يكون المراد أنهم لا معذرة لهم البتة ، يكون قد نفى صفة المعذرة وهي المنفعة التي لها تراد المعذرة ، قطعا لرجائهم كى لا يعتذروا البتة ، كأنه قيل إذا لم يحصل ثمرة المعذرة فكيف يقع ما لا ثمرة له وفي الآية المتقدمة جعل نفى الموصوف بتا لنفى الصفة ولهذا أولى النفي في هذه الآية الفعل ، وفي المتقدمة أولى النفي الذات المنسوب إليها الفعل.

[سورة غافر (40) : الآيات 53 إلى 54]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (53) هُدىً وَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (54)

يريد بالهدى جميع ما آتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرائع وَأَوْرَثْنا وتركنا على بنى إسرائيل من بعده الْكِتابَ أى التوراة هُدىً وَذِكْرى إرشادا وتذكرة ، وانتصابهما على المفعول له أو على الحال. وأولو الألباب : المؤمنون به العاملون بما فيه.

[سورة غافر (40) : آية 55]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ (55)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يعنى أنّ نصرة الرسل في ضمان اللّه ، وضمان اللّه لا يخلف ، واستشهد بموسى وما آتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده ، وإبقاء آثار هداه في بنى إسرائيل ، واللّه ناصرك كما نصرهم، ومظهرك على الدين كله ، ومبلغ ملك أمّتك مشارق الأرض ومغاربها ، فاصبر على ما يجرّعك قومك من الغصص ، فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق ، وأقبل على التقوى واستدرك الفرطات بالاستغفار ، ودم على عبادة ربك والثناء عليه بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكارِ وقيل : هما صلاتا العصر والفجر.

[سورة غافر (40) : آية 56]

إِنَّ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (56)

إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ إلا تكبر وتعظم ، وهو إرادة التقدّم والرياسة ، وأن لا يكون أحد فوقهم ، ولذلك عادوك ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدّمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك ، لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة. أو إرادة أن تكون لهم النبوّة دونك حسدا وبغيا. ويدل عليه قوله تعالى لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أو إرادة دفع الآيات بالجدال ما هُمْ بِبالِغِيهِ أى ببالغي موجب الكبر ومقتضية ، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوّة أو دفع الآيات.

وقيل : المجادلون هم اليهود ، وكانوا يقولون : يخرج صاحبنا المسيح بن داود ، يريدون الدّجال ، ويبلغ سلطانه البر والبحر ، وتسير معه الأنهار ، وهو آية من آيات اللّه فيرجع إلينا الملك ، فسمى اللّه تمنيهم ذلك كبرا ، ونفى أن يبلغوا متمناهم فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ فالتجئ إليه من كيد من يحسدك ويبغى عليك إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ويقولون الْبَصِيرُ بما تعمل ويعملون ، فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

[سورة غافر (40) : آية 57]

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (57)

فإن قلت. كيف اتصل قوله لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بما قبله؟ قلت : إن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن اللّه خالقها وبأنها خلق عظيم لا يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله «1» لا يَعْلَمُونَ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

[سورة غافر (40) : آية 58]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً ما تَتَذَكَّرُونَ (58)

ضرب الأعمى والبصير مثلا للمحسن والمسيء. وقرئ : يتذكرون بالياء والتاء ، والتاء أعم.

[سورة غافر (40) : آية 59]

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (59)

لا رَيْبَ فِيها لا بد من مجيئها ولا محالة ، وليس بمرتاب فيها ، لأنه لا بد من جزاء لا يُؤْمِنُونَ لا يصدقون بها.

(1). قال محمود : «فان قلت : كيف اتصل قوله لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بما قبله؟ وأجاب بأن مجادلتهم في آيات اللّه كانت مشتملة على إنكار البعث ، وهو أصل المجادلة ومدارها ، فحجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن اللّه خالقها ، وبأنها خلق عظيم ، فخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين ، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على الإنسان الضعيف أقدر ، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله» قال أحمد : الأولوية في هذا الاستشهاد ثابتة بدرجتين ، أحدهما ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر. الثانية : أن مجادلتهم كانت في البعث وهو الاعادة ولا شك أن الابتداء أعظم وأبهر من الاعادة ، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعنى السماوات والأرض داخلا تحت القدرة فابتداء خلق الحقير : يعنى الناس أدخل تحتها ، وإعادته أدخل من ابتدائه ، فهو أولى بأن يكون مقدورا عليه مما اعترفوا به من خلق السماوات والأرض بدرجتين ، وإلى هذا الترتيب وقعت الاشارة بقوله تعالى في الم غُلِبَتِ الرُّومُ :
وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ فقرر أن قيام السماء والأرض هو بأمره ، أى : خلقها من آياته ، فكيف بما هو أحط من قيامها بدرجتين وهو إعادة البشر أهون عليه من الابتداء ليتحقق الدرجتان المذكورتان ، فقال تعالى وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وإذا تأملت الذي ذكرته منسوبا لما ذكره الزمخشري : علمت أن ما ذكره هو لباب المراد فجدد عهدا به إن لم تعلم ذلك.

[سورة غافر (40) : آية 60]

وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (60)

ادْعُونِي اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن. ويدل عليه قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي والاستجابة : الإثابة وفي تفسير مجاهد : اعبدوني أثبكم. وعن الحسن - وقد سئل عنها - : اعملوا وأبشروا ، فإنه حق على اللّه أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله. وعن الثوري أنه قيل له : ادع اللّه ، فقال. إن ترك الذنوب هو الدعاء. وفي الحديث «إذا شغل عبدى طاعتي عن الدعاء. أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» «1» وروى النعمان بن بشير رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «الدعاء هو العبادة» «2» وقرأ هذه الآية. ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ، ويريد بعبادتي : دعائي ، لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها ، يصدقه قول ابن عباس رضى اللّه عنهما : أفضل العبادة الدعاء «3». وعن كعب : أعطى اللّه هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبيا مرسلا : كان يقول لكل نبىّ أنت شاهدي على خلقي ، وقال لهذه الأمة لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وكان يقول : ما عليك من حرج ، وقال لنا ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وكان يقول : ادعني أستجب لك ، وقال لنا ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ. وعن ابن عباس : وحدوني أغفر لكم ، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ، ثم للعبادة بالتوحيد داخِرِينَ صاغرين.

[سورة غافر (40) : آية 61]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(61)

مُبْصِراً من الإسناد المجازى ، لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار. فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل :

(1). أخرجه عبد الرزاق عن سفيان عن منصور عن مالك بن الحرث قال «يقول اللّه : إذا اشتغل عبدى بثنائه عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وهذا مرسل ، وفي الترمذي عن أبى سعيد «من شغله قراءة القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».
(2). أخرجه أصحاب السنن ، وتقدم في مريم.
(3). أخرجه الحاكم في الدعاء من وجهين عنه.

لتبصروا فيه ، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج ، وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز. فإن قلت : فهلا قيل : لمفضل ، أو لمتفضل؟ قلت : لأن الغرض تنكير الفضل ، وأن يجعل فضلا لا يوازيه فضل ، وذلك إنما يستوي بالإضافة. فإن قلت : فلو قيل : ولكن أكثرهم ، فلا يتكرر ذكر الناس؟ قلت : في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم ، وأنهم هم الذين يكفرون فضل اللّه ولا يشكرونه ، كقوله : إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

[سورة غافر (40) : الآيات 62 إلى 63]

ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)
ذلِكُمُ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أخبار مترادفة ، أى : هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء ، والوحدانية : لا ثانى له فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف ومن أى وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان. ثم ذكر أن كل من جحد بآيات اللّه ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة : أفك كما أفكوا. وقرئ : خالق كل شيء ، نصبا على الاختصاص. وتؤفكون : بالتاء والياء.

[سورة غافر (40) : الآيات 64 إلى 65]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَالسَّماءَ بِناءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (65)

هذه أيضا دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة ، وهي أنه جعل الأرض مستقرا وَالسَّماءَ بِناءً أى قبة. ومنه : أبنية العرب لمضاربهم ، لأنّ السماء في منظر العين كقبة مضروبة على وجه الأرض فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد. قيل : لم يخلق حيوانا أحسن صورة من الإنسان : وقيل لم يخلقهم منكوسين كالبهائم، كقوله تعالى فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ فَادْعُوهُ فاعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ أى الطاعة من الشرك والرياء ، قائلين الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من قال لا إله إلا اللّه. فليقل على أثرها : الحمد للّه رب العالمين «1».

(1). أخرجه الطبري ، والحاكم أيضا ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن مردويه من رواية الأعمش عن مجاهد عنه. [.....]

[سورة غافر (40) : آية 66]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِيَ الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ(66)
فإن قلت : أما نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه؟ قلت : بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومضمنة ذكرها نحو قوله تعالى أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل - كان ذكر البينات ذكر الأدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا ، لأن ذكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية «1».

[سورة غافر (40) : آية 67]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ متعلق بفعل محذوف تقديره : ثم يبقيكم لتبلغوا. وكذلك لتكونوا. وأما وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى فمعناه : ونفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى ، وهو وقت الموت. وقيل : يوم القيامة. وقرئ : شيوخا ، بكسر الشين. وشيخا ، على التوحيد ، كقوله طِفْلًا والمعنى : كل واحد منكم. أو اقتصر على الواحد ، لأنّ الغرض بيان الجنس مِنْ قَبْلُ من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ما في ذلك من العبر والحجج.

(1). قال محمود : «فان قلت : النبي عليه الصلاة والسلام قد اتضحت له أدلة العقل على التوحيد قبل مجيء الوحي ، فعلام تحمل الآية؟ وأجاب بأن الأمر كذلك ولكن البينات مقوية لأدلة العقل ومؤكدة لها ومتضمنة ذكرها ، نحو قوله أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ وأشباه ذلك من التنبيه على أدلة العقل والسمع جميعا ، وإنما ذكر ما يدل على الأمرين جميعا لأن ذكر الأمرين أقوى في إبطال مذهبهم ، وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية» قال أحمد : اللائق بقواعد السنة أن يقال : أما معرفة اللّه تعالى ومعرفة وحدانيته واستحالة كون الأصنام آلهة ، فمستفاد من أدلة العقول ، وقد ترد الأدلة العقلية في مضامين السمعيات. وأما وجوب عبادة اللّه تعالى وتحريم عبادة الأصنام ، فحكم شرعي لا يستفاد إلا من السمع ، فعلى هذا يترك الجواب عن هذا السؤال. وقوله تعالى إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنما أريد به - واللّه أعلم - : تحريم عبادة غير اللّه ، فهذا لا يستفاد إلا من نهى اللّه تعالى عن ذلك ، لا من العقل ، لكن قاعدة الزمخشري تقتضي أن تحريم عبادة غير اللّه تعالى تتلقى من العقل قبل ورود الشرع ، إذ العقل عنده حاكم بمقتضى التحسين والتقبيح ، ولهذا أورد الاشكال عليه ، واحتاج إلى الجواب عنه ، ثم قوله في الجواب أن أدلة الشرع مقوية لأدلة

[سورة غافر (40) : آية 68]

هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)

فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يكونه من غير كلفة ولا معاناة. جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة ، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أنّ مقدورا لا يمتنع عليه ، كأنه قال : فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمرا كان أهون شيء وأسرعه.

[سورة غافر (40) : الآيات 69 إلى 76]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (69) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (72) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73)

مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (74) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (75) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (76)
بِالْكِتابِ بالقرآن وَبِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا من الكتب. فإن قلت : وهل قوله فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ إلى مثل قولك : سوف أصوم أمس؟ قلت : المعنى على إذا : إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار اللّه تعالى متيقنة مقطوعا بها : عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال. وعن ابن عباس : والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء ، على عطف الجملة الفعلية على الاسمية. وعنه : والسلاسل يسحبون بحر السلاسل.

ووجهه أنه لو قيل : إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ لكان صحيحا مستقيما ، فلما كانتا عبارتين معتقبتين : حمل قوله وَالسَّلاسِلُ على العبارة الأخرى. ونظيره : مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلّا ببين غرابها «1»

كأنه قيل : بمصلحين. وقرئ : وبالسلاسل يسحبون فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ من سجر التنور إذا ملأه بالوقود.

(1). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 381 فراجعه إن شئت اه مصححه.

ومنه : السجير «1» ، كأنه سجر بالحب ، أى : مليء. ومعناه : أنهم في النار فهي محيطة بهم ، وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم. ومنه قوله تعالى نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ اللهم أجرنا من نارك فإنا عائذون بجوارك ضَلُّوا عَنَّا غابوا عن عيوننا ، فلا نراهم ولا ننتفع بهم. فإن قلت : أما ذكرت في تفسير قوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ : أنهم مقرونون بآلهتهم ، فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قلت : يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم : أينما كنتم تشركون من دون اللّه فيغيثوكم ويشفعوا لكم ، وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات «2» ، وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم ، إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم ضالون عنهم بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا كما تقول : حسبت أنّ فلانا شيء فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خيرا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصادفوا ذلِكُمْ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بِغَيْرِ الْحَقِّ وهو الشرك وعبادة الأوثان ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ السبعة المقسومة لكم. قال اللّه تعالى لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ. خالِدِينَ مقدّرين الخلود فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ عن الحق المستخفين به مثواكم أو جهنم. فإن قلت : أليس قياس النظم أن يقال : فبئس مدخل المتكبرين ، كما تقول : زر بيت اللّه فنعم المزار ، وصل في المسجد الحرام فنعم المصلى؟ قلت : الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثواء.

[سورة غافر (40) : آية 77]

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77)

فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ أصله : فإن ترك. و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك ألحقت النون بالفعل «3». ألا تراك لا تقول. إن تكرمني أكرمك ، ولكن : إما تكرمني أكرمك. فإن قلت : لا يخلو إما أن تعطف أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ على نرينك وتشركهما في جزاء واحد وهو قوله تعالى فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ فقولك : فإمّا نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون : غير صحيح ،

(1). قوله «و منه السجير» في الصحاح : «سجير الرجل» : صفيه وخليله ، والجمع السجراء. (ع)
(2). قوله «في سائر الأوقات» أى باقى الأوقات بعد وقت التوبيخ. (ع)
(3). قال محمود : «المصحح للحاق النون المؤكدة دخول ما المؤكدة للشرط ، ولولا «ما» لم يجز دخولها» قال أحمد : وإنما كان كذلك لأن النون المؤكدة حقها أن تدخل في غير الواجب ، والشرط من قبيل الواجب ، إلا أنه إذا أكد قوى إبهامه فقربته قوة الإبهام من غير الواجب ، فيساغ دخول النون فيه.

وإن جعلت فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ مختصا بالمعطوف الذي هو نتوفينك ، في المعطوف عليه بغير جزاء.

قلت : فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ متعلق بنتوفينك ، وجزاء نُرِيَنَّكَ محذوف ، تقديره : فإما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك. أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم «1» منهم أشدّ الانتقام ونحره قوله تعالى فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ.

[سورة غافر (40) : آية 78]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78)

وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ قيل : بعث اللّه ثمانية آلاف نبىّ : أربعة آلاف من بنى إسرائيل ، وأربعة آلاف من سائر الناس. وعن علىّ رضى اللّه عنه : أنّ اللّه تعالى بعث نبيا أسود «2» ، فهو ممن لم يقصص عليه. وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عنادا ، يعنى : إنا قد أرسلنا كثيرا من الرسل وما كان لواحد منهم أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فمن لي بأن آتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء اللّه ويأذن في الإتيان بها فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وعيد وردّ عقيب اقتراح الآيات. وأمر اللّه : القيامة الْمُبْطِلُونَ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد أتتهم الآيات فأنكروها وسموها سحرا.

[سورة غافر (40) : الآيات 79 إلى 81]

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَمِنْها تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)

(1). قال محمود : «إما أن يشرك مع الأول في الشرط ويكون قوله فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ جزاء مشركا بينهما فلا يستقيم المعنى ، على : فاما نرينك بعض الذي نعدهم .. فالينا يرجعون وإن جعل الجزاء مختصا بالثاني بقي الأول بغير جزاء. وأجاب بأنه مختص بالثاني ، وجزاء الأول محذوف ، تقديره : فاما نرينك بعض الذي نعدهم وهو ما حل بهم يوم بدر ، فذاك. أو نتوفينك ، فالينا يرجعون فننتقم منهم» قال أحمد : وإنما حذف جواب الأول دون الثاني لأن الأول إن وقع فذاك غاية الأمل في إنكائهم ، فالثابت على تقدير وقوعه معلوم ، وهو حصول المراد على التمام.
وأما إن لم يقع ووقع الثاني وهو توفيه قبل حلول المجازاة بهم ، فهذا هو الذي يحتاج إلى ذكره للتسلية وتطمين النفس ، على أنه وإن تأخر جزاؤهم عن الدنيا فهو حتم في الآخرة ولا بد منه. قال : ومثله قوله تعالى فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ : كأنه يستشهد على أن جزاء الأول محذوف بذكر هذه الآية
(2). أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط وابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن عبد اللّه بن يحيى عن على رضى اللّه عنه في قوله وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ قال أرسل اللّه عبدا حبشيا ، فهو الذي لم نقصص عليك» وروى الثعلبي من وجه آخر عن جابر عن أبى الطفيل عن على «كان أصحاب الأخدود نبيهم حبشي. بعث نبى من الحبشة إلى قومه. ثم قرأ وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ الآية.

الأنعام : الإبل خاصة. فإن قلت : لم قال لِتَرْكَبُوا مِنْها ولتبلغوا عليها ، ولم يقل ، لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال : منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون «1» عليها حاجة في صدوركم؟ قلت : في الركوب : الركوب في الحج والغزو ، وفي بلوغ الحاجة : الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم ، وهذه أغراض دينية إمّا واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع : فمن جنس المباح الذي لا يتعلق «2» به إرادته : ومعنى قوله وَعَلَيْها وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ، ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر. فإن قلت : هلا قيل : وفي الفلك ، كما قال قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ؟

قلت : معنى الإيعاء «3» ومعنى الاستعلاء : كلاهما مستقيم ، لأنّ الفلك وعاء لمن يكون فيها حمولة له يستعليها ، فلما صح المعنيان صحت العبارتان. وأيضا فليطابق قوله وَعَلَيْها ويزاوجه أَيَّ آياتِ اللَّهِ جاءت على اللغة المستفيضة. وقولك : فأية آيات الله قليل ، لأنّ التفرقة بين المذكر والمؤنث في الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب ، وهي في أى أغرب لإبهامه.

[سورة غافر (40) : الآيات 82 إلى 83]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (83)

(1). قال محمود : «فان قلت : هلا قيل لتركبوا منها ولتأكلوا منها ولتبلغوا ، ومنها تركبون ومنها تأكلون ، وعليها تبلغون؟ وأجاب بأن في الركوب الركوب في الغزو والحج ، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لاقامة دين أو علم ، وهذه أغراض دينية : إما واجبة أو مندوبة مما يتعلق به إرادة الحكيم. وأما الأكل وإصابة المنافع فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به الارادة» قال أحمد : جواب متداع للسقوط مؤسس على قاعدة واهية ، وهي أن الأمر راجع إلى الارادة ، فالواجب والمندوب مرادان ، لأنهما مندرجان في الأمر ، والمباح غير مراد ، لأنه غير مأمور به ، وهذا من هنيات المعتزلة في إنكار كلام النفس ، فلا نطيل فيه النفس. وقاعدة أهل الحق أنه لا ربط بين الأمر والارادة ، فقد يأمر بخلاف ما يريد ، ويريد خلاف ما يأمر به ، فالجواب الصحيح إذا أن المقصود المهم من الأنعام والمنفعة المشهورة فيها إنما هي الركوب وبلوغ الحوائج عليها بواسطة الأسفار والانتقال في ابتغاء الأوطار ، فلذلك ذكرهما هنا مقرونين باللام الدالة على التعليل والغرض. وأما الأكل وبقية المنافع كالأصواف والأوبار والألبان وما يجرى مجراها فهي وإن كانت حاصلة منها فغير خاصة بها خصوص الركوب والحمل وتوابع ذلك ، بل الأكل بالغنم خصوصا الضأن أشهر ، فلذلك اختيرت الضحايا منها على الغنم ، فلذلك جردت هذه المنافع بالأخبار عن وجودها فيها غير مقرونة بما يدل على أنها المقصود.
(2). قوله «المباح الذي لا يتعلق به» مبنى على مذهب المعتزلة : أن الارادة بمعنى الأمر فلا تتعلق إلا بالمطلوب.
وعند أهل السنة : هي صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، فتتعلق بجميع الممكنات ، كما تقرر في علم التوحيد. (ع)
(3). قوله «معنى الايعاء» في الصحاح : أوعيت الزاد والمتاع : إذا جعلته في الوعاء. (ع)

وَآثاراً قصورهم ومصانعهم. وقيل : مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ، ومحلها النصب ، والثانية موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع ، يعنى أى شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فيه وجوه : منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ : وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون لا نبعث ولا نعذب ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى ، وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البينات وعلم الأنبياء ، كما قال عز وجل كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ومنها : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحي الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم. وعن سقراط : أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه ، وقيل له.

لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا. ومنها : أن يوضع قوله فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ولا علم عندهم البتة ، موضع قوله : يفرحوا بما جاءهم من العلم ، مبالغة في نفى فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والمسرة ، مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء. ومنها أن يراد : فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به ، كأنه قال : استهزؤا بالبينات وبما جاءوا به من علم الوحى فرحين مرحين. ويدل عليه قوله تعالى وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ومنها : أن يجعل الفرح للرسل. ومعناه : أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادى واستهزائهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزائهم : فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه ، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم.

ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال تعالى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ ، ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات - وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف «1» عن الملاذ والشهوات - لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها ، واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ، ففرحوا به.

(1). قوله «و الظلف» في الصحاح : ظلفت نفسي عن كذا - بالكسر - تظلف ظلفا ، أى : كفت. (ع)
(182/4)

[سورة غافر (40) : الآيات 84 إلى 85]

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (85)

البأس : شدّة العذاب. ومنه قوله تعالى بِعَذابٍ بَئِيسٍ. فإن قلت : أى فرق بين قوله تعالى فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ وبينه لو قيل : فلم ينفعهم إيمانهم؟ قلت : هو من كان في نحو قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ والمعنى : فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم إيمانهم «1». فإن قلت : كيف ترادفت هذه الفاءات؟ قلت : أما قوله تعالى فَما أَغْنى عَنْهُمْ فهو نتيجة قوله كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وأما قوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فجار مجرى البيان والتفسير ، لقوله تعالى فَما أَغْنى عَنْهُمْ كقولك : رزق زيد المال فمنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء. وقوله فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا تابع لقوله فَلَمَّا جاءَتْهُمْ كأنه قال : فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا ، وكذلك : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ تابع لإيمانهم لما رأوا بأس اللّه سُنَّتَ اللَّهِ بمنزلة وَعَدَ اللَّهُ وما أشبهه من المصادر المؤكدة. وهُنالِكَ مكان مستعار للزمان ، أى : وخسروا وقت رؤية البأس ، وكذلك قوله وَخَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ بعد قوله فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ أى : وخسروا وقت مجيء أمر اللّه ، أو وقت القضاء بالحق.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبى ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له» «2»

(1). قال محمود : «فان قلت : أى فرق بين قوله : فلم يك ينفعهم إيمانهم. وبينه لو قيل : فلم ينفعهم ، وأجاب بأن معنى كانَ هنا معناها في قوله ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ بمعنى : فلم يستقم ولم يصح أن ينفعهم إيمانهم ، قال أحمد : كان الذي ثبت التصرف فيها بإجراء نونها مجرى حروف العلة حتى حذفت للجازم هي كانَ الكثير استعمالها ، المكرر دورانها في الكلام. وأما كانَ هذه فليست كثيرة التصرف حتى يتسع فيها بالحذف ، بل هي مثل : صان ، وحان» في القلة ، فالأولى بقاؤها على بابها المعروف ، وفائدة دخولها في هذه الآية وأمثالها : المبالغة في نفى الفعل الداخلة عليه بتعديد جهتى نفيه عموما باعتبار الكون ، وخصوصا باعتباره في هذه الآية مثلا ، فكأنه نفى مرتين ، واللّه أعلم.
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة فصلت

وتسمى السجدة

مكية ، وآياتها 54 وقيل 53 آية [نزلت بعد غافر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة فصلت (41) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (2) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (4)

إن جعلت حم اسما للسورة كانت في موضع المبتدأ. وتَنْزِيلٌ خبره. وإن جعلتها تعديد للحروف كان تَنْزِيلٌ خبرا لمبتدأ محذوف وكِتابٌ بدل من تنزيل. أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف. وجوز الزجاج أن يكون تَنْزِيلٌ مبتدأ ، وكِتابٌ خبره.

ووجهه أن تنزيلا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدأ فُصِّلَتْ آياتُهُ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة : من أحكام وأمثال ومواعظ ، ووعد ووعيد ، وغير ذلك. وقرئ : فصلت ، أى : فرقت بين الحق والباطل. أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها ، من قولك : فصل من البلد قُرْآناً عَرَبِيًّا نصب على الاختصاص والمدح ، أى : أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت. وقيل : هو نصب على الحال ، أى : فصلت آياته في حال كونه قرآنا عربيا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين ، لا يلتبس عليهم شيء منه. فإن قلت : بم يتعلق قوله لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ؟

قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت ، أى : تنزيل من اللّه لأجلهم. أو فصلت آياته لهم.

والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات. وقرئ : بشير ونذير ، صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولك. تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ، ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه ، فكأنه لم يسمعه.

[سورة فصلت (41) : آية 5]

وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (5)

والأكنة : جمع كنان ، وهو الغطاء. والوقر - بالفتح - الثقل. وقرئ بالكسر. وهذه تمثيلات لنبوّ قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده ، كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، كقوله تعالى وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ ومج أسماعهم له كأن بها صمما عنه ، ولتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه ، وبين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما هو عليه : حجابا ساترا وحاجزا منيعا من جبل أو نحوه ، فلا تلاقى ولا ترائى فَاعْمَلْ على دينك إِنَّنا عامِلُونَ على ديننا. أو فاعمل في إبطال أمرنا ، إننا عاملون في إبطال أمرك. وقرئ إنا عاملون. فإن قلت : هل لزيادة مِنْ في قوله وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فائدة؟ قلت : نعم ، لأنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب : لكان المعنى : أن حجابا حاصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة مِنْ فالمعنى : أن حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ «1» فيها.

(1). قال محمود : «فان قلت : ما فائدة مِنْ في قوله وَمِنْ بَيْنِنا وَبَيْنِكَ حِجابٌ وأجاب بأن فائدتها الدلالة على أن من جهتهم ابتدأ الحجاب ، ومن جهته أيضا ابتدأ حجاب ، فيلزم أن المسافة المتوسطة بينهما مملوءة بالحجاب لا فراغ فيها ، ولولا ذكر من فيها لكان المعنى : على أن في المسافة بينهما حجابا فقط» قال أحمد : ولا ينفك المعنى بدخول مِنْ عما كان عليه قبل ، ولو كان لأمر كما ذكر لكانت من مقدرة مع بين الثانية ، لأنه جعلها مفيدة للابتداء في الثانية كما هي مفيدة للابتداء في الأولى ، فيكون التقدير إذا : ومن بيننا وبينك حجاب ، وهذا يخل بمعنى «بين» إخلالا بينا ، فإنها تأبى تكرار العامل معها ، حتى لو قال القائل : جلست بين زيد ، وجلست

وإنما كان ذكرها مع الظاهر جوازا ومع المضمر وجوبا لما بيناه فإذا وضح ذلك فالظاهر - واللّه أعلم - أن موقع من هاهنا كموقعها في قوله تعالى وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا وذلك للاشعار بأن الجهة المتوسطة مثلا بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام مبدأ الحجاب لا غير ، ووجود من قريب من عدمها ، ألا ترى إلى آخر هذه الآية كيف لم يستعمل فيها من ، وهي قوله تعالى وَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً. وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وكلام الزمخشري هذا إذا امتحنته بالتحقيق الذي ذكرناه : تبين ضعفه ، واللّه الموفق. وفي هذه الآية وأختها من المبالغة والبلاغة ما لا يليق أن ينتظم إلا في درر الكتاب العزيز ، فإنها اشتملت على ذكر حجب ثلاثة متوالية : كل واحد منها كاف في فنه ، فأولها الحجاب الحائل الخارج ، ويليه حجاب الصمم. وأقصاها الحجاب الذي أكن القلب والعياذ باللّه ، فلم تدع هذه الآية حجابا مرتخيا إلا أسبلته ولم تبق لهؤلاء الأشقياء مطمعا ولا صريخا الا استلبته ، فنسأل اللّه كفايته. [.....]

فإن قلت : هلا قيل : على قلوبنا أكنة ، كما قيل : وفي آذاننا وقر ، ليكون الكلام على نمط واحد؟ قلت : هو على نمط واحد ، لأنه لا فرق في المعنى بين قولك : قلوبنا في أكنة. وعلى قلوبنا أكنة. والدليل عليه قوله تعالى إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ولو قيل : إنا جعلنا قلوبهم في أكنة : لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة «1» إلا في المعاني.

[سورة فصلت (41) : الآيات 6 إلى 7]

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (7)

فإن قلت : من أين كان قوله إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ جوابا لقولهم قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ «2»؟ قلت : من حيث أنه قال لهم : إنى لست بملك ، وإنما أنا بشر مثلكم ، وقد أوحى إلىّ دونكم فصحت - بالوحي إلىّ وأنا بشر - نبوّتى، وإذا صحت نبوّتى : وجب عليكم اتباعى ، وفيما يوحى إلىّ : أن إلهكم إله واحد فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ فاستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينا ولا شمالا ، ولا ملتفتين إلى ما يسوّل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ، وتوبوا إليه مما سبق لكم من الشرك وَاسْتَغْفِرُوهُ. وقرئ : قال إنما أنا بشر.

فإن قلت : لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة؟ قلت : لأن أحب شيء إلى الإنسان ما له وهو شقيق روحه ، فإذا بذله في سبيل اللّه فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طويته. ألا ترى إلى قوله عز وجل وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى : يثبتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة «3» من الدنيا فقرّت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردّة بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة ، فنصبت لهم الحرب ،

---

(1). قوله «و الملاحظة» لعله : والملاحة. (ع)

(2). قال محمود : «فان قلت : كيف كان هذا جوابا لما تقدمه» قال أحمد : وأجاب بما نلخصه فتقول : لما أبوا القبول منه عليه الصلاة والسلام كل الاباء ، بدأهم باقامة الحجة على وجوب القبول منه ، فانه بشر مثلهم لا قدرة له على إظهار المعجزات التي ظهرت. وإنما القادر على إظهارها هو اللّه تعالى تصديقا له عليه الصلاة والسلام ، ثم بين لهم بعد قيام الحجة عليهم أهم ما بعث به وهو التوحيد ، واندرج تحت الاستقامة جميع تفاصيل الشرع وتمم ذلك بإنذارهم على ترك القبول بالويل الطويل.

(3). قوله «إلا بلمظة من الدنيا» في الصحاح «لمظ» إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه اه فلمظة : بمعنى ملموظ كمضغة بمعنى ممضوغ. (ع)

وجوهدوا «1». وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة ، وتخويف شديد من منعها ، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين ، وقرن بالكفر بالآخرة. وقيل : كانت قريش يطعمون الحاج ، ويحرمون من آمن منهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقيل : لا يفعلون ما يكونون به أزكياء ، وهو الإيمان.

[سورة فصلت (41) : آية 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8)

الممنون : المقطوع. وقيل : لا يمنّ عليهم لأنه إنما يمنّ التفضل. فأما الأجر فحق أداؤه.

وقيل : نزلت في المرضى والزمنى والهرمى : إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر ، كأصح ما كانوا يعملون.

[سورة فصلت (41) : الآيات 9 إلى 12]

قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (11) فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)

أَإِنَّكُمْ بهمزتين «2» : الثانية بين بين. وءائنكم ، بألف بين همزتين ذلِكَ الذي قدر على خلق الأرض في مدة يومين. هو رَبُّ الْعالَمِينَ ..... رَواسِيَ جبالا ثوابت. فإن قلت : ما معنى قوله مِنْ فَوْقِها وهل اختصر على قوله وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ كقوله تعالى وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ ، وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ ، وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ؟ قلت : لو كانت تحتها كالأساطين لها تستقر عليها ، أو مر كوزة فيها كالمسامير : لمنعت من الميدان أيضا ، وإنما اختار إرساءها فوق الأرض ،

(1). قال محمود : «فان قلت : لم خص الزكاة وأجاب بأن أحب الأشياء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه ، فبذله مصداق لاستقامته ونصوع طويته ، وما خدع المؤلفة قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا ، وأهل الردة ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدوا» قال أحمد : كلام حسن بعد تبديل قوله : وما خدع المؤلفة ، فان استعماله الخداع غير لائق ، لأنهم إنما تألفهم عليه الصلاة والسلام على الايمان من قبيل الملاطفة ودفع السيئة بالحسنة ومانحا هذا النحو.
(2). قوله «أإنكم بهمزتين» لعله : قرئ بهمزتين ... الخ. (ع)

لتكون المنافع في الجبال معرضة لطالبيها ، حاضرة محصليها ، وليبصر أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، كلها مفتقرة إلى ممسك لا بد لها منه ، وهو ممسكها عز وعلا بقدرته وَبارَكَ فِيها وأكثر خيرها وأنماه وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم. وفي قراءة ابن مسعود : وقسم فيها أقواتها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً فذلكة لمدة خلق اللّه الأرض وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان. قيل : خلق اللّه الأرض في يوم الأحد ويوم الاثنين ، وما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء. وقال الزجاج. في أربعة أيام في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين. وقرئ : سواء ، بالحركات الثلاث : الجر على الوصف والنصب على : استوت سواء ، أى : استواء : والرفع على : هي سواء. فإن قلت : بم تعلق قوله لِلسَّائِلِينَ؟ قلت: بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر : أى : قدر فيها الأقوات لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين.

وهذا الوجه الأخير لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج «1». فإن قلت : هلا قيل في يومين؟ وأى فائدة في هذه الفذلكة؟ قلت : إذا قال في أربعة أيام وقد ذكر أن الأرض خلقت في يومين ، علم أن ما فيها خلق في يومين ، فبقيت المخايرة بين أن تقول في يومين وأن تقول في أربعة أيام سواء ، فكانت في أربعة أيام سواء فائدة ليست في يومين ، وهي الدلالة على أنها كانت أياما كاملة بغير زيادة ولا نقصان. ولو قال : في يومين - وقد يطلق اليومان على أكثرهما - لكان يجوز أن يريد باليومين الأولين والآخرين أكثرهما ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ من قولك:

(1). قال محمود : «إن قوله فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فذلكة بمدة خلق اللّه الأرض وما فيها ، كأنه قال : وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين ، فذلك أربعة أيام سواء. وقال : ومعنى سواء : كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان.
ونقل عن الزجاج أن معنى الآية في تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة : اليومين ، ثم قال : فان قلت بم تعلق قوله لِلسَّائِلِينَ؟ وأجاب بأنه متعلق بمحذوف ، كأنه قيل : هذا الحصر لأجل من سأل : في كم خلقت الأرض وما فيها؟ أو يقدر ، أى : قدر فيها الأقوات لأجل السائلين المحتاجين إليها من المقتاتين ، ثم قال : وهذا الوجه الأخير. لا يستقيم إلا على تفسير الزجاج» قال أحمد : لم يبين استناعه على التفسير الأول ونحن نبينه فنقول : مقتضى التفسير الأول أن قوله في أربعة أيام فذلكة ، ومن شأنها الوقوع في طرف الكلام بعد تمامه ، فلو جعل قوله لِلسَّائِلِينَ متعلقا بمقدر : لزم وقوع الفذلكة في حشو الكلام ، ولا كذلك على تفسير الزجاج ، فان الأربعة على قوله من تتمة الأول ، وهي متعلقة بمقدر على تأويل حذف التتمة تعلق الظرف بالمظروف ، ليلائم ذلك إتمام الكلام ببيان المقصود من خلق الأقوات بعد بيان من خلقها. وتفسير الزجاج - واللّه أعلم - أرجح ، فإنه يشتمل على ذكر مدة خلق الأقوات بالتأويل القريب الذي قدره ، ومتضمن لما يقوم مقام الفذلكة ، إذ ذكر جملة العدد الذي هو ظرف لخلقها وخلق أقواتها ، وعلى تفسير الزمخشري تكون الفذلكة مذكورة من غير تقدم تصريح بجملة تفاصيلها ، فانه لم يذكر منها سوى يومين خاصة ، ومن شأن الفذلكة أن يتقدم النص على جميع أعدادها مفصلة ، ثم تأتى هي على الجملة كقوله فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ.

استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه توجها لا يلوى على شيء ، وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ، ونحوه قولهم : استقام إليه وامتد إليه. ومنه قوله تعالى فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك. قيل : كان عرشه قبل خلق السماوات والأرض على الماء ، فأخرج من الماء دخانا ، فارتفع فوق الماء وعلا عليه ، فأيبس الماء فجعله أرضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع. ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما : أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الآمر المطاع ، «1» وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل. ويجوز أن يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه ، فقالتا. أتينا على الطوع لا على الكره. والغرض تصوير «2» أثر قدرته في المقدورات لا غير ، من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب. ونحوه قول القائل : قال الجدار للوتد : لم تشقني؟ قال الوتد : اسأل من يدقني ، فلم يتركني ، ورائي الحجر الذي ورائي «3». فإن قلت ، لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان ، والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ قلت : قد خلق جرم الأرض أولا غير مدحوّة ، ثم دحاها بعد خلق السماء ، كما قال تعالى وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها فالمعنى. ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف : ائتى يا أرض مدحوّة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتي يا سماء مقببة سقفا لهم. ومعنى الإتيان : الحصول والوقوع ، كما تقول : أتى عمله مرضيا ، وجاء مقبولا. ويجوز أن يكون المعنى : لتأت كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذي أريده ونقتضيه الحكمة والتدبير : من كون الأرض قرارا للسماء ، وكون السماء سقفا للأرض. وتنصره قراءة من قرأ : آتيا ، وآتينا : من المؤاتاة وهي الموافقة : أى : لتوات كل واحدة أختها ولتوافقها. قالتا ، وافقنا وساعدنا. ويحتمل وافقا أمرى ومشيئتى ولا تمتنعا.

فإن قلت : ما معنى طوعا أو كرها؟ قلت : هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما ، وأن امتناعهما من تأثير قدرته محال ،

(1). قوله «فعل الآمر المطاع» لعله : أمر الآمر. (ع)
(2). قوله «تصوير أثر قدرته» لعله : تأثير. (ع)
(3). قال محمود : «إما أن يكون هذا من مجاز التمثيل كأن عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع ، فهذا وجه. واما أن يكون تخييلا فيبنى الأمر فيه على أن اللّه تعالى كلم السماوات والأرض فأجاباه ، والغرض منه تصوير أثر القدرة في المقدور من غير أن يحقق شيئا من الخطاب والجواب ، ومثله قول القائل : قال الحائط للوتد لم تشقني؟ فقال الوتد : اسأل من يدفنى لم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي» قال أحمد :
قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل على كلام اللّه تعالى ، فان معنى هذا الإطلاق لو كان صحيحا والمراد منه التصوير لوجب اجتناب التعبير عنه بهذه العبارة ، لما فيها من إيهام وسوء أدب ، واللّه أعلم.

كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعا أو كرها. وانتصابهما على الحال ، بمعنى : طائعتين أو مكرهتين. فإن قلت : هلا قيل : طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى؟ لأنها سماوات وأرضون. قلت : لما جعلن مخاطبات ومجيبات ، ووصفن بالطوع والكره قيل : طائعين ، في موضع : طائعات ، نحو قوله السَّاجِدِينَ «1».

فَقَضاهُنَّ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى السماء على المعنى كما قال طائِعِينَ ونحوه أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سماوات ، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال ، والثاني على التمييز ، قيل خلق اللّه السماوات وما فيها في يومين : في يوم الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة. وفي هذا دليل على ما ذكرت ، من أنه لو قيل : في يومين في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان «2». فإن قلت : فلو قيل : خلق الأرض في يومين كاملين وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين.

(1). قال محمود : فان قلت لم ذكر الأرض مع السماء وانتظمها في الأمر بالإتيان معها والأرض مخلوقة قبل السماء بيومين؟ وأجاب بأنه قد خلق جرم الأرض أو لا غير مدحوة ، ثم دحاها بعد خلق السماء كما قال وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها فالمعنى : ائتيا على ما ينبغي من الشكل : ائتي يا أرض مدحوة وفرارا ومهادا ، واثنى يا سماء سقفا مقبية. ثم قال : فان قلت ما معنى طوعا أو كرها ، وأجاب بأنه تمثيل للزوم تأثير القدرة فيهما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : افعل هذا شئت أو أبيت. ثم قال : فان قلت : هلا قيل طائعتين ، على اللفظ. وطائعات ، على المعنى ، لأنها سماوات وأرضون. وأجاب بأنه لما جعلن مخاطبات ومجيبات وموصوفات بالطوع والكره. قيل : طائعين في موضع طائعات ، نحو قوله ساجدين» قال أحمد : لم يحقق الجواب عن السؤال الآخر ، وذلك أن في ضمن الآية سؤالين : أحدهما لم ذكرها وهي مؤنثة ، وهذا هو السؤال الذي أورده. الثاني أنى بها على جمع العقلاء وهي لا تعقل ، وهذا لم يذكره ، فالجواب الذي ذكره مختص بالسؤال الذي لم يذكره ، ولهذا نظره بقوله السَّاجِدِينَ فان تلك الآية ليس فيها سوى السؤال عن كونها جمعت جمع العقلاء ، فأما السؤال الآخر فلا ، لأن الكلام راجع إلى الكواكب وهي مذكرة ، والشمس وإن كانت مؤنثة إلا أنه غلب في

لم ذكرها ، وثانيا : لم أتى جمعها المذكر على جمع نعت جمع العقلاء ، ليتحقق نسبة السؤال والجواب ، والطوع اللاتي تختص بالعقلاء لا بها ، ولم يوجد في جمع المؤنث عدول إلى جمع المذكر لوجود الصيغة المرشدة إلى العقل فيه ، فتمت الفائدة بذلك على تأويل السماوات والأرض بالأفلاك مثلا وما في معناه من المذكر ، ثم يغلب المذكر على المؤنث ولا يعدم مثل هذا التأويل في الأرضين أيضا.

(2). قال محمود : «قيل : إن الله تعالى خلق السماوات وما فيها في يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفرغ آخر ساعة من يوم الجمعة ، وخلق آدم في تتمة اليوم ، وفيه تقوم القيامة ثم استدل بذلك على ما ذكره من أنه لو قال : في يومين ، في موضع أربعة أيام سواء ، لم يعلم أنهما يومان كاملان أو ناقصان» قال أحمد : كأنه يستدل بإهمال اليومين عن التأكيد ، حيث لم يكن خلق السماوات بما فيها في جملة اليومين ، على أنه إنما فذلك أيام خلق الأرض بما فيها :

لأنه لو فصلها لم يكن فيها دليل على استيعاب الخلق لكل يومين منها ، بل كان يجوز أن يكون الخلق في أحد اليومين وبعض الآخر ، كما كان في هذه الآية على النقل الذي ذكر ، وهذا لا يتم له منه غرض ، فان للقائل أن يقول : إنما كان خلق السماوات بما فيها في يومين كاملين ، لأن آدم لم يكن في السماوات حينئذ ويخلقه كمل اليومان على مقتضى ما نقله ، فتأمله.

أو قيل بعد ذكر اليومين : تلك أربعة سواء؟ قلت : الذي أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقا لما عليه التنزيل من مغاصاة القرائح ومصاك المركب ، «1» ليتميز الفاضل من الناقص ، والمتقدم من الناكص ، وترتفع الدرجات ، ويتضاعف الثواب أَمْرَها ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيرات وغير ذلك. أو شأنها وما يصلحها وَحِفْظاً وحفظناها حفظا ، يعنى من المسترقة بالثواقب. ويجوز أن يكون مفعولا له على المعنى ، كأنه قال : وخلقنا المصابيح زينة وحفظا.

[سورة فصلت (41) : الآيات 13 إلى 14]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ (13) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (14)

فَإِنْ أَعْرَضُوا بعد ما تتلو عليهم من هذه الحجج على وحدانيته وقدرته ، فحذرهم أن تصيبهم صاعقة : أى عذاب شديد الوقع كأنه صاعقة. وقرئ : صعقة مِثْلَ صعقة عاد وثمود : وهي المرة من الصعق أو الصعق. يقال : صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا ، وهو من باب : فعلته ففعل مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أى أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم ، وأعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن فيهم كل حيلة ، وتقول : استدرت بفلان من كل جانب ، فلم يكن لي فيه حيلة. وعن الحسن أنذروهم من وقائع الله فيمن قبلهم من الأمم وعذاب الآخرة ، لأنهم إذا حذروهم ذلك فقد جاءوهم بالوعظ من جهة الزمن الماضي وما حرى فيه على الكفار ، ومن جهة المستقبل وما سيجرى عليهم. وقيل : معناه إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم. فإن قلت : الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم ، وكيف يخاطبونهم بقولهم فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ؟ قلت : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم ، أى من قبلهم وممن يجيء من خلفهم ، أى من بعدهم ، فكان الرسل جميعا قد جاءوهم. وقولهم فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ خطاب منهم لهود وصالح ولسائر الأنبياء الذين دعوا إلى الإيمان بهم. أن في أَلَّا تَعْبُدُوا بمعنى أى ، أو مخففة من الثقيلة ، أصله : بأنه لا تعبدوا ، أى : بأنّ الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا ، ومفعول شاء محذوف أى لَوْ شاءَ رَبُّنا إرسال الرسل لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ معناه :

(1). قوله «من مغاصاة القرائح ومصاك الركب» أى أمكنة الغوص على اللؤلؤ ، وأمكنة اصطكاك الركب. (ع)

فإذ أنتم بشر ولستم بملائكة ، فإنا لا نؤمن بكم وبما جئتم به ، وقولهم أُرْسِلْتُمْ بِهِ ليس بإقرار بالإرسال ، وإنما هو على كلام الرسل ، وفيه تهكم ، كما قال فرعون إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. روى أنّ أبا جهل قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره «1» ، فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما، وما يخفى علىّ ، فأتاه فقال : أنت يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فبم تشتم آلهتنا وتضللنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت ، فلما فرغ قال : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم ... إلى قوله ...

صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : واللّه لقد كلمته فأجابنى بشيء واللّه ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود : أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب.

[سورة فصلت (41) : الآيات 15 إلى 16]

فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (15) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ (16)

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ أى تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظم وهو القوّة وعظم الأجرام. أو استعلوا في الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً كانوا ذوى أجسام طوال وخلق عظيم ، وبلغ من قوّتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة

(1). أخرجه ابن إسحاق في السيرة : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب بهذا نحوه مرسلا ، ووصله ابن أبى شيبة. وعنه أبو يعلى وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل ، كلهم من رواية الأجلح الكندي عن الزبال ابن حرملة عن جابر مطولا.

من الجبل فيقتلعها بيده. فإن قلت : القوّة هي الشدّة والصلابة في البنية ، وهي نقيضة الضعف.

وأما القدرة فما لأجله يصح الفعل من الفاعل من تميز بذات أو بصحة بنية «1» وهي نقيضة العجز واللّه سبحانه وتعالى لا يوصف بالقوّة إلا على معنى القدرة ، فكيف صحّ قوله هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وإنما يصح إذا أريد بالقوّة في الموضعين شيء واحد؟ قلت : القدرة في الإنسان هي صحة البنية والاعتدال والقوّة والشدّة والصلابة في البنية ، وحقيقتها : زيادة القدرة «2» ، فكما صحّ أن يقال : اللّه أقدر منهم ، جاز أن يقال : أقوى منهم ، على معنى : أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرهم يَجْحَدُونَ كانوا يعرفون أنها حق ، ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة ، وهو معطوف «3» على فاستكبروا ، أى كانوا كفرة فسقة. الصرصر : العاصفة التي تصرصر ، أى : تصوّت في هبوبها. وقيل : الباردة التي تحرق بشدّة بردها ، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أى يجمع ويقبض نَحِساتٍ قرئ بكسر الحاء وسكونها. ونحس نحسا : نقيض سعد سعدا ، وهو نحس. وأما نحس ، فإمّا مخفف نحس ، أو صفة على فعل ، كالضخم وشبهه. أو وصف بمصدر. وقرئ : لنذيقهم ، على أنّ الإذاقة للريح أو للأيام النحسات.

وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والاستكانة على أنه وصف للعذاب ، كأنه قال : عذاب خزى ، كما تقول : فعل السوء ، تريد : الفعل السيئ ، والدليل عليه قوله تعالى وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وهو من الإسناد المجازى ، ووصف العذاب بالخزي : أبلغ من وصفهم به.

(1). قوله «من تمييز بذات أو لصحة بنية» هذا كقوله الآتي : إنه يقدر لداته ، تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة على أنه تعالى قادر بذاته ، لكن مذهب أهل السنة أنه تعالى قادر بقدرة قائمة بذاته ، وكذا بقية الصفات كما في التوحيد. (ع) [.....]

(2). قال محمود : «القوة : الشدة في البنية ونقيضها الضعف ، والقدرة ما لأجله يصح الفعل من الفاعل ، وهي نقيضة العجز ، فان وصف اللّه تعالى بالقوة فذاك بمعنى القدرة وليست القوة على حقيقتها ، فكيف صح قوله هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ولا بد أن يراد بالقوة في الموضعين شيء واحد ، وأجاب عنه بأن القدرة في الإنسان صحة البنية والاعتدال والشدة ، والقوة زيادة في القدرة ، فكما صح أن يقال : أقدر منهم ، صح أن يقال : أقوى منهم ، على معنى أنه يقدر لذاته على ما لا يقدرون عليه بازدياد قدرتهم» قال أحمد ، فسر القدرة على خلاف ما هي في اعتقاد المتكلمين ، فان سلم له من حيث اللغة فقد نكص عنه إلى حمل القدرة في الآية على مقتضاها في فن الكلام ، وجعل التفضيل من حيث أن اللّه تعالى قادر لذاته. أى : بلا قدرة ، والمخلوق قادر بقدرة على القاعدة الفاسدة للقدرية ، ونظير هذا التفسير في الفساد تفسير قول القائل : زيد أعلم من عمرو ، بإثبات صفة العلم للمفضول ، وسلبها بالكلية عن الأفضل ، وهل هذا إلا عنه وعمى في اتباع الهوى وعمه؟ فالحق أن التفضيل إنما جاء من جهة أن القدرة الثابتة للعبد قدرة مقارنة لفعله ، معلومة قبله وبعده ، مفقودة غير مؤثرة في العقل الراجح في محلها» فضلا عن تجاوزها إلى غيره ، وقدرة اللّه جلت قدرته مؤثرة في المقدورات ، موجودة أزلا وأبدا ، عامة التعلق بجميع الكائنات من الممكنات ، فهذا هو النور الذي لا يلوح إلا من إثبات عقائد السنة لمن سبقت له من اللّه المنة.

(3). قوله «و هو معطوف على فاستكبروا» أى : قوله تعالى وَكانُوا ... الخ (ع)

ألا ترى إلى البون بين قوليك : هو شاعر ، وله شعر شاعر.

[سورة فصلت (41) : الآيات 17 إلى 18]

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (17) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (18)

وقرئ : ثمود ، بالرفع والنصب منونا وغير منون ، والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء.

وقرئ بضم الثاء فَهَدَيْناهُمْ فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد ، كقوله تعالى وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ. فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد.

فإن قلت : أليس معنى هديته : حصلت فيه الهدى ، والدليل عليه قولك : هديته فاهتدى ، بمعنى : تحصيل البغية وحصولها ، كما تقول : ردعته فارتدع ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجرّدة؟ قلت : للدلالة على أنه مكنهم وأزاح عللهم ولم يبق له عذرا ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بتحصيل ما يوجبها ويقتضيها صاعِقَةُ الْعَذابِ داهية العذاب وقارعة العذاب.

والْهُونِ الهوان ، وصف به العذاب مبالغة. أو أبدله منه ، ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة «1» بشهادة نبيها صلى اللّه عليه وسلم - وكفى به شاهدا - إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة«2».

(1). قوله «حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة» يريد أهل السنة ، سماهم المعتزلة بذلك لقولهم : جميع الحوادث - خيرا كانت أو شرا من أفعال العباد الاختيارية أو غيرها - فهي بقضاء اللّه تعالى وقدره ، خلافا للمعتزلة :
حيث ذهبوا إلى أن جميع الأفعال الاختيارية ليست بقضائه تعالى وقدره ، ولا تأثير له فيها أصلا. وهذا أحق بالتنقيص الذي يفيده الحديث. وفسروا الإضلال والهدى في قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ بخلق الضلال وخلق الاهتداء ، خلافا للمعتزلة :
حيث فسروا الإضلال بالخذلان وترك العبد وشأنه ، والهدى بالبيان ونقل النسفي عن أبى منصور الماتريدى : أن الهدى المضاف للخالق يكون تارة بمعنى البيان كما في هذه الآية وتارة بمعنى خلق الاهتداء كما في قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ والمضاف للمخلوق بمعنى البيان فقط ، ويحتمل أن يكون هدى ثمود بمعنى خلق الاهتداء فيهم. وأنهم آمنوا قبل عقر الناقة ، ثم كفروا وعقروها اه (ع)
(2). قال محمود : «فدللناهم على طريقى الضلالة والرشد ، ثم قال : فان قلت أليس معنى هديته حصلت له الهدى والدليل عليه قولك: هديته فاهتدى ، فكيف ساغ استعماله في الدلالة المجردة؟ وأجاب بأنه مكنهم وأزاح عللهم ، ولم يبق لهم عذرا ولا علة ، فكأنه حصل البغية فيهم بحصول موجبها ، ثم قال : ولو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبينا عليه الصلاة والسلام - وكفى به شهيدا - إلا هذه الآية ، لكفى بها حجة» قال أحمد : قد أنطقه اللّه الذي أنطق كل شيء ، فان القدرية مجوس هذه الأمة بشهادة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقد شهد صحبه الأكرمون أن الطائفة الذين قفا الزمخشري أثرهم القدرية المتمجسة ، الذين أديانهم بأدناس الفساد متنجسة فهم أول منخرط في هذا السلك ، ومنهبط في مهواة هذا الهلك ، ولترجع إلى أصل الكلام فنقول : الهدى من اللّه تعالى عند أهل السنة حقيقة : هو خلق الهدى في قلوب المؤمنين ، والإضلال : خلق الضلال في قلوب الكافرين ، ثم ورد الهدى على غير ذلك من الوجوه مجازا واتساعا ، نحو هذه الآية ، فان المراد فيها بالهدى الدلالة على طريقه كما فسره الزمخشري.
وقد اتفق الفريقان : أهل السنة وأهل البدعة على أن استعمال الهدى هاهنا مجاز ، ثم إن أهل السنة يحملونه على المجاز في جميع موارده في الشرع ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، وأى دليل في هذه الآية على أهل السنة لأهل البدعة ، حتى يرميهم بما ينعكس إلى نحره ، ويذيقه وبال أمره.

[سورة فصلت (41) : الآيات 19 إلى 21]

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (20) وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21)

قرئ يحشر على البناء للمفعول. ونحشر بالنون وضم الشين وكسرها ، ويحشر : على البناء للفاعل ، أى : يحشر اللّه عز وجل أَعْداءُ اللَّهِ الكفار من الأوّلين والآخرين يُوزَعُونَ أى يحبس أوّلهم على آخرهم ، أى : يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهي عبارة عن كثرة أهل النار ، نسأل اللّه أن يجيرنا منها بسعة رحمته : فإن قلت : ما في قوله حَتَّى إِذا ما جاؤُها ما هي؟ قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها : أنّ وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن يخلو منها. ومثله قوله تعالى أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ أى لا بدّ لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام ، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرّمات. فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟ قلت : اللّه عز وجل ينطقها كما أنطق الشجرة «1» بأن يخلق فيها كلاما. وقيل ، المراد بالجلود : الجوارح.

وقيل : هي كناية عن الفروج ، أراد بكل شيء : كل شيء من الحيوان ، كما أراد به في قوله تعالى وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ كل شيء من المقدورات ، والمعنى : أنّ نطقنا ليس بعجب من قدرة الله الذي قدر على إنطاق كل حيوان ، وعلى خلقكم وإنشائكم أوّل مرّة ، وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه - وإنما قالوا لهم : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا لما تعاظمهم من شهادتها وكبر عليهم من الافتضاح على ألسنة جوارحهم.

[سورة فصلت (41) : الآيات 22 إلى 23]

وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (23)

(1). قوله «كما أنطق الشجرة» على زعم المعتزلة أن تكليمه مع موسى عليه السلام هو خلقه الكلام في الشجرة التي كانت عند الطور. وعند أهل السنة : هو بأن كشف له عن كلامه القديم وأسمعه إياه كما بين في محله. (ع)

والمعنى : أنكم كنتم تستترون بالحيطان والحجب عند ارتكاب الفواحش ، وما كان استتاركم ذلك خيفة أن يشهد عليكم جوارحكم ، لأنكم كنتم غير عاملين بشهادتها عليكم ، بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء أصلا ، ولكنكم إنما استترتم لظنكم أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا كنتم تَعْمَلُونَ وهو الخفيات من أعمالكم ، وذلك «1» الظنّ هو الذي أهلككم. وفي هذا تنبيه على أن من حق المؤمن أن لا يذهب عنه ، ولا يزل عن ذهنه أن عليه من الله علينا كالئة ورقيبا مهيمنا ، حتى يكون في أوقات خلواته من ربه أهيب وأحسن احتشاما وأوفر تحفظا وتصونا منه مع الملأ، ولا يتبسط في سره مراقبة «2» من التشبه بهؤلاء الظانين. وقرئ : ولكن زعمتم وَذلِكُمْ رفع بالابتداء ، وظَنُّكُمُ وأَرْداكُمْ خبران ، ويجوز أن يكون ظَنُّكُمُ بدلا من ذلِكُمْ وأَرْداكُمْ الخبر.

[سورة فصلت (41) : الآيات 24 إلى 25]

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (24) وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (25)

فَإِنْ يَصْبِرُوا لم ينفعهم الصبر ولم ينفكوا به من الثواء في النار ، وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا وإن يسألوا العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون جزعا مما هم فيه : لم يعتبوا : لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ، ونحوه قوله عز وعلا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ وقرئ : وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ، أى : إن سئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ، أى : لا سبيل لهم إلى ذلك وَقَيَّضْنا لَهُمْ وقدّرنا لهم ، يعنى لمشركي مكة : يقال : هذان ثوبان قيضان : إذا كانا متكافئين.

والمقايضة : المعاوضة قُرَناءَ أخدانا «3» من الشياطين جمع قرين ، كقوله تعالى وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ فإن قلت : كيف جاز أن يقيض لهم القرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ قلت : معناه أنه خذلهم «4» ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين «5». والدليل عليه وَمَنْ يَعْشُ نقيض ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ ما تقدّم من أعمالهم وما هم عازمون عليها.

(1). قوله «و ذلك الظن هو الذي أهلككم» لعله. وذلكم. (ع)
(2). قوله «في سره مراقبة من التشبه» أى مخافة ، كما أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «قرناأ أخدانا» أى أصدقاء. أفاده الصحاح. (ع)
(4). قوله «قلت معناه أنه خذلهم» هذا على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يقدر الشر. أما على مذهب أهل السنة أنه تعالى يقدره كالخير ، فلا داعى إلى هذا التكلف. قال تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ الخ. (ع)
(5). قال محمود : «كيف جاز أن يقيض لهم قرناء من الشياطين وهو ينهاهم عن اتباع خطواتهم؟ وأجاب بأن معناه أنه خذلهم ومنعهم التوفيق لتصميمهم على الكفر ، فلم يبق لهم قرناء سوى الشياطين. والدليل عليه قوله تعالى وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ ... الآية قال أحمد : جواب هذا السؤال على مذهب أهل السنة : أن الأمر على ظاهره ، فان قاعدة عقيدتهم أن الله تعالى قد ينهى عما يريد وقوعه ، ويأمر بما لا يريد حصوله ، وبذلك نطقت هذه الآية وأخواتها ، وإنما تأولها الزمخشري ليتبعها هواه الفاسد في اعتقاده أن الله تعالى لا ينهى عما يريد ، وإن وقع النهى عنه فعلى خلاف الارادة - تعالى الله عن ذلك وبه نستعيذ من جعل القرآن تبعا للهوى ، وحينئذ فنقول: لو لم يكن في القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها عليه الصلاة والسلام سوى هذه الآية ، لكفى بها ، فهذا موضع هذه المقالة التي أنطقه الله بها الذي أنطق كل شيء في الآية التي قبل هذه.

أو بين أيديهم من أمر الدنيا واتباع الشهوات ، وما خلفهم : من أمر العاقبة ، وأن لا بعث ولا حساب وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ يعنى كلمة العذاب فِي أُمَمٍ في جملة أمم. ومثل في هذه ما في قوله : إن تك عن أحسن الصّنيعة مأ فوكا ففي آخرين قد أفكوا «1»

يريد : فأنت في جملة آخرين ، وأنت في عداد آخرين لست في ذلك بأوحد. فإن قلت : فِي أُمَمٍ ما محله؟ قلت : محله النصب على الحال من الضمير في عليهم القول كائنين في جملة أمم إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ تعليل لاستحقاقهم العذاب. والضمير لهم وللأمم.

[سورة فصلت (41) : الآيات 26 إلى 28]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (27) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (28)

قرئ : والغوا فيه ، بفتح الغين وضمها. يقال : لغى يلغى ، ولغا يلغو. واللغو : الساقط من الكلام الذي لا طائل تحته. قال : من اللغا ورفث التكلم. والمعنى : لا تسمعوا له إذا قرئ ، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والهذيان والزمل «2» وما أشبه ذلك ، حتى تخلطوا على القارئ وتشوّشوا عليه وتغلبوه على قراءته. كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يجوز أن يريد بالذين كفروا :

(1). لعروة بن أذينة ، يقول : إن تك مأفوكا - أى : مصروفا ومنقلبا عن أحسن العطاء - فلا عجب ، فأنت في جملة ناس آخرين قد أفكوا وصرفوا عن الإحسان. ومنه : المؤتفكات ، وهي المدن المنقلبة على قوم لوط وتقول العرب : إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض ، يعنون : الرياح المختلفة المهاب.
(2). قوله «و الزمل» الذي في الصحاح «الأزمل» الصوت : والأزمولة - بالضم - : المصوت من الوعول وغيرها. (ع)

هؤلاء اللاغين والآمرين لهم باللغو خاصة ، وأن يذكر الذين كفروا عامة لينطووا تحت ذكرهم. قد ذكرنا إضافة أسوأ بما أغنى عن إعادته. وعن ابن عباس عَذاباً شَدِيداً يوم بدر. وأَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ في الآخرة ذلِكَ إشارة إلى الأسوإ ، ويجب أن يكون التقدير : أسوأ جزاء الذين كانوا يعملون ، حتى تستقيم هذه الإشارة. والنَّارُ عطف بيان للجزاء. أو خبر مبتدإ محذوف.

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ؟ قلت : معناه أن النار في نفسها دار الخلد ، كقوله تعالى لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ والمعنى : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسوة حسنة ، وتقول : لك في هذه الدار دار السرور. وأنت تعنى الدار بعينها جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ أى جزاء بما كانوا يلغون فيها ، فذكر الجحود الذي هو سبب اللغو.

[سورة فصلت (41) : آية 29]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (29)

الَّذَيْنِ أَضَلَّانا أى الشيطانين اللذين أضلانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لأنّ الشيطان على ضربين : جنى وإنسى. قال اللّه تعالى وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وقال تعالى الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وقيل : هما إبليس وقابيل ، لأنهما سنا الكفر والقتل بغير حق. وقرئ : أرنا ، بسكون الراء لثقل الكسرة، كما قالوا في فخذ : فخذ.

وقيل : معناه أعطنا للذين أضلانا. وحكوا عن الخليل : أنك إذا قلت : أرنى ثوبك بالكسر ، فالمعنى : بصرنيه. وإذا قلته بالسكون ، فهو استعطاء ، معناه : أعطنى ثوبك : ونظيره : اشتهار الإيتاء في معنى الإعطاء. وأصله: الإحضار

[سورة فصلت (41) : الآيات 30 إلى 32]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (31) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)

ثُمَّ لتراخي الاستقامة عن الإقرار في المرتبة. وفضلها عليه ، لأنّ الاستقامة لها الشأن كله. ونحوه قوله تعالى إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته. وعن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه : استقاموا فعلا كما استقاموا قولا.

وعنه : أنه تلاها ثم قال : ما تقولون فيها؟ قالوا : لم يذنبوا. قال حملتم الأمر على أشدّه. قالوا : فما تقول؟ قال : لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضى اللّه عنه : استقاموا على الطريقة لم يروغوا روغان الثعالب. وعن عثمان رضى اللّه عنه : أخلصوا العمل. وعن على رضى اللّه عنه : أدّوا الفرائض. وقال سفيان بن عبد اللّه الثقفي رضى اللّه عنه : قلت يا رسول اللّه ، أخبرنى بأمر أعتصم به. قال : «قل ربىّ اللّه ، ثم استقم» قال فقلت : ما أخوف ما تخاف علىّ؟ فأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بلسان نفسه فقال «هذا» «1» تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ عند الموت بالبشرى.

وقيل البشرى في ثلاثة مواطن : عند الموت ، وفي القبر ، وإذا قاموا من قبورهم أَلَّا تَخافُوا أن بمعنى أى. أو مخففة من الثقيلة. وأصله : بأنه لا تخافوا ، والهاء ضمير الشأن. وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : لا تخافوا ، أى : يقولون لا تخافوا ، والخوف : غم يلحق لتوقع المكروه ، والحزن : غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارّ. والمعنى : أنّ اللّه كتب لكم الأمن من كل غم ، فلن تذوقوه أبدا. وقيل لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم. كما أنّ الشياطين قرناء العصاة وإخوانهم ، فكذلك الملائكة أولياء المتقين وأحباؤهم في الدارين تَدَّعُونَ تتمنون : والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال.

[سورة فصلت (41) : آية 33]

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)

مِمَّنْ دَعا إِلَى اللَّهِ عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دعا إلى الإسلام وَعَمِلَ صالِحاً فيما بينه وبين ربه ، وجعل الإسلام نحلة له. وعنه : أنهم أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وعن عائشة رضى اللّه عنها : ما كنا نشك أنّ هذه الآية نزلت في المؤذنين ، وهي عامة في كل من جمع بين هذه الثلاث : أن يكون موحدا معتقدا لدين الإسلام ، عاملا بالخير داعيا إليه ، وما هم إلا طبقة العالمين العاملين من أهل العدل والتوحيد ، الدعاة إلى دين اللّه «2» وقوله وَقالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ليس الغرض أنه تكلم بهذا الكلام، ولكن جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده ، كما تقول : هذا قول أبى حنيفة ، تريد مذهبه.

[سورة فصلت (41) : الآيات 34 إلى 35]

وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَما يُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

(1). أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد وابن حبان بتمامه ، وأصله في مسلم.
(2). قوله «العاملين من أهل العدل والتوحيد الدعاة» إن أراد بهم المعتزلة سموا أنفسهم بذلك ، فلا وجه التخصيص. (ع) [.....]

يعنى أنّ الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها - إذا اعترضتك حسنتان - فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك. ومثال ذلك : رجل أساء إليك إساءة ، فالحسنة : أن تعفو عنه، والتي هي أحسن : أن تحسن إليه مكان إساءته إليك ، مثل أن يذمك فتمدحه ويقتل ولدك فتفتدى ولده من يد عدوه، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب عدوك المشاقّ مثل الولي الحميم مصافاة لك. ثم قال : وما يلقى هذه الخليقة أو السجية التي هي مقابلة الإساءة بالإحسان إلا أهل الصبر ، وإلا رجل خير وفق لحظ عظيم من الخير. فإن قلت : فهلا قيل : فادفع بالتي هي أحسن؟ قلت : هو على تقدير قائل قال : فكيف أصنع؟ فقيل : ادفع بالتي هي أحسن. وقيل لا مزيدة. والمعنى : ولا تستوي الحسنة والسيئة ، فإن قلت : فكان القياس على هذا التفسير أن يقال : ادفع

[سورة فصلت (41) : آية 36]

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36)

النزغ والنسغ بمعنى ، وهو شبه النخس. والشيطان ينزغ الإنسان كأنه ينخسه ببعثه على ما لا ينبغي. وجعل النزغ نازغا ، كما قيل : جد جدّه. أو أريد : وإما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر. أو لتسويله. والمعنى : وإن صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ من شرّه ، وامض على شأنك ولا تطعه.

[سورة فصلت (41) : الآيات 37 إلى 38]

وَمِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (37) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (38)

الضمير في خَلَقَهُنَّ لليل والنهار والشمس والقمر ، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث. يقال : الأقلام بريتها وبريتهنّ : أو لما قال وَمِنْ آياتِهِ كن في معنى الآيات ، فقيل :

خلقهنّ. فإن قلت. أين موضع السجدة؟ قلت : عند الشافعي رحمه اللّه تعالى تَعْبُدُونَ وهي رواية مسروق عن عبد اللّه لذكر لفظ السجدة قبلها. وعند أبى حنيفة رحمه اللّه : يسأمون ، لأنها تمام المعنى ، وهي عن ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب : لعل ناسا منهم كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ، ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود للّه ، فنهوا عن هذه الواسطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه اللّه تعالى خالصا ، إن كانوا إياه يعبدون وكانوا موحدين غير مشركين فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا ولم يمتثلوا ما أمروا به وأبوا إلا الواسطة ، فدعهم وشأنهم فإنّ اللّه عز سلطانه لا يعدم عابدا ولا ساجدا بالإخلاص ، وله العباد المقربون الذين ينزهونه بالليل والنهار عن الأنداد ، وقوله عِنْدَ رَبِّكَ عبارة عن الزلفى والمكانة والكرامة. وقرئ: لا يسأمون ، بكسر الياء.

[سورة فصلت (41) : آية 39]

وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

الخشوع : التذلل والتقاصر ، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها ، كما وصفها بالهمود في قوله تعالى وَتَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً وهو خلاف وصفها بالاهتزاز والربق وهو الانتفاخ : إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه ، وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة «1». وقرئ : وربأت ، أى ارتفعت لأن النبت إذا همّ أن يظهر : ارتفعت له الأرض.

[سورة فصلت (41) : آية 40]

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَفَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (40)

يقال : ألحد الحافر ولحد ، إذا مال عن الاستقامة ، فحفر في شق ، فاستعير للانحراف في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة. وقرئ : يلحدون ويلحدون ، على اللغتين. وقوله لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا وعيد لهم على التحريف.

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 إلى 42]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42)

فإن قلت : بم اتصل قوله إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ؟ قلت : هو بدل من قوله إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا والذكر : القرآن ، لأنهم لكفرهم به طعنوا فيه وحرّفوا تأويله وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ أى منيع محمى بحماية اللّه تعالى لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ

(1). قوله «في الأطمار الرثة» في الصحاح «الطمر» الثوب الخرق ، والجمع : الأطمار. (ع)

مثل كأن الباطل لا يتطرّق إليه ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يصل إليه ويتعلق به. فإن قلت : أما طعن فيه الطاعنون ، وتأوّله المبطلون؟ قلت : بلى ، ولكن اللّه قد تقدّم في حمايته عن تعلق الباطل به : بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم وإفساد أقاويلهم ، فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا. ونحوه قوله تعالى إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ.

[سورة فصلت (41) : آية 43]

ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43)

ما يقال لك أى : ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ورحمة لأنبيائه وَذُو عِقابٍ لأعدائهم. ويجوز أن يكون : ما يقول لك اللّه إلا مثل ما قال للرسل من قبلك ، والمقول : هو قوله تعالى إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، والغرض : تخويف العصاة.

[سورة فصلت (41) : آية 44]

وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44)

كانوا لتعنتهم يقولون : هلا نزل القرآن بلغة العجم «فقيل : لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أى بينت ولخصت بلسان نفقههَ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ الهمزة همزة الإنكار ، يعنى : لأنكروا وقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى ، أو مرسل إليه عربى ، وقرئ : أعجمى ، والأعجمى : الذي لا يفصح ولا يفهم كلامه من أى جنس كان ، والعجمي : منسوب إلى أمّة العجم. وفي قراءة الحسن : أعجمى بغير همزة الاستفهام على الإخبار بأن القرآن أعجمى ، والمرسل أو المرسل إليه عربى. والمعنى : أنّ آيات اللّه على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتا ، لأنّ القوم غير طالبين للحق وإنما يتبعون أهواءهم. ويجوز في قراءة الحسن: هلا فصلت آياته تفصيلا ، فجعل بعضها بيانا للعجم ، وبعضها بيانا للعرب. فإن قلت : كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمّة العرب؟ قلت : هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتابا أعجميا كتب إلى قوم من العرب يقول : كتاب أعجمى ومكتوب

إليه عربى ، وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه ، لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة ، فوجب أن يجرّد لما سيق إليه من الغرض ، ولا يوصل به ما يخل غرضا آخر. ألا تراك تقول - وقد رأيت لباسا طويلا على امرأة قصيرة : - اللباس طويل واللابس قصير. ولو قلت : واللابسة قصيرة ، جئت بما هو لكنة وفضول قول ، لأنّ الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته ، إنما وقع في غرض وراءهما هُوَ أى القرآن هُدىً وَشِفاءٌ إرشاد إلى الحق وشفاء لِما فِي الصُّدُورِ من الظن والشك. فإن قلت : وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ منقطع عن ذكر القرآن ، فما وجه اتصاله به؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ في موضع الجر معطوفا على قوله تعالى لِلَّذِينَ آمَنُوا على معنى قولك : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، إلا أنّ فيه عطفا على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه. وإمّا أن يكون مرفوعا على تقدير : والذين لا يؤمنون هو في آذانهم وقر «1» على حذف المبتدإ. أو في آذانهم منه وقر. وقرئ : وهو

[سورة فصلت (41) : آية 45]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45)

فَاخْتُلِفَ فِيهِ فقال بعضهم : هو حق ، وقال بعضهم : هو باطل. والكلمة السابقة : هي العدة بالقيامة ، وأنّ الخصومات تفصل في ذلك اليوم ، ولولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا.

قال اللّه تعالى بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى.

[سورة فصلت (41) : آية 46]

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)

فَلِنَفْسِهِ فنفسه نفع فَعَلَيْها فنفسه ضرّ وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ فيعذب غير المسيء.

(1). أجاز الزمخشري في الواو في هذه الآية وجهين ، أحدهما : أن تكون الواو لعطف الذين على الذين ، ووقر على هدى وشفاء ، ويكون من العطف على عاملين. قال : وإما أن يكون الَّذِينَ مرفوعا على تقدير :
والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، على حذف المبتدإ. أو في آذانهم منه وقر اه قال أحمد : أى وبتقدير الرابط يستغنى عن تقدير المبتدإ.

[سورة فصلت (41) : الآيات 41 إلى 48]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (42) ما يُقالُ لَكَ إِلاَّ ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (43) وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (44) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (45) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (47) وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (48)

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ أى إذا سئل عنها قيل : اللّه يعلم. أو لا يعلمها إلا اللّه. وقرئ : من ثمرات من أكمامهن «1». والكم - بكسر الكاف وعاء الثمرة ، كجف الطلعة ، أى : وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع إلا وهو عالم به ، يعلم عدد أيام الحمل وساعاته وأحواله : من الخداج «2» والتمام ، والذكورة والأنوثة ، والحسن والقبح وغير ذلك أَيْنَ شُرَكائِي أضافهم إليه تعالى على زعمهم ، وبيانه في قوله تعالى أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وفيه تهكم وتقريع آذَنَّاكَ أعلمناك ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ أى ما منا أحد اليوم - وقد أبصرنا وسمعنا - يشهد بأنهم شركاؤك ، أى : ما منا إلا من هو موحد لك : أو ما منا من أحد يشاهدهم ، لأنهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم ، لا يبصرونها في ساعة التوبيخ وقيل : هو كلام الشركاء ، أى : ما منا من شهيد يشهد بما أضافوا إلينا من الشركة. ومعنى ضلالهم عنهم على هذا التفسير : أنهم لا ينفعونهم ، فكأنهم ضلوا عنهم وَظَنُّوا وأيقنوا. والمحيص : المهرب. فإن قلت : آذَنَّاكَ إخبار بإيذان كان منهم ، فإذ قد آذنوا فلم سئلوا؟ قلت : يجوز أن يعاد عليهم أَيْنَ شُرَكائِي؟ إعادة للتوبيخ ، وإعادته في القرآن على سبيل الحكاية : دليل على إعادة المحكي.

ويجوز أن يكون المعنى : أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة ، لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه. ويجوز أن يكون إنشاء للإيذان ولا يكون إخبارا بإيذان قد كان ، كما تقول : أعلم الملك أنه كان من الأمر كيت وكيت.

[سورة فصلت (41) : الآيات 49 إلى 50]

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (50)

(1). قوله «و قرئ من ثمرات من أكمامهن» يفيد أن القراءة المشهورة : من ثمرة من أكمامها. والذي في النسفي : من ثمرات من أكمامها. ومن ثمرة من أكمامها. وأما : من ثمرات من أكمامهن. فهي المزيدة هنا ، فحرر. (ع)
(2). قوله «من الخداج» أى النقصان ، كما في الصحاح. (ع)

مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ من طلب السعة في المال والنعمة. وقرأ ابن مسعود : من دعاء بالخير وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ أى الضيقة والفقر فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ بولغ فيه من طريقين : من طريق بناء فعول ، ومن طريق التكرير والقنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر ، أى : يقطع الرجاء من فضل اللّه وروحه ، وهذه صفة الكافر بدليل قوله تعالى إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ وإذا فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق قال هذا لِي أى هذا حقي وصل إليّ ، لأنى استوجبته بما عندي من خير وفضل وأعمال برّ. أو هذا لي لا يزول عنى ، ونحوه قوله تعالى فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ ونحوه قوله تعالى وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ يريد : وما أظنها تكون ، فإن كانت على طريق التوهم إِنَّ لِي عند اللّه الحالة الحسنى من للكرامة والنعمة ، قائسا أمر الاخرة على أمر الدنيا. وعن بعضهم : للكافر أمنيتان ، يقول في الدنيا : ولئن رجعت إلى ربى إنّ لي عنده للحسنى. ويقول في الآخرة : يا ليتني كنت ترابا. وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة. فلنخبرنهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب. ولنبصرنهم عكس ما اعتقدوا فيها أنهم يستوجبون عليها كرامة وقربة عند اللّه وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً وذلك أنهم كانوا ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلبا للافتخار والاستكبار لا غير ، وكانوا يحسبون أنّ ما هم عليه سبب الغنى والصحة ، وأنهم محقوقون بذلك.

[سورة فصلت (41) : آية 51]

وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (51)

هذا أيضا ضرب آخر من طغيان الإنسان إذا أصابه اللّه بنعمة أبطرته النعمة ، وكأنه لم يلق بؤسا قط فنسي المنعم وأعرض عن شكره وَنَأى بِجانِبِهِ أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم.

وإن مسه الضرّ والفقر : أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع. وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفة الأجرام ، ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ بشدّة العذاب. وقرئ : ونأى بجانبه، بإمالة الألف وكسر النون للإتباع. وناء على القلب ، كما قالوا : راء في رأى. فإن قلت : حقق لي معنى قوله تعالى وَنَأى بِجانِبِهِ قلت : فيه وجهان : أن يوضع جانبه موضع نفسه كما ذكرنا في قوله تعالى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ أن مكان الشيء وجهته ينزل منزلة الشيء نفسه ، ومنه قوله : ..... ونفيت عنه مقام الذئب ..... «1» ..

(1) وماء قد وردت لأجل أروى عليه الطير كالورق اللجين
ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذيب كالرجل اللعين
للشماخ : وأروى ، اسم محبوبته. واللجين - بفتح اللام وكسر الجيم - : ما يتساقط من الورق من اللجن وهو الدق ، لأنه يضربه الهوى أو الراعي ، فيسقط من الشجر. وذعرت - بفتحتين» أى : أخفت فيه القطا ، وخصها لأنها أسبق الطير إلى الماء. ومقام الذيب : إقامته أو محلها ، وعبر به كناية عن ذاته ، وخصه لأن غالب وروده الماء ليلا.
والرجل اللعين : هو الصورة التي تنصب وسط الزرع على شكل الرجل تطرد عنه الهوام ، يقول : ورب ماء قد وردته لأجل محبوبتى ، عسى أن تجيء عنده فأراها. ويروى : لوصل أروى ، فلعله كان موعدا بينهما. وشبه الطير حول الماء بورق الشجر المتساقط في الكدرة والكثرة والانتشار ، وهذا يدل على أنه لا يكثر وروده ، فيصلح موعدا للوصل. وذعرت - إلى آخره : كناية عن وروده ليلا ، وكالرجل اللعين : حال من ضمير الشاعر ، فيفيد أنه سبق القطا والذيب وقعد هناك ، أو حال من الذيب ، أى : على هيئة مفزعة. وفيه دليل على شجاعة الشاعر وجرأته

يريد : ونفيت عنه الذئب. ومنه : ولمن خاف مقام ربه. ومنه قول الكتاب : حضرت فلان ومجلسه ، وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز ، يريدون نفسه وذاته ، فكأنه قال : ونأى بنفسه ، كقولهم في المتكبر : ذهب بنفسه ،

[سورة فصلت (41) : آية 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (52)

أَرَأَيْتُمْ أخبرونى إِنْ كانَ القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يعنى أن ما أنتم عليه من إنكار القرآن وتكذيبه ليس بأمر صادر عن حجة قاطعة حصلتم منها على اليقين وثلج الصدور ، وإنما هو قبل النظر واتباع الدليل أمر محتمل ، يجوز أن يكون من عند اللّه وأن لا يكون من عنده ، وأنتم لم تنظروا ولم تفحصوا ، فما أنكرتم أن يكون حقا وقد كفرتم به ، فأخبرونى من أضلّ منكم وأنتم أبعدتم الشوط في مشاقته ومناصبته ولعله حق فأهلكتم أنفسكم؟ وقوله تعالى مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ موضوع موضع منكم ، بيانا لحالهم وصفتهم.

[سورة فصلت (41) : الآيات 53 إلى 54]

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (54)

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ يعنى ما يسر اللّه عز وجل لرسوله صلى اللّه عليه وسلم وللخلفاء من بعده ونصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموما وفي باحة العرب «1»

(1). قوله «و في باحة العرب» أى ساحتهم. أفاده الصحاح. (ع)

خصوصا : من الفتوح التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة ، وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وتسليط ضعافهم على أقويائهم ، وإجرائه على أيديهم أمورا خارجة من المعهود خارقة للعادات ، ونشر دعوة الإسلام في أقطار المعمورة ، وبسط دولته في أقاصيها ، والاستقراء يطلعك في التواريخ والكتب المدوّنة في مشاهد أهله وأيامهم : على عجائب لا ترى وقعة من وقائعهم إلا علما من أعلام اللّه وآية من آياته ، يقوى معها اليقين ، ويزداد بها الإيمان ، ويتبين أن دين الإسلام هو دين الحق الذي لا يحيد عنه إلا مكابر حسه مغالط نفسه ، وما الثبات والاستقامة إلا صفة الحق والصدق ، كما أن الاضطراب والتزلزل صفة الفرية والزور ، وأن للباطل ريحا تخفق ثم تسكن ، ودولة تظهر ثم تضمحل بِرَبِّكَ في موضع الرفع على أنه فاعل كفى. وأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ بدل منه ، تقديره. أو لم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد. ومعناه : أن هذا الموعود من إظهار آيات اللّه في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه ، فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد ، أى : مطلع مهيمن يستوي عنده غيبه وشهادته ، فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ، ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة. وقرئ : في مرية ، بالضم وهي الشك مُحِيطٌ عالم يجمل الأشياء وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ، فلا تخفى عليه خافية منهم ، وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم في لقاء ربهم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة السجدة أعطاه اللّه بكل حرف عشر حسنات» «1».

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى.

سورة الشورى

مكية [إلا الآيات 23 و24 و25 و27 فمدنية] وآياتها 53 [نزلت بعد سورة فصلت] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
[سورة الشورى (42) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) عسق (2) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (4) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (5)

قرأ ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما : حم سق كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ أى مثل ذلك الوحى. أو مثل ذلك الوحى. أو مثل ذلك الكتاب يوحى إليك وإلى الرسل مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ يعنى أن ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى اللّه إليك مثله في غيرها من السور ، وأوحاه من قبلك إلى رسله ، على معنى : أن اللّه تعالى كرر هذه المعاني في القرآن في جميع الكتب السماوية ، لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأوّلين والآخرين ، ولم يقل : أوحى إليك ، ولكن على لفظ المضارع ، ليدل على أن إيحاء مثله عادته. وقرئ : يوحى إليك ، على البناء للمفعول.

فإن قلت : فما رافع اسم اللّه على هذه القراءة؟ قلت : ما دلّ عليه يوحى ، كأن قائلا قال : من الموحى؟ فقيل : اللّه ، كقراءة السلمى : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركائهم ، على معنى : زينه لهم شركاؤهم. فإن قلت : فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون؟ قلت : يرتفع بالابتداء. والعزيز وما بعده : أخبار ، أو العزيز الحكيم : صفتان ، والظرف خبر. قرئ : تكاد ، بالتاء والياء. وينفطرن ، ويتفطرن. وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة : تتفطرن بتاءين مع النون ، ونظيرها حرف نادر ، روى في نوادر ابن الأعرابى : الإبل تشممن. ومعناه : يكدن ينفطرن من علو شأن اللّه وعظمته ، يدل عليه مجيئه بعد العلى العظيم. وقيل : من دعائهم له ولدا ، كقوله تعالى تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ.

فإن قلت : لم قال مِنْ فَوْقِهِنَّ؟ قلت : لأن أعظم الآيات وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السماوات ، وهي : العرش ، والكرسي ، وصفوف الملائكة المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا اللّه تعالى من آثار ملكوته العظمى ، فلذلك قال يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ أى يبتدئ الانفطار من جهتهنّ الفوقانية. أو : لأن كلمة الكفر جاءت من الذين تحت السماوات ، فكان القياس أن يقال : ينفطرن من تحتهن من الجهة التي جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ في ذلك ، فجعلت مؤثرة في جهة الفوق ، كأنه قيل : يكدن ينفطرن من الجهة التي فوقهن دع الجهة التي تحتهنّ ، ونظيره في المبالغة قوله عزّ وعلا يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ فجعل الحميم مؤثرا في أجزائهم الباطنة. وقيل : من فوقهنّ : من فوق الأرضين.

فإن قلت : كيف صح أن يستغفروا لمن في الأرض وفيهم الكفار أعداء اللّه؟ وقد قال اللّه تعالى أُولئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ فكيف يكونون لاعنين مستغفرين لهم؟ قلت : قوله لِمَنْ فِي الْأَرْضِ يدل على جنس أهل الأرض ، وهذه الجنسية قائمة في كلهم وفي بعضهم ، فيجوز أن يراد به هذا وهذا. وقد دل الدليل على أن الملائكة لا يستغفرون إلا لأولياء اللّه وهم المؤمنون ، فما أراد اللّه إلا إياهم. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة المؤمن وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا وحكايته عنهم فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ كيف وصفوا المستغفر لهم بما يستوجب به الاستغفار فما تركوا للذين لم يتوبوا من المصدقين طمعا في استغفارهم ، فكيف للكفرة. ويحتمل أن يقصدوا بالاستغفار : طلب الحلم والغفران في قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا إلى أن قال إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً وقوله تعالى إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ والمراد : الحلم عنهم وأن لا يعاجلهم بالانتقام فيكون عاما. فإن قلت : قد فسرت قوله تعالى تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ بتفسيرين ، فما وجه طباق ما بعده لهما؟ قلت : أما على أحدهما فكأنه قيل : تكاد السماوات ينفط في هيبة من جلاله واحتشاما من كبريائه ، والملائكة الذين هم ملء السبع الطباق وحافون حول العرش صفوفا بعد صفوف يداومون - خضوعا لعظمته - على عبادته وتسبيحه وتحميده ، ويستغفرون لمن في الأرض خوفا عليهم من سطواته.

وأما على الثاني فكأنه قيل : يكدن ينفطرن من إقدام أهل الشرك على تلك الكلمة الشنعاء ، والملائكة يوحدون اللّه وينزهونه عما لا يجوز عليه من الصفات التي يضيفها إليه الجاهلون به ، حامدين له على ما أولاهم من ألطافه التي علم أنهم عندها يستعصمون ، مختارين غير ملجئين ، ويستغفرون لمؤمنى أهل الأرض الذين تبرؤا من

[سورة الشورى (42) : آية 6]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (6)

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ جعلوا له شركاء وأندادا اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شيء ، وهو محاسبهم عليها ومعاقبهم ، لا رقيب عليهم إلا هو وحده وَما أَنْتَ يا محمد بموكل بهم ولا مفوض إليك أمرهم ولا قسرهم على الإيمان ، إنما أنت منذر فحسب.

[سورة الشورى (42) : آية 7]

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (7)

ومثل ذلك أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وذلك إشارة إلى معنى الآية قبلها : من أنّ اللّه تعالى هو الرقيب عليهم ، وما أنت برقيب عليهم ، ولكن نذير لهم ، لأنّ هذا المعنى كرره اللّه في كتابه في مواضع جمة ، والكاف مفعول به لأوحينا. وقُرْآناً عَرَبِيًّا حال من المفعول به ، أى أوحيناه إليك وهو قرآن عربى بين ، لا لبس فيه عليك ، لتفهم ما يقال لك ، ولا تتجاوز حدّ الإنذار. ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى مصدر أوحينا ، أى : ومثل ذلك الإيحاء البين المفهم أوحينا إليك قرآنا عربيا بلسانك لِتُنْذِرَ يقال أنذرته كذا وأنذرته بكذا. وقد عدى الأوّل ، أعنى : لتنذر أمّ القرى إلى المفعول الأوّل والثاني ، وهو قوله وتنذر يوم الجمع إلى المفعول الثاني أُمَّ الْقُرى أهل أمّ القرى ، كقوله تعالى وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ. وَمَنْ حَوْلَها من العرب.

وقرئ : لينذر بالياء والفعل للقرآن يَوْمَ الْجَمْعِ يوم القيامة ، لأنّ الخلائق تجمع فيه. قال اللّه تعالى يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ وقيل : يجمع بين الأرواح والأجساد. وقيل : يجمع بين كل عامل وعمله. ولا رَيْبَ فِيهِ اعتراض لا محلّ له «1». قرئ : فريق وفريق ، بالرفع والنصب ، فالرفع على : منهم فريق ، ومنهم فريق. والضمير للمجموعين ، لأن المعنى : يوم جمع الخلائق.

والنصب على الحال منهم ، أى : متفرّقين ، كقوله تعالى وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ.

فإن قلت : كيف يكونون مجموعين متفرّقين في حالة واحدة؟ قلت : هم مجموعون في ذلك اليوم ، مع افتراقهم في دارى البؤس والنعيم ، كما يجتمع الناس يوم الجمعة متفرّقين في مسجدين. وإن أريد بالجمع : جمعهم في الموقف ، فالتفرّق على معنى مشارفتهم للتفرّق.

[سورة الشورى (42) : آية 8]

وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (8)

(1). قوله «لا محل له» لعله. لا محل له من الإعراب. (ع)

لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً أى مؤمنين كلهم على القسر والإكراه ، كقوله تعالى وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وقوله تعالى وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً والدليل على أنّ المعنى هو الإلجاء إلى الإيمان : قوله أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وقوله تعالى أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ بإدخال همزة الإنكار على المكره دون فعله. دليل على أنّ اللّه وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره. والمعنى : ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقسرهم جميعا على الإيمان «1» ، ولكنه شاء مشيئة حكمة ، فكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ، ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء. ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ويترك الظالمين بغير ولى ولا نصير في عذابه.

[سورة الشورى (42) : آية 9]

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (9)

معنى الهمزة في أَمِ الإنكار فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ هو الذي يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء في قوله فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ جواب شرط مقدّر ، كأنه قيل بعد إنكار كل ولى سواه : إن أرادوا وليا بحق ، فاللّه هو الولي بالحق ، لا وليّ سواه وَهُوَ يُحْيِ أى : ومن شأن هذا الولي أنه يحيى الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء.

[سورة الشورى (42) : آية 10]

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ حكاية قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للمؤمنين. أى : ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشركين ، فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين ، فحكم ذلك المختلف فيه مفوّض إلى اللّه تعالى ، وهو إثابة المحقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبطلين ذلِكُمُ الحاكم بينكم هو اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ في ردّ كيد أعداء الدين وَإِلَيْهِ أرجع في كفاية شرهم.

(1). قوله «لقسرهم جميعا على الإيمان» هذا عند المعتزلة : أما عند أهل السنة ، فالارادة تستلزم وجود المراد ، لكن لا تستلزم القسر والجبر للعباد ، لأنها لا تنافى الاختيار ، لما لهم في أعمالهم من الكسب. وإن كانت مخلوقة له تعالى. وأما التي لا تستلزم المراد وهي التي سماها مشيئة الحكمة ، فهي التي بمعنى الأمر عند المعتزلة ، ولا يثبتها أهل السنة ، كما تقرر في التوحيد ، فمعنى الآية : ولو شاء ربك إيمان الكل لآمن الكل ، ولكن شاء إيمان البعض ، فآمن من شاء إيمانه. (ع)

وقيل : وما اختلفتم فيه وتنازعتم من شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا تؤثروا على حكومته حكومته غيره ، كقوله تعالى فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وقيل : وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم ، فارجعوا في بيانه إلى المحكم من كتاب اللّه والظاهر من سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وقيل : وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه ، فقولوا : اللّه أعلم، كمعرفة الروح. قال اللّه تعالى وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي : فإن قلت : هل يجوز حمله على اختلاف المجتهدين في أحكام الشريعة؟ قلت : لا ، لأنّ الاجتهاد لا يجوز بحضرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

[سورة الشورى (42) : آية 11]

فاطِرُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)

فاطِرُ السَّماواتِ قرئ بالرفع والجر ، فالرفع على أنه أحد أخبار ذلكم. أو خبر مبتدإ محذوف ، والجرّ على : فحكمه إلى اللّه فاطر السماوات ، وذلِكُمُ إلى أُنِيبُ اعتراض بين الصفة والموصوف جَعَلَ لَكُمْ خلق لكم مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم من الناس أَزْواجاً وَمِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً أى : خلق من الأنعام أزواجا. ومعناه : وخلق للأنعام أيضا من أنفسها أزواجا يَذْرَؤُكُمْ يكثركم ، يقال : ذرأ اللّه الخلق : بثهم وكثرهم. والذر ، والذرو ، والذرء : أخوات فِيهِ في هذا التدبير ، وهو أن جعل للناس والأنعام أزواجا ، حتى كان بين ذكورهم وإناثهم التوالد والتناسل. والضمير في يَذْرَؤُكُمْ يرجع إلى المخاطبين والأنعام ، مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين «1». فإن قلت : ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير؟ وهلا قيل : يذرؤكم به؟ قلت : جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن للبث والتكثير ، ألا تراك تقول. للحيوان في خلق الأزواج تكثير ، كما قال تعالى وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسدّ مسدّه وعمن هو على أخص أوصافه، فقد نفوه عنه. ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم : كان أبلغ «2» من قولك :

(1). قال محمود : «إن الضمير المتصل بيذرؤ عائد على الأنفس وعلى الأنعام مغلبا فيه المخاطبون العقلاء على الغيب مما لا يعقل ، وهي من الأحكام ذات العلتين» قال أحمد : الصحيح أنهما حكمان متباينان غير متداخلين ، أحدهما : مجيئه على نعت ضمير العقلاء أعم من كونه مخاطبا أو غائبا. والثاني : مجيئه بعد ذلك على نعت الخطاب ، فالأول لتغليب العقل. والثاني لتغليب الخطاب.
(2). قوله «لا تخفر الذمم كان أبلغ» في الصحاح : أخفرته ، إذا نقضت عهده وغدرت به. وفيه : «أيقع الغلام» أى : ارتفع : وهو يافع ، ولا تقول : موقع. وقوله «كان أبلغ» لعل تقديره : فان قلت له ذلك كان أبلغ. (ع)

أنت لا تخفر. ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه ، يريدون : إيفاعه وبلوغه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب : «ألا وفيهم الطيب الطاهر «1» لداته» والقصد إلى طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : ليس كاللّه شيء ، وبين قوله لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها ، وكأنهما عبارتان معتقبتان على معنى واحد : وهو نفى المماثلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ فإنّ معناه : بل هو جواد من غير تصوّر يد ولا بسط لها : لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون شيئا آخر ، حتى أنهم استعملوا فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ومن لا مثل «2» له ، ولك أن تزعم أنّ كلمة التشبيه كرّرت للتأكيد ، كما كرّرها من قال : وصاليات ككما يؤثفين «3»

(1). قال محمود : «تقول العرب : مثلك لا يبخل ، فينفون البخل عن مثله ، والمراد نفسه. ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الذمم. ومنه قولهم : قد أيفعت لداته وبلغت أترابه. وفي حديث رقيقة بنت صيفي في سقيا عبد المطلب : ألا وفيهم الطيب الطاهر لداته، تريد طهارته وطيبه ، فإذا علم أنه من باب الكناية : لم يكن فرق بين قولك ليس كاللّه شيء وبين قوله ليس كمثله شيء ، إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها. ونحوه قوله تعالى بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ فان معناه بل هو جواد من غير تصور يد ولا بسط ، لأنها وقعت عبارة عن الجود لا يقصدون بها شيئا آخر ، حتى أنهم يستعملونها فيمن لا يد له ، فكذلك استعمل هذا فيمن له مثل ، وفيمن لا مثل له ، ثم قال : ولك أن تزعم أن كلمة التشبيه كررت للتأكيد كما كررت في قوله من قال :
وصاليات ككما يؤثفين
ومن قال :
فأصبحت مثل كعصف مأكول
انتهى كلامه. قال أحمد : هذا الوجه الثاني مردود على ما فيه من الإخلال بالمعنى ، وذلك أن الذي يليق هنا تأكيد نفى المماثلة ، والكاف على هذا الوجه إنما تؤكد المماثلة وفرق بين تأكيد المماثلة المنفية ، وبين تأكيد نفى المماثلة ، فان نفى المماثلة المهملة عن التأكيد أبلغ وآكد في المعنى من نفى المماثلة المقترنة بالتأكيد ، إذ يلزم من نفى المماثلة الغير المؤكدة نفى كل مماثلة. ولا يلزم من نفى مماثلة محققة متأكدة بالغة نفى مماثلة دونها في التحقيق والتأكيد. وحيث وردت الكاف مؤكدة للمماثلة وردت في الإثبات فأكدته ، فليس النظر في الآية بهذين النظرين مستقيما واللّه أعلم. ومما يرشد إلى صحة ما ذكرته أن للقائل أن يقول : ليس زيد شبيها بعمرو ، لكن مشبها له ، ولو عكس هذا لم يكن صحيحا ، وما ذاك إلا أنه يلزم من نفى أدنى المشابهة نفى أعلاها ، ولا يلزم من نفى أعلاها نفى أدناها ، فمتى أكد التشبيه قصر عن المبالغة. والوجه الأول الذي ذكره هو الوجه في الآية عنده ، وأتى بمطية الضعف في هذا الوجه الثاني بقوله : ولك أن تزعم ، فافهم.
(2). رواه ابن عبد الرحمن بن موهب حليف بنى زهرة عن أبيه : حدثني مخرمة بن نوفل بحديث سقيا عبد المطلب لكن ليس فيه الطيب الطاهر لداته ورواه الطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث عروة بن مصرف عن مخرمة ابن نوفل عن أمه رقيقة بنت أبى صيفي بن هاشم ، وكانت لدة عبد المطلب. قالت «تتابعت على قريش سنون - الحديث بطوله» ورويناه في جزء أبى السكين. «تنبيه» وقع رقيقة بنت صيفي والصواب بنت أبى صيفي.
(3) لم يبق من آي بها يحلين غير رماد وعظام كثفين
وغ ير ود جازل أو ودين وصاليات ككما يؤثفين
لخطام المجاشعي. والآي : واحده آية ، أى : علامة. ويحلين : مضارع مبنى للمجهول ، من حليته تحلية : إذا وصفت حليته وصفته. يقول : لم يبق من آثار هذه الديار علامات فيها تذكر صفتها غير رماد وعظام متكاثفين متراكمين. والكشف - بالتحريك - : كسبب : المجتمع ، فلعله سكنه للوزن. وروى : غير رماد وخطام كثفين.
والخطام : الزمام. ويروى بالمهملة ، وهو ما تحطم وتكسر من الحطب اليابس. والكثف - كحمل - : وعاء الرعي فكثفين على حذف العاطف. وقيل بدل مما قبله. والأوجه روايته وخطام كثفين بالاضافة ، لأجل موافقة القوافي أى : ورباط وعاءين ، وكرر أداة الاستثناء للتوكيد. والود : أصله وتد ، فقلبت التاء دالا وأدغمت في الأخرى عند تميم شذوذا. والجادل : المنتصب والغليظ ، أى : لم يق غير وتد منتصب بها أو وتدين لا غير ، حيث لم يشك إلا في ذلك. والصاليات صفة للاثافى. وقيل : صفة للنساء الموقدات للنار : وقيل : صفة للخيل الصاليات للحرب كالأثافى الصاليات للنار ، لكنهما لا يناسبان وصف الدار بالخلو. والأثفية : حجر الكانون ، وزنها : أفعولة في الأصل ، وجمعها أثافى. وأثفيت للقدر : وضعت الأثافى لها. وثفيتها تثفية : وضعتها على الأثافى. وقوله :
يؤثفين مضارع مبنى للمجهول ، جاء على الأصل مهموزا ، كيؤكر من بالهمزة ، وهذا يدل على أن الصاليات صفة للأحجار الملازمات للنار المحترقات بها ، فلعله شبه النساء بالأثافى لدمامتهن وسوادهن ، بكثرة الدخان وملازمتهن النار.
وعليه فالمعنى : ونساء صاليات كالأحجار تثفى وتوضع للقدر ، فما موصولة واقعة على الأحجار لا مصدرية ولا كافة ، وكرر كاف التشبيه للتوكيد ، لكن الثانية اسم بمعنى مثل ، لأن حرف الجر لا يدخل على مثله. ويمكن أنه كرر الحرف من غير إعادة المجرور شذوذا. ويروى بعد قوله وصاليات ... الخ
لا يشتكين عملا ما أنقين ما دام مخ في سلامى أو عين
وهو يناسب القول بأنها صفة للنساء أو الخيل على التشبيه السابق. والانقاء : كثرة النقي بالكسر وهو المخ. يقال :
أنقت الإبل إذا سمنت وكثر مخها ، أى : لا يشتكين عملا مدة إنقائهن وسمنهن ، وفسر ذلك بقوله : ما دام مخ ... الخ والسلاميات : عظام الأصابع وهي والعين آخر ما يبقى فيه المخ. ويروى أيضا هكذا :
أهل عرفت الدار بالغريين وصاليات ككما يؤثفين

والغريان : بناء ان طويلان ، يقال : هما قبرا مالك وعقيل : نديمى جذيمة الأبرش ، سميا بذلك لأن النعمان كان يغريهما يمن يريد قتله إذا خرج يوم بؤسه. والأشبه أن ذلك من تخليط الراوي ، وأن الصاليات : الأحجار. وقوله «لا يشتكين ... الخ» ليس من هذا الرجز ، فلا ينبغي روايته معه ، وهو الذي من صفة الخيل ، أو أصل النساء لا الصاليات. ويجوز أن الرجز هكذا :

أهل عرفت الدار بالغريين لم يبق من آي بها يحلين

وأن قوله «لا يشتكين ... الخ» من موضع آخر من ذلك الرجز في صفة الخيل ، كما رواه صاحب الكافي شاهدا على الأكفاء في القافية هكذا :

بنات وطاء على خد الليل لا يشتكين عملا ما أنقين

لاختلاف حرفى الروى. والوطاء - بالضم والتشديد - : من الوطء على الأرض. وخد الليل : طريقه الذي لا يسلك إلا فيه. وقال بعضهم : إن هذا في صفة الخيل ، وأنه من مشطور المنسرح الموقوف. وعلى أنه في صفة أجل ، أى : فلك المطايا بنات نوق أو فحول ، وطاء : جمع واطئ أو واطئة ، على خد الليل : كناية عن قوتهن في السير ، حتى كأنهن يغلبن الليل ، فيصر عنه ويطأن على خده ، فهن لا يبالين به. [.....]

ومن قال : فأصبحت مثل كعصف مأكول «1»

(1) بالأمس كانت في رخاء مأمول فأصبحت مثل كعصف مأكول

يروى لرؤية بدله :

ولعبت طير بهم أبابيل فصيروا مثل كعصف مأكول

يقول : بالأمس ، أى : في الزمن الماضي القريب ، كانت تلك الديار مثلا في رخاء ، أى : خصب وسعة من الثروة والغنى ، مأمول ذلك ، أى : متمنى للناس ، وكرر كلمة التشبيه للتوكيد ، والعصف : ما على الحب وعلى ساق الزرع من التين والورق اليابس ، مأكول : أى أصابه الأكال ، وهو الدود. وأكلته الدواب ثم راثته. وأبابيل ، بمعنى جماعات متفرقة ، صفة طير ، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وقيل : واحده أبول كعجول. وقيل : إبال كمفتاح. وقيل إبيل كمسكين. وقول رؤية «صيروا» بالتشديد والبناء للمجهول ، ولعل هذا رجز غيره ذاك.

[سورة الشورى (42) : آية 12]

لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

وقرئ : ويقدّره. إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فإذا علم أنّ الغنى خير للعبد أغناه ، وإلا أفقره.

[سورة الشورى (42) : آية 13]

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (13)

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ دين نوح ومحمد ومن بينهما من الأنبياء ، ثم فسر المشروع الذي اشترك هؤلاء الأعلام من رسله فيه بقوله أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ والمراد : إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد اللّه وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء ، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما ، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة. قال اللّه تعالى لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ومحل أَنْ أَقِيمُوا إما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما رفع على الاستئناف ، كأنه قيل : وما ذلك المشروع؟ فقيل : هو إقامة الدين. ونحوه قوله تعالى إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً. كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ عظم عليهم وشق عليهم ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من إقامة دين اللّه والتوحيد يَجْتَبِي إِلَيْهِ يجتلب إليه ويجمع. والضمير للدين بالتوفيق والتسديد مَنْ يَشاءُ من ينفع فيهم توفيقه ويجرى عليهم لطفا.

[سورة الشورى (42) : آية 14]

وَما تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (14)

وَما تَفَرَّقُوا يعنى أهل الكتاب بعد أنبيائهم إِلَّا مِنْ بَعْدِ أن علموا أنّ الفرقة ضلال وفساد ، وأمر متوعد عليه على ألسنة الأنبياء وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وهي عدة التأخير إلى يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حين افترقوا لعظم ما اقترفوا وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ وهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لَفِي شَكٍّ من كتابهم لا يؤمنون به حق الإيمان. وقيل : كان الناس أمّة واحدة مؤمنين بعد أن أهلك اللّه أهل الأرض أجمعين بالطوفان ، فلما مات الاباء اختلف الأبناء فيما بينهم ، وذلك حين بعث اللّه إليهم النبيين مبشرين

وقرئ : ورّثوا ، وورثوا.

[سورة الشورى (42) : آية 15]

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (15)

فَلِذلِكَ فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعبا فَادْعُ إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية القديمة وَاسْتَقِمْ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك اللّه وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ المختلفة الباطلة بما أنزل اللّه من كتاب ، أىّ كتاب صحّ أنّ اللّه أنزله ، يعنى الإيمان بجميع الكتب المنزلة ، لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كقوله تعالى وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ إلى قوله أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ في الحكم إذا تخاصمتم فتحاكمتم إلىّ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ أى لا خصومة لأنّ الحق قد ظهر وصرتم محجوجين به فلا حاجة إلى المحاجة. ومعناه : لا إيراد حجة بيننا ، لأنّ المتحاجين : يورد هذا حجته وهذا حجته اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا يوم القيامة فيفصل بيننا وينتقم لنا منكم ، وهذه محاجزة ومتاركة بعد ظهور الحق وقيام الحجة والإلزام. فإن قلت : كيف حوجزوا وقد فعل بهم بعد ذلك ما فعل من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والإجلاء؟ قلت : المراد محاجزتهم في مواقف المقاولة لا المقاتلة.

[سورة الشورى (42) : آية 16]

وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (16)

يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يخاصمون في دينه مِنْ بَعْدِ ما استجاب له الناس ودخلوا في الإسلام ، ليردّوهم إلى دين الجاهلية، كقوله تعالى وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً كان اليهود والنصارى يقولون للمؤمنين : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم «1» وأولى بالحق. وقيل : من بعد ما استجاب اللّه لرسوله ونصره يوم بدر وأظهر دين الإسلام داحِضَةٌ باطلة زالة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 17 إلى 18]

اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (18)

أَنْزَلَ الْكِتابَ أى جنس الكتاب وَالْمِيزانَ والعدل والتسوية. ومعنى إنزال العدل ، أنه أنزله في كتبه المنزلة. وقيل: الذي يوزن به. بالحق : ملتبسا بالحق ، مقترنا به ، بعيدا من الباطل أو بالغرض الصحيح كما اقتضته الحكمة. أو بالواجب من التحليل والتحريم وغير ذلك السَّاعَةَ في تأويل البعث ، فلذلك قيل قَرِيبٌ أو لعل مجيء الساعة قريب.

فإن قلت : كيف يوفق ذكر اقتراب الساعة مع إنزال الكتاب والميزان؟ قلت : لأنّ الساعة يوم الحساب ووضع الموازين للقسط ، فكأنه قيل : أمركم اللّه بالعدل والتسوية والعمل بالشرائع قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم ، ويوفى لمن أوفى ويطفف لمن طفف.

المماراة : الملاجة «2» لأنّ كل واحد منهما يمرى ما عند صاحبه لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ من الحق : لأنّ قيام الساعة غير مستبعد من قدرة اللّه ، ولدلالة الكتاب المعجز على أنها آتية لا ريب فيها ، ولشهادة العقول على أنه لا بدّ من دار الجزاء.

[سورة الشورى (42) : آية 19]

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (19)

لَطِيفٌ بِعِبادِهِ برّ بليغ البرّ بهم ، قد توصل برّه إلى جميعهم ، وتوصل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه ، وهم أحد من كلياته وجزئياته. فإن قلت : فما معنى قوله يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بعد توصل برّه إلى جميعهم؟

(1). قوله «و نحن خير منكم» لعله : «فنحن» كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «الملاجة» بالجيم : التمادي في الخصومة ، ويمرى : أى يستخرج ، كذا في الصحاح. (ع)

قلت : كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه ، إلا أنّ البرّ أصناف ، وله أوصاف. والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير ، فيطير لبعض العباد صنف من البر لم يطر مثله لآخر ، ويصيب هذا حظ له وصف ليس ذلك الوصف لحظ صاحبه ، فمن قسم له منهم ما لا يقسم للآخر فقد رزقه ، وهو الذي أراد بقوله تعالى يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ كما يرزق أحد الأخوين ولدا دون الآخر ، على أنه أصابه بنعمة أخرى لم يرزقها صاحب الولد وَهُوَ الْقَوِيُّ الباهر القدرة ، الغالب على كل شيء الْعَزِيزُ المنيع الذي لا يغلب.

[سورة الشورى (42) : آية 20]

مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20)

سمى ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة والزكاء حرثا على المجاز. وفرق بين عملى العاملين : بأن من عمل للآخرة وفق في عمله وضوعفت حسناته ، ومن كان عمله للدنيا أعطى شيئا منها لا ما بريده ويبتغيه. وهو رزقه الذي قسم له وفرغ منه وماله نصيب قط في الآخرة ، ولم يذكر في معنى عامل الآخرة وله في الدنيا نصيب ، على أن رزقه المقسوم له واصل إليه لا محالة ، للاستهانة بذلك إلى جنب ما هو بصدده من زكاء عمله وفوزه في المآب.

[سورة الشورى (42) : آية 21]

أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (21)

معنى الهمزة في أَمْ التقرير والتقريع. وشركاؤهم : شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا، لأنهم لا يعلمون غيرها وهو الدين الذي شرعت لهم الشياطين ، وتعالى الله عن الإذن فيه والأمر به وقيل شركاؤهم : أوثانهم. وإنما أضيفت إليهم لأنهم متخذوها شركاء لله ، فتارة تضاف إليهم لهذه الملابسة. وتارة إلى الله ، ولما كانت سببا لضلالتهم وافتتانهم : جعلت شارعة لدين الكفر ، كما قال إبراهيم صلوات الله عليه إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ. وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أى القضاء السابق بتأجيل الجزاء. أى : ولولا العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى بين الكافرين والمؤمنين. أو بين المشركين وشركائهم. وقرأ مسلم بن جندب : وأنّ الظالمين ، بالفتح عطفا له على كلمة الفصل ، يعنى : ولولا كلمة الفصل وتقدير تعذيب الظالمين في الآخرة، لقضى بينهم في الدنيا.

[سورة الشورى (42) : الآيات 22 إلى 23]

تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (22) ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (23)

تَرَى الظَّالِمِينَ في الآخرة مُشْفِقِينَ خائفين خوفا شديدا أرق قلوبهم مِمَّا كَسَبُوا من السيئات وَهُوَ واقِعٌ بِهِمْ يريد : ووباله واقع بهم وواصل إليهم لا بدّ لهم منه ، أشفقوا أو لم يشفقوا. كأن روضة جنة المؤمن أطيب بقعة فيها وأنزهها عِنْدَ رَبِّهِمْ منصوب بالظرف لا بيشاءون قرئ : يبشر ، من بشره. ويبشر من أبشره. ويبشر ، من

فنزلت الآية إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى يجوز أن يكون استثناء متصلا ، أى : لا أسألكم أجرا إلا هذا ، وهو أن تودوا أهل قرابتي ، ولم يكن هذا أجرا في الحقيقة ، لأنّ قرابته قرابتهم ، فكانت صلتهم لازمة لهم في المروءة. ويجوز أن يكون منقطعا ، أى : لا أسألكم أجرا قط ولكنني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم. فإن قلت : هلا قيل : إلا مودّة القربى : أو إلا المودة للقربى. وما معنى قوله إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ؟ قلت : جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها ، كقولك : لي في آل فلان مودّة. ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد : أحبهم وهم مكان حبى ومحله ، وليست فِي بصلة للمودّة ، كاللام إذا قلت : إلا المودّة للقربى ، إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الظرف به في قولك : المال في الكيس. وتقديره : إلا المودّة ثابتة في القربى ومتمكنة «1» فيها. والقربى : مصدر كالزلفى والبشرى ، بمعنى : قرابة. والمراد في أهل القربى. وروى أنها لما نزلت قيل : يا رسول اللّه ، من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟

(1). قال محمود : «إن قلت هلا قيل : إلا مودة القربى. أو : إلا المودة للقربى. وأجاب بأنهم جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها ، كقولك : لي في آل فلان هوى وحب شديد ، وليس فِي صلة للمودة ، كاللام إذا قلت :
إلا المودة للقربى ، وإنما هي متعلقة بمحذوف تقديره : إلا المودة ثابتة في القربى ومتمكنة فيها» قال أحمد : وهذا المعنى هو الذي قصد بقوله في الآية التي تقدمت : إن قوله يذرؤكم فيه ، إنما جاء عوضا من قوله : يذرؤكم به ، فافهمه.

قال : «علىّ وفاطمة وابناهما «1»» ويدل عليه ما روى عن على رضى اللّه عنه : شكوت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حسد الناس لي. فقال «أما ترضى أن تكون رابع أربعة : أوّل من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين ، وأزواجنا عن أيماننا وشمائلنا ، وذريتنا خلف أزواجنا» «2» وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي. ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه عليها فأنا أجازيه عليها غدا إذا لقيني يوم القيامة» «3» وروى. أنّ الأنصار قالوا : فعلنا وفعلنا ، كأنهم افتخروا ، فقال عباس أو ابن عباس رضى اللّه عنهما : لنا الفضل عليكم ، فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأتاهم في مجالسهم فقال : «يا معشر الأنصار ، ألم تكونوا أذلة فأعزكم اللّه بى»؟ قالوا بلى يا رسول اللّه. قال : «أ لم تكونوا ضلالا فهداكم اللّه بى»؟ قالوا : بلى يا رسول اللّه. قال : «أفلا تجيبونني» «4»؟

قالوا : ما نقول يا رسول اللّه؟ قال : «ألا تقولون : ألم يخرجك قومك فآويناك ، أو لم يكذبوك فصدقناك ، أو لم يخذلوك فنصرناك» قال : فما زال يقول حتى جثوا على الركب وقالوا : أموالنا وما في أيدينا للّه ولرسوله. فنزلت الآية. وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من مات على حب آل محمد مات شهيدا «5» ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل اللّه قبره مزار ملائكة الرحمة ،

(1). أخرجه الطبراني وابن أبى حاتم والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وحسين ضعيف ساقط. وقد عارضه ما هو أولى منه. ففي البخاري من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبير قربى آل محمد صلى اللّه عليه وسلم؟
فقال ابن عباس : عجلت. إن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة - الحديث» قلت وأخرج سعيد بن منصور من طريق الشعبي قال «أكثروا علينا في هذه الآية. فكتبنا إلى ابن عباس فكتب - فذكر نحوه ، وابن طاوس أتم منه.
(2). أخرجه الكريمي عن ابن عائشة بسنده عن على رضى اللّه عنه ورواه الطبراني من حديث أبى رافع «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لعلى «إن أول أربعة يدخلون الجنة - فذكره» وسنده واه.
(3). أخرجه الثعلبي من حديث على رضى اللّه عنه. وفيه عبد اللّه بن أحمد بن عامر الطائي عن أبيه. وهو كذاب
(4). أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبراني في الأوسط ، كلهم من حديث ابن عباس. وفيه يزيد بن زياد وهو ضعيف
(5). أخرجه الثعلبي : أخبرنا عبد اللّه بن محمد بن على البلخي حدثنا يعقوب بن يوسف بن إسحاق حدثنا محمد بن أسلم حدثنا يعلى بن عبيد عن إسماعيل بن قيس عن جرير - بطوله. وآثار الوضع عليه لائحة. ومحمد ومن فوقه أثبات. والآفة فيه ما بين الثعلبي ومحمد.

ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوب «1» بين عينيه : آيس من رحمة اللّه ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن

أتت الأنصار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمال جمعوه وقالوا : يا رسول اللّه ، قد هدانا اللّه بك وأنت ابن أختنا وتعروك نوائب وحقوق ومالك سعة ، فاستعن بهذا على ما ينوبك «2» ، فنزلت وردّه. وقيل الْقُرْبى : التقرب إلى اللّه تعالى ، أى : إلا أن تحبوا اللّه ورسوله في تقرّبكم إليه بالطاعة والعمل الصالح. وقرئ : إلا مودّة في القربى مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً عن السدّى أنها المودّة في آل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : نزلت في أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ومودّته فيهم. والظاهر : العموم في أى حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودّة في القربى : دل ذلك على أنها تناولت المودّة تناولا أوّليا ، كأنّ سائر الحسنات لها توابع. وقرئ : يزد ، أى : يزد اللّه. وزيادة حسنها من جهة اللّه مضاعفتها ، كقوله تعالى مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وقرئ : حسنى ، وهي مصدر كالبشرى ، الشكور في صفة اللّه : مجاز للاعتداد بالطاعة ، وتوفية ثوابها ، والتفضل على المثاب.

[سورة الشورى (42) : آية 24]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (24)

أَمْ منقطعة. ومعنى الهمزة فيه التوبيخ «3» ، كأنه قيل : أيتما لكون أن ينسبوا مثله إلى الافتراء ، ثم إلى الافتراء على اللّه الذي هو أعظم الفرى وأفحشها فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ فإن يشأ اللّه يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى تفترى عليه الكذب فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على اللّه إلا من كان في مثل حالهم ، وهذا الأسلوب مؤدّاه استبعاد الافتراء من مثله ،

(1). قوله «مكتوب بين عينيه» لعله : مكتوبا. (ع)
(2). ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب عن ابن عباس بغير سند. ويشبه أن يكون عن الكلبي عن أبى صالح عنه. وروى الطبراني من طريق عثمان بن القطان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه ابن مردويه عنه.
(3). قوله «و معنى الهمزة فيه التوبيخ» لعله : فيها. (ع)

وأنه في البعد مثل الشرك باللّه والدخول في جملة المختوم على قلوبهم. ومثال هذا : أن يخوّن بغض الأمناء فيقول لعل اللّه خذلنى ، لعل اللّه أعمى قلبي ، وهو لا يريد إثبات الخذلان وعمى القلب.

وإنما يريد استبعاد أن يخوّن مثله ، والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم ، ثم قال : ومن عادة اللّه أن يمحو الباطل ويثبت الحق بِكَلِماتِهِ بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ يعنى : لو كان مفتريا كما تزعمون لكشف اللّه افتراءه ومحقه وقذف بالحق على باطله فدمغه. ويجوز أن يكون عدة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأنه يمحو الباطل الذي هم عليه من البهت «1» والتكذيب ، ويثبت الحق الذي أنت عليه بالقرآن وبقضائه الذي لا مردّ له من نصرتك عليهم ، إنّ اللّه عليم بما في صدرك وصدورهم ، فيجري الأمر على حسب ذلك. وعن قتادة يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ : ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى ، يعنى : لو افترى على اللّه الكذب لفعل به ذلك ، وقيل يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ : يربط عليه بالصبر ، حتى لا يشق عليك أذاهم. فإن قلت : إن كان قوله وَيَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ كلاما مبتدأ غير معطوف على يختم ، فما بال الواو ساقطة في الخط؟ قلت : كما سقطت في قوله تعالى وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ وقوله تعالى سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ على أنها مثبتة في بعض المصاحف.

[سورة الشورى (42) : آية 25]

وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (25)

يقال : قبلت منه الشيء ، وقبلته عنه. فمعنى قبلته منه : أخذته منه وجعلته مبدأ قبولى ومنشأه.

ومعنى : قبلته عنه : عزلته عنه وأبنته عنه. والتوبة : أن يرجع عن القبيح والإخلال بالواجب بالندم عليهما والعزم على أن لا يعاود ، لأنّ المرجوع عنه قبيح وإخلال بالواجب. وإن كان فيه لعبد حق : لم يكن بد من التفصي على طريقه ، وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال : اللهم إنى

(1). قوله «من البهت» أى : اتهام الإنسان بما ليس فيه ، (ع)

[سورة الشورى (42) : آية 26]

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (26)

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا أى يستجيب لهم ، فحذف اللام كما حذف في قوله تعالى وَإِذا كالُوهُمْ أى يثيبهم على طاعتهم ويزيدهم على الثواب تفضلا ، أو إذا دعوه استجاب دعاءهم وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم. وقيل : الاستجابة : فعلهم ، أى يستجيبون له بالطاعة إذا دعاهم إليها وَيَزِيدُهُمْ هو مِنْ فَضْلِهِ على ثوابهم. وعن سعيد بن جبير : هذا من فعلهم : يجيبونه إذا دعاهم. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قيل له : ما بالنا ندعو فلا نجاب؟ قال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا.

[سورة الشورى (42) : آية 27]

وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27)

لَبَغَوْا من البغي وهو الظلم ، أى : لبغى هذا على ذاك ، وذاك على هذا ، لأنّ الغنى مبطرة مأشرة «1» ، وكفى بحال قارون عبرة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «أخوف ما أخاف على أمّتى زهرة الدنيا وكثرتها» «2» ولبعض العرب : وقد جعل الوسمىّ ينبت بيننا وبين بنى رومان نبعا وشوحطا «3»

يعنى : أنهم أحيوا فحدّثوا أنفسهم بالبغي والتفانن. أو من البغي وهو البذخ والكبر ، أى : لتكبروا في الأرض ، وفعلوا ما يتبع الكبر من الغلو فيها والفساد. وقيل : نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى. قال خباب ابن الأرت : فينا نزلت ، وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها بِقَدَرٍ بتقدير. يقال قدره قدرا وقدرا.

(1). قوله «مبطرة مأشرة» في الصحاح : الأشر : البطر. (ع) [.....]
(2). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال. ذكر لنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .. بهذا - وزاد «و كان يقال خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك» وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدري. بلفظ «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا»
(3). يروى : وقد جعل الوسمي أول مطر السنة ، لأنه يسم الأرض بالنبات. والنبع : شجر تتخذ منه القسي.
والشوحط مثله ، أى : قد يشرع المطر في إنبات الأشجار بيننا وبينهم. والمعنى : أنهم يطلبون الاقامة حتى تعظم الأشجار بينهم لأنهم أغنياء لا يكثرون الارتحال كغيرهم. أو المعنى : أنهم كانوا إذا جاء الربيع وبلغت تلك الأشجار يتخذون منها الرماح والقسي ، ويتحاربون. فالكلام كناية عن انتشاب الحرب بين القبيلتين ، وهذا هو الذي يعطيه السياق ، وذكر البينية ، وتخصيص ذلك الشجر.

خَبِيرٌ بَصِيرٌ يعرف ما يؤول إليه أحوالهم ، فيقدّر لهم ما هو أصلح لهم وأقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية. ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهلكوا. فإن قلت : قد نرى الناس يبغى بعضهم على بعض ، ومنهم مبسوط لهم ، ومنهم مقبوض عنهم ، فإن كان المبسوط لهم يبغون ، فلم بسط لهم : وإن كان المقبوض عنهم يبغون فقد يكون البغي بدون البسط ، فلم شرطه؟ قلت : لا شبهة في أنّ البغي مع الفقر أقل ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه ، فلو عم البسط لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما عليه «1» الآن.

[سورة الشورى (42) : آية 28]

وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28)

قرئ : قنطوا بفتح النون وكسرها وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ أى : بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب. وعن عمر رضى اللّه عنه أنه قيل له : اشتدّ القحط وقنط الناس «2» فقال : مطروا إذا : أراد هذه الآية. ويجوز أن يريد رحمته في كل شيء ، كأنه قال : ينزل الرحمة التي هي الغيث ، وينشر غيرها من رحمته الواسعة الْوَلِيُّ الذي يتولى عباده بإحسانه الْحَمِيدُ المحمود على ذلك يحمده أهل طاعته.

[سورة الشورى (42) : آية 29]

وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (29)

وَما بَثَّ يجوز أن يكون مرفوعا ومجرورا يحمل على المضاف إليه أو المضاف. فإن قلت : لم جاز فِيهِما مِنْ دابَّةٍ والدواب في الأرض وحدها؟ قلت : يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان ملتبسا ببعضه ، كما يقال : بنو تميم فيهم شاعر مجيد أو شجاع بطل ، وإنما هو في فخذ «3» من أفخاذهم أو فصيلة من فصائلهم ، وبنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله نويس منهم.

(1). قوله «عكس ما عليه الآن» لعله : ما هو عليه. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي من طريق قتادة قال «ذكر لنا» فذكره بتمامه. ورواه باختصار عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال «ذكر لنا أن رجلا أتى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين. قحط المطر وقنط الناس. فقال : مطروا إذن».
(3). قوله «فخذ» العشائر أقلها الفخذ ، وفوقه البطن ، ثم العمارة ، ثم الفصيلة ، ثم القبيلة ، ثم الشعب. فهو أكثرها. أفاده الصحاح. (ع)

ومنه قوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وإنما يخرج من الملح «1». ويجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشى مع الطيران. فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى. ولا يبعد أن يخلق في السماوات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض ، سبحان الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق. إذا يدخل على المضارع كما يدخل على الماضي. قال اللّه تعالى وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى ومنه إِذا يَشاءُ وقال الشاعر : وإذا ما أشاء أبعث منها آخر اللّيل ناشطا مذعورا»

[سورة الشورى (42) : الآيات 30 إلى 31]

وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (30) وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (31)

في مصاحف أهل العراق فَبِما كَسَبَتْ بإثبات الفاء على تضمين «ما» معنى الشرط. وفي مصاحف أهل المدينة «بما كسبت» بغير فاء ، على أنّ «ما» مبتدأة ، وبما كسبت : خبرها من غير تضمين معنى الشرط. والآية مخصوصة بالمجرمين ، «3» ولا يمتنع أن يستوفى اللّه بعض عقاب المجرم ويعفو عن بعض.

(1). قال محمود : «فان قلت : لم جاز فيهما من دابة والدواب في الأرض وحدها؟ وأجاب بأنه يجوز أن ينسب الشيء إلى جميع المذكور وإن كان لبعضه ، كقوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وإنما يخرج من الملح ... الخ» قال أحمد : إطلاق الدواب على الأناسى بعيد من عرف اللغة ، فكيف في إطلاقه على الملائكة. والصواب - واللّه أعلم - : هو الوجه الأول ، وقد جاء مفسرا في غير ما آية ، كقوله إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ثم قال وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ فخص هذا الأمر بالأرض ، واللّه أعلم.
(2). إذا : ظرف للمستقبل ، فإذا دخل عليه الماضي كان مستقبلا ، أو المضارع كان نصا في الاستقبال ، وجرد من الناقة أمرا آخر لشدة سيرها ، فلذلك قال : منها. وأصل المعنى : أبعثها في آخر الليل كالناشط ، وهو الثور الوحشي يخرج من أرض إلى أخرى ، والمذعور : الخائف وهو كناية عن سريع السير جدا.
(3). قال محمود : «الآية مخصوصة بالمجرمين ... الخ» قال أحمد : هذه الآية تنكسر عندها القدرية ولا يمكنهم ترويج حيلة في صرفها عن مقتضى نصها ، فإنهم حملوا قوله تعالى وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ على التائب ، وهو غير ممكن لهم هاهنا ، فانه قد أثبت التبعيض في العفو ، ومحال عندهم أن يكون العفو هنا مقرونا بالتوبة ، فانه يلزم تبعيض التوبة أيضا. وهي عندهم لا تتبعض. وكذلك نقل الامام عن أبى هاشم وهو رأس الاعتزال والذي تولى كبره منهم. فلا محمل لها إلا الحق الذي لا مرية فيه ، وهو مرد العفو إلى مشيئة اللّه تعالى غير موقوف على التوبة.
وقول الزمخشري إن الآلام التي تصيب الأطفال والمجانين لها أعواض ، إنما يريد به وجوب العوض على اللّه تعالى على سياق معتقده ، وقد أخطأ على الأصل والفرع ، لأن المعتزلة وإن أخطأت في إيجاب العوض ، فلم تقل بإيجابه في الأطفال والمجانين. ألا ترى أن القاضي أبا بكر ألزمهم قبح إيلام البهائم والأطفال والمجانين فقال : لا أعواض لها ، وليس مترتبا على استحقاق سابق فيحسن، فإنما يتم إلزامه بموافقتهم له على أن لا أعواض لها.

فأمّا من لا جرم له كالأنبياء والأطفال والمجانين ، فهؤلاء إذا أصابهم شيء من ألم أو غيره فللعوض الموفى والمصلحة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما من اختلاج عرق ولا خدش عود ولا نكبة حجر إلا بذنب ، ولما يعفو اللّه عنه أكثر» «1» وعن بعضهم : من لم يعلم أن ما وصل إليه من الفتن والمصائب باكتسابه ، وأنّ ما عفا عنه مولاه أكثر : كان قليل النظر في إحسان ربه إليه. وعن آخر : العبد ملازم للجنايات في كل أوان ، وجناياته في طاعاته أكثر من جناياته في معاصيه ، لأنّ جناية المعصية من وجه وجناية الطاعة من وجوه ، واللّه يطهر عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله في القيامة ، ولولا عفوه ورحمته لهلك في أوّل خطوة : وعن علي رضى اللّه عنه وقد رفعه : من «عفى عنه في الدنيا عفى عنه في الآخرة «2» ومن عوقب في الدنيا لم تثن عليه العقوبة في الآخرة» وعنه رضى اللّه عنه : هذه أرجى آية للمؤمنين في القرآن بِمُعْجِزِينَ بفائتين ما قضى عليكم من المصائب مِنْ وَلِيٍّ من متول بالرحمة.

[سورة الشورى (42) : الآيات 32 إلى 34]

وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (32) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (33) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (34)

الْجَوارِ : السفن. وقرئ : الجوار كَالْأَعْلامِ كالجبال. قالت الخنساء : كأنّه علم في رأسه نار «3»

(1). أخرجه عبد الرزاق وابن أبى حاتم من طريق إسماعيل بن سليم عن الحسن والطبري والبيهقي في أواخر الشعب. عن قتادة كلاهما مرسل. ووصله عبد الرزاق من رواية الصلت بن بهرام عن أبى وائل عن البراء رضى اللّه عنه

(2). أخرجه ابن ماجة من رواية أبى جحيفة عن على رفعه. بلفظ : من أصاب ذنبا في الدنيا فعوقب به ، فاللّه أعدل من أن يثنى على عبد عقوبته. ومن أذنب ذنبا فستر اللّه عليه وعفا عنه فاللّه أكرم من أن يعود في شيء عفا عنه» ورواه أحمد والبزار والحاكم والدارقطني والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين. وقال إسحاق في مسنده :

أخبرنا عيسى بن يونس عن إسماعيل بن عبد الملك بن أبى الصفراء عن يونس بن حبان عن على نحوه وفيه انقطاع

(3) وإن صخرا لمولانا وسيدنا وإن صخرا إذا يشتو لنحار

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

للخنساء ترثى أخاها. ويشتو : أى يدخل في الشتاء ، وهو حكاية حال ماضية. ونحار : كثير نحر الإبل للضيفان كناية عن كثرة كرمه. والأغر : الأبيض. والأبلج : الطلق الوجه المعروف. والهداة : جمع هاد : من يتقدم غيره ليدله. والعلم : الجبل : وفي رأسه نار : صفة علم جاءت لترشيح التشبيه وتقريره ، والمبالغة في توضيح المشبه وتشهيره ، وعادة دليل الركب : الاهتداء إلى الطريق بالجبال الشامخة ، فإذا كان فوقها نار : علم أن أهلها كرام.

ويروى :

وإن صخرا لتأتم الهداة به

وقرئ : الرياح فيظللن بفتح اللام وكسرها ، من ظل يظل ويظل ، نحو : ضل يضل ويضل رَواكِدَ ثوابت لا تجرى عَلى ظَهْرِهِ على ظهر البحر «1» لِكُلِّ صَبَّارٍ على بلاء اللّه شَكُورٍ لنعمائه ، وهما صفتا المؤمن المخلص، فجعلهما كناية عنه ، وهو الذي وكل همته بالنظر في آيات اللّه ، فهو يستملى منها العبر يُوبِقْهُنَّ يهلكهن. والمعنى : أنه إن يشأ يبتلى المسافرين في البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجواري على متن البحر ويمنعهن من الجري ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكهن إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ منها ، فإن قلت : علام عطف يوبقهن؟ قلت : على يسكن ، لأنّ المعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن. أو يعصفها فيغرقن بعصفها. فإن قلت : فما معنى إدخال العفو في حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟ قلت : معناه : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم. فإن قلت : فمن قرأ وَيَعْفُ؟ قلت : قد استأنف الكلام.

[سورة الشورى (42) : آية 35]

وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (35)

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في وَيَعْلَمَ؟ قلت : أما الجزم فعلى ظاهر العطف وأما الرفع فعلى الاستئناف. وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وقوله تعالى وَخَلَقَ اللّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأنّ قبلها جزاء ، تقول : ما تصنع أصنع مثله وأكرمك.

وإن شئت وأكرمك ، على : وأنا أكرمك. وإن شئت وأكرمك جزما ، ففيه نظر لما أورده سيبويه في كتابه. قال : واعلم أنّ النصب بالفاء والواو في قوله : إن تأتنى آتك وأعطيك : ضعيف ، وهو نحو من قوله : وألحق بالحجاز فاستريحا «2» فهذا يجوز ، وليس بحدّ الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل.

(1). قال محمود : «معناه ثوابت لا تجرى على ظهر البحر» قال أحمد : وهم يقولون : إن الريح لم ترد في القرآن إلا عذابا ، بخلاف الرياح. وهذه الآية تخرم الإطلاق ، فان الريح المذكورة هنا نعمة ورحمة. إذ بواسطتها يسير اللّه السفن في البحر حتى لو سكنت لركدت السفن ، ولا ينكر أن الغالب من ورودها مفردة ما ذكروه. وأما اطراده فلا. وما ورد في الحديث : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا ، فلأجل الغالب في الإطلاق ، واللّه أعلم.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 557 فراجعه إن شئت اه مصححه.

إلا أن يكون من الأوّل فعل ، فلما ضارع الذي لا يوجبه كالاستفهام ونحوه : أجازوا فيه هذا على ضعفه اه. ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ليس بحدّ الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أخلى سيبويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشكلة. فإن قلت : فكيف يصح المعنى على جزم وَيَعْلَمَ؟ قلت : كأنه قال : أو إن يشأ يجمع بين ثلاثة أمور : هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين مِنْ مَحِيصٍ من محيد عن عقابه.

[سورة الشورى (42) : آية 36]

فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36)

ما الأولى ضمنت معنى الشرط ، فجاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية. عن على رضى اللّه عنه : اجتمع لأبى بكر رضى اللّه عنه مال فتصدق به كله في سبيل اللّه والخير ، فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ، فنزلت.

[سورة الشورى (42) : آية 37]

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37)

وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ عطف على الذين آمنوا ، وكذلك ما بعده. ومعنى كَبائِرَ الْإِثْمِ الكبائر من هذا الجنس. وقرئ : كبير الإثم. وعن ابن عباس رضى اللّه تعالى عنه : كبير الإثم هو الشرك هُمْ يَغْفِرُونَ أى هم الأخصاء بالغفران في حال الغضب ، لا يغول الغضب أحلامهم كما يغول حلوم الناس ، والمجيء بهم وإيقاعه مبتدأ ، وإسناد يَغْفِرُونَ إليه لهذه الفائدة ، ومثله : هُمْ يَنْتَصِرُونَ.

[سورة الشورى (42) : آية 38]

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (38)

وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ نزلت في الأنصار : دعاهم اللّه عز وجل للإيمان به وطاعته ، فاستجابوا له بأن آمنوا به وأطاعوه وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأتموا الصلوات الخمس. وكانوا قبل الإسلام وقبل مقدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة : إذا كان بهم أمر اجتمعوا وتشاوروا ، فأثنى اللّه عليهم ، أى : لا ينفردون برأى حتى يجتمعوا عليه. وعن الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم» «1» والشورى : مصدر كالفتيا ، بمعنى التشاور. ومعنى قوله وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ أى ذو شورى ، وكذلك قولهم : ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه الخلافة شورى.

(1). أخرجه ابن أبى شيبة والبخاري في الأدب وعبد اللّه بن أحمد في زيادات الزهد. وقد ذكره المصنف مرفوعا في آل عمران. [.....]

[سورة الشورى (42) : آية 39]

وَالَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39)

هو أن يقتصروا في الانتصار على ما جعله اللّه لهم ولا يعتدوا. وعن النخعي أنه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق. فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار؟ قلت : نعم ، لأنّ من أخذ حقه غير متعد حدّ اللّه وما أمر به فلم يسرف في القتل إن كان ولى دم أورد على سفيه ، محاماة على عرضه وردعا له ، فهو مطيع.

وكل مطيع محمود.

[سورة الشورى (42) : آية 40]

وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40)

كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيئة ، لأنها تسوء من تنزل به. قال اللّه تعالى : وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ : يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا. والمعنى : أنه يجب إذا قوبلت الإساءة أن تقابل بمثلها من غير زيادة ، فإذا قال أخزاك اللّه قال : أخزاك اللّه فَمَنْ عَفا وَأَصْلَحَ بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء ، كما قال تعالى فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ عدة مبهمة لا يقاس أمرها في العظم. وقوله إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز السيئة «1» والاعتداء خصوصا في حال الحرد «2» والتهاب الحمية فربما كان المجازى من الظالمين وهو لا يشعر. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على اللّه أجر فليقم. قال : فيقوم خلق ، فيقال لهم : ما أجركم على اللّه؟ فيقولون : نحن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن اللّه «3».

(1). قال محمود : «فيه دلالة على أن الانتصار لا يكاد يؤمن فيه ... الخ» قال أحمد : معنى حسن يجاب به عن قول القائل : لم ذكر هذا عقب العفو مع أن الانتصار ليس بظلم ، فيشفى غليل السائل ويحصل منه على كل طائل.
ومن هذا النمط واللّه الموفق : قوله تعالى : وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ.
(2). قوله «الحرد» في الصحاح : «الحرد» بالتحريك : الغضب. (ع)
(3). أخرجه العقيلي والطبراني في مكارم الأخلاق وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الشعب في السابع والخمسين كلهم من طريق الفضل بن يسار عن غالب العطار عن الحسن بن أنس رفعه. قال «إذا وقف العبد للحساب ينادى مناد : من كان أجر» على اللّه فليدخل الجنة - الحديث» وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية زهير بن عباد عن ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس. وأخرى عن البيهقي من رواية الثوري عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أتم منه - قال البيهقي : المتن غريب - والاسناد ضعيف.

[سورة الشورى (42) : الآيات 41 إلى 42]

وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (42)

بَعْدَ ظُلْمِهِ من إضافة المصدر إلى المفعول ، وتفسره قراءة من قرأ : بعد ما ظلم فَأُولئِكَ إشارة إلى معنى مِنْ دون لفظه ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ للمعاقب ولا للعاتب والعائب إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ يبتدئونهم بالظلم وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يتكبرون فيها ويعلون ويفسدون.

[سورة الشورى (42) : آية 43]

وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43)

وَلَمَنْ صَبَرَ على الظلم والأذى وَغَفَرَ ولم ينتصر وفوّض أمره إلى اللّه إِنَّ ذلِكَ منه لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وحذف الراجع لأنه مفهوم ، كما حذف من قولهم : السمن منوان بدرهم. ويحكى أن رجلا سب رجلا في مجلس الحسن رحمه اللّه ، فكان المسبوب يكظم ، ويعرق فيمسح العرق ، ثم قام فتلا هذه الآية ، فقال الحسن : عقلها واللّه وفهمها إذ ضيعها الجاهلون.

وقالوا : العفو مندوب إليه ، ثم الأمر قد ينعكس في بعض الأحوال ، فيرجع ترك العفو مندوبا إليه ، وذلك إذا احتيج إلى كف زيادة البغي ، وقطع مادة الأذى. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم ما يدل عليه : وهو أن زينب أسمعت عائشة بحضرته ، وكان ينهاها فلا تنتهي ، فقال لعائشة : «دونك فانتصرى» «1».

[سورة الشورى (42) : آية 44]

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (44)

(1). أخرجه النسائي من رواية خالد بن مسلمة عن عروة عن عائشة قالت : ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهي بمعنى [بياض بالأصل.] فذكر نحوه. ولم يذكر فيه النهى. ولفظه ودخل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش - إلى أن قال : فأقبلت زينب هجم لعائشة فنهاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأبت أن تنتهي. قال : لعائشة سبيها فسبتها فغلبتها».

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ ومن يخذل اللّه «1» فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه.

[سورة الشورى (42) : الآيات 45 إلى 46]

وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (45) وَما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (46)

خاشِعِينَ متضائلين متقاصرين مما يلحقهم مِنَ الذُّلِّ وقد يعلق من الذل بينظرون ، ويوقف على خاشعين يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ أى يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقة ، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف «2». وهكذا نظر الناظر إلى المكاره : لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها ويملأ عينيه منها ، كما يفعل في نظره إلى المحاب. وقيل : يحشرون عميا فلا ينظرون إلا بقلوبهم. وذلك نظر من طرف خفى. وفيه تعسف يَوْمَ الْقِيامَةِ إما أن يتعلق بخسروا ، ويكون قوله المؤمنين واقعا في الدنيا ، وإما أن يتعلق بقال ، أى : يقولون يوم القيامة إذا رأوهم على تلك الصفة.

[سورة الشورى (42) : آية 47]

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (47)

مِنَ اللَّهِ من صلة لا مردّ ، أى : لا يرده اللّه بعد ما حكم به. أو من صلة يأتى ، أى : من قبل أن يأتى من اللّه يوم لا يقدر أحد على ردّه. والنكير : الإنكار ، أى : ما لكم من مخلص من العذاب ولا تقدرون أن تنكروا شيأ مما اقترفتموه ودوّن في صحائف أعمالكم.

[سورة الشورى (42) : آية 48]

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (48)

(1). قوله «و من يخذل اللّه. فما له من ولى» تأويل على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر. وعند أهل السنة : يخلقه كالخير ، فالاضلال خلق الضلال. ومن بعده : أى من بعد إضلاله. (ع)
(2). قوله «كما ترى المصبور ينظر إلى السيف» أى : المحبوس للقتل. أفاده الصحاح. (ع)

أراد بالإنسان الجمع لا الواحد ، لقوله وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ولم يرد إلا المجرمين ، لأن إصابة السيئة بما قدّمت أيديهم إنما تستقيم فيهم. والرحمة : النعمة من الصحة والغنى والأمن. والسيئة : البلاء من المرض والفقر والمخاوف. والكفور : البليغ الكفران ، ولم يقل : فإنه كفور ، ليسجل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم «1» ، كما قال إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ، إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ والمعنى أنه يذكر البلاء وينسى النعم ويغمطها«2».

[سورة الشورى (42) : الآيات 49 إلى 50]

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَإِناثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

لما ذكر إذاقة الإنسان الرحمة وإصابته بضدّها : أنبع ذلك أنّ له الملك وأنه يقسم النعمة والبلاء كيف أراد ، ويهب لعباده من الأولاد ما تقتضيه مشيئته ، فيخص بعضا بالإناث وبعضا بالذكور ، وبعضا بالصنفين جميعا ، ويعقم آخرين فلا يهب لهم ولدا قط. فإن قلت : لم قدّم الإناث أوّلا على الذكور مع تقدّمهم عليهنّ ، ثم رجع فقدّمهم ، ولم عرف الذكور بعد ما نكر الإناث؟

قلت. لأنه ذكر البلاء في آخر الآية الأولى وكفران الإنسان بنسيانه الرحمة السابقة عنده ، ثم عقبه بذكر ملكه ومشيئته وذكر قسمة الأولاد ، فقدم الإناث لأنّ سياق الكلام أنه فاعل ما يشاؤه لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلى الجنس الذي كانت العرب تعدّه بلاء ذكر البلاء ، وأخر الذكور فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرّف أن تقديمهنّ لم يكن لتقدّمهنّ ، ولكن لمقتض آخر فقال ذُكْراناً وَإِناثاً كما قال إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى وقيل : نزلت في الأنبياء صلوات اللّه عليهم وسلامه ، حيث وهب لشعيب ولوط إناثا ، ولإبراهيم ذكورا ، ولمحمد ذكورا وإناثا ، وجعل يحيى وعيسى عقيمين إِنَّهُ عَلِيمٌ بمصالح العباد قَدِيرٌ على تكوين ما يصلحهم.

(1). قال محمود : «لم يقل : فانه كفور ، ليسجل على هذا الجنس أنه موسوم بكفران النعم ... الخ» قال أحمد : وقد أغفل هذه النكتة بعينها في الآية التي قبل هذه ، وهي قوله تعالى وَقالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ فوضع الظالمين موضع الضمير الذي كان من حقه أن يعود على اسم إن ، فيقال : ألا إنهم في عذاب مقيم ، فأتى هذا الظاهر تسجيلا عليهم بلسان ظلمهم
(2). قوله «و ينسى النعم ويغمطها» يبطرها ويحقرها. أفاده الصحاح. (ع)

[سورة الشورى (42) : آية 51]

وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51)

وَما كانَ لِبَشَرٍ وما صح لأحد من البشر أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا على ثلاثة أوجه : إما على طريق الوحى وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام ، كما أوحى إلى أم موسى وإلى إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده. وعن مجاهد : أوحى اللّه الزبور إلى داود عليه السلام في صدره.

قال عبيد بن الأبرص : وأوحى إليّ الله أن قد تأمّروا بإبل أبى أوفى فقمت على رجل «1»

أى : ألهمنى وقذف في قلبي. وإما على أن يسمعه كلامه الذي يخلقه في بعض الأجرام ، من غير أن يبصر السامع من يكلمه ، لأنه في ذاته غير مرئى «2». وقوله مِنْ وَراءِ حِجابٍ مثل أى ، كما يكلم الملك المحتجب بعض خواصه وهو من وراء الحجاب ، فيسمع صوته ولا يرى شخصه ، وذلك كما كلم موسى ويكلم الملائكة. وإما على أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيوحي الملك إليه كما كلم الأنبياء غير موسى. وقيل : وحيا كما أوحى إلى الرسل بواسطة الملائكة أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا أى نبيا كما كلم أمم الأنبياء على ألسنتهم. ووحيا ، وأن يرسل : مصدران واقعان موقع الحال ، لأنّ : أن يرسل ، في معنى إرسالا. ومن وراء حجاب : ظرف واقع موقع الحال أيضا ، كقوله تعالى وَعَلى جُنُوبِهِمْ والتقدير : وما صح أن يكلم أحدا إلا موحيا ، أو مسمعا من وراء حجاب ، أو مرسلا. ويجوز أن يكون : وحيا ، موضوعا موضع : كلاما ، لأنّ الوحى كلام خفى في سرعة ، كما تقول : لا أكلمه إلا جهرا وإلا خفانا ، لأنّ الجهر والخفات ضربان من الكلام ، وكذلك إرسالا : جعل الكلام على لسان الرسول بمنزلة الكلام بغير واسطة. تقول : قلت لفلان كذا ، وإنما قاله وكيلك أو رسولك. وقوله أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ معناه : أو إسماعا من وراء حجاب ، ومن جعل وَحْياً في معنى : أن يوحى ، وعطف يرسل عليه ، على معنى وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أى : إلا بأن يوحى. أو بأن يرسل ،

(1). أى ألهمنى اللّه وألقى في قلبي : أنهم تأمروا. وأن مخففة من الثقيلة ، واسمها : ضمير القوم أو الحال والشأن. واختار أبو حيان أنها لا اسم لها إذا خففت ، لأنها مهملة. وإن ضمن «أوحى» معنى : قال ، فان تفسيرية ، أى ، قد تآمروا بوزن تفاعلوا ، أى : تشاوروا في الأمر ، أو أجمعوا أمرهم. ومنه يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ بابل أبى أو في ليغتصبوها ، فقمت في طلبهم لأردها على رجل ، أى : لم أصبر حتى أركب. أو على رجل واحدة ، أى : بسرعة ، فلا أضع رجلي معا في الأرض.
(2). قوله «لأنه في ذاته غير مرئى» أى : لا تجوز رؤيته ، وهذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فتجوز كما تقرر في محله. (ع)

فعليه أن يقدر قوله أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ تقديرا يطابقهما عليه ، نحو : أو أن يسمع «1» من وراء حجاب. وقرئ: أو يرسل رسولا فيوحى بالرفع ، على : أو هو يرسل. أو بمعنى مرسلا عطفا على وحيا في معنى موحيا. وروى أنّ اليهود قالت للنبي صلى اللّه عليه وسلم : ألا تكلم اللّه وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك ، فقال : لم ينظر موسى إلى اللّه «2» ، فنزلت. وعن عائشة رضى اللّه عنها : من زعم أنّ محمدا رأى ربه فقد أعظم على اللّه الفرية «3» ، ثم قالت : أو لم تسمعوا ربكم يقول : فتلت هذه الآية. إِنَّهُ عَلِيٌّ عن صفات المخلوقين حَكِيمٌ يجرى أفعاله على موجب الحكمة ، فيكلم تارة بواسطة ، وأخرى بغير واسطة : إما إلهاما ، وإما خطابا.

[سورة الشورى (42) : الآيات 52 إلى 53]

وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)

رُوحاً مِنْ أَمْرِنا يريد : ما أوحى إليه ، لأن الخلق يحيون به في دينهم كما يحيى الجسد بالروح. فإن قلت : قد علم أن رسول اللّه «4» صلى اللّه عليه وسلم.

---

(1). قوله «أو أن يسمع من وراء حجاب» لعله : أو بأن. (ع)
(2). لم أجده.
(3). متفق عليه ، وقد تقدم طرف منه في الأنعام.
(4). قال محمود : «فان قلت : قد علم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يدرى الكتاب قبل الوحى ... الخ» قال أحمد : لما كان معتقد الزمخشري أن الايمان اسم التصديق مضافا إليه كثير من الطاعات فعلا وتركا حتى لا يتناول الموحد العاصي ولو بكبيرة واحدة اسم الايمان ولا ياله وعد المؤمنين ، وتفطن لإمكان الاستدلال على صحة معتقده بهذه الآية : عدها فرصة لينتهزها وغنيمة ، ليحرزها ، وأبعد الظن بايراده مذهب أهل السنة على صورة السؤال ليجيب عنه بمقتضى معتقده ، فكأنه يقول : لو كان الايمان وهو مجرد التوحيد والتصديق كما نقول أهل السنة ، للزم أن ينفى عن النبي عليه الصلاة والسلام قبل المبعث بهذه الآية كونه مصدقا ، ولما كان التصديق ثابتا للنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعث باتفاق الفريقين : لزم أن لا يكون الايمان المنفي في الآية عبارة عما اتفق على ثبوته ، وحينئذ يتعين صرفه إلى مجموع أشياء : من جملتها التصديق ، ومن جملتها كثير من الطاعات التي لم تعلم إلا بالوحي ، وحينئذ يستقيم نفيه قبل البعث ، وهذا الذي طمع فيه : يخرط القتاد ، ولا يبلغ منه ما أراد. وذلك أن أهل السنة وإن قالوا : إن الايمان هو التصديق خاصة حتى يتصف به كل موحد وإن كان فاسقا - يخصون التصديق باللّه وبرسوله ، فالنبي عليه الصلاة والسلام مخاطب في الايمان بالتصديق برسالة نفسه ، كما أن أمته مخاطبون بتصديقه ، ولا شك أنه قبل الوحى لم يكن يعلم أنه رسول اللّه ، وما علم ذلك إلا بالوحي ، وإذا كان الايمان عند أهل السنة هو التصديق باللّه ورسوله ، ولم يكن هذا المجموع ثابتا قبل الوحى ، بل كان الثابت هو التصديق باللّه تعالى خاصة : استقام نفى الايمان قبل الوحى على هذه الطريقة الواضحة ، واللّه أعلم. [.....]